تاريخ الترك في آسيا الوسطى

تأليف

المستشرق الروسى

و . بارتولد

ترجمة الدكتور

أحمد السعيد سليمان

راجعه

إبراهيم صبري



ملتزم الطبع والنشر

مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد بك فريد (عماد الدين سابقاً)

تاريخ الترك فى آسيا الوسطى

تأليف

المستشرق الروسى

و . بارتولد

ترجمة الدكتور

أحمد السعيد سليمان

راجعه

إبراهيم صبرى

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد بك فريد (عماد الدين سابقا)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

آسيا الوسطى شبه منحرف تحده من الجنوب جبال الهمالايا ومن الجنوب الغربى هضبة البامير ومن الغرب جبال تيان شان ومن الشمال جبال الألتاى ويابلونوى وستانوفوى ومن الشرق جبال كنجان وكوكونور.

وتبلغ مساحة آسيا الوسطى المحصورة بين هذه الحدود حوالى ستة ملايين كيلو متر مربع هى فى مجموعها سلسلة من الجبال والهضاب الجعدة والمنخفضات

وإذا استثنينا الصينيين الذين يسكنون آسيا الوسطى أمكن القول بأن العنصرين اللذين يعمران تلك المناطق هما العنصر التركى والعنصر المغولى وهما مدار البحث فى هذه المحاضرات.

وقد كنا — فى دراستنا لآسيا الوسطى — نقنع من المصادر بما روى الرحالة من العرب والصينيين والأوربيين (1)، وبكتب الجغرافيا التى حررها

(١) أهم هذه الرحلات: أ — رحلة أحمد بن فضلان الذى جاب بلاد الترك فى سنتى ٩٢١ — ٩٢٢، وقد نشر العالم التركى أحمد زكى وليدى نصها العربى مع ترجمته الألمانية سنة ١٩٣٩ بعنوان:

Ibn Fadenn's Reisebericht. leipzig 1939 (Abhandlungen für die Kunde des Morgen Landes. XXIV. 3)

ب — رحلة أبى دلف:

وقد ترجم روزر ساو **Dr. Alf. V. Rohr Saue** الجزء الخاص منها بالترك وذلك فى سنة ٣٩ بعنوان

Abu Dulaf's Berichte über seine Reise nach Turkestan, China und India.

حـ — رحلة ابن بطوطة (١٣٢٤ — ١٣٥٣) ترجمها للفرنسية.

= **Defrémeryet, Sanguitti Paris 1854.**

العرب ابتداءً من القرن التاسع الميلادى حتى القرن الثالث عشر[1] ، وبكتب التاريخ

د — رحلة غياث الدين النقاش (فارسية) وعنوانها سفر نامة چين وكان غياث الدين هذا عضواً فى هيئة أوفدها شاهرخ إلى الصين سنة ١٤١٩ وقد ترجمها كاترمير إلى الفرنسية انظر (ج ١٤) Notice et Extraits de Manuscrits .

وأما رحلات الصينيين فأهمها : (أ) رحلة هيوان — تسانغ وهو راهب صينى قطع فى سنة ٦٣٠ ميلادية بلاد الترك المعروفين بـ (كوك تورك) فى طريقه إلى الهند ، وقد ترجمها إلى الفرنسية Stanislas Julien سنة ١٨٥٧ .
بعنوان Memoires sur les Contrées occidentales

ب — رحلة تسانغ تسو نج وقد زار هذا الزاهب تركستان بينما كان جنكيز خان يغير على المناطق الغربية ترجمت رحلته إلى الإنجليزية ترجمها A. Waley بعنوان

Travels of an alchimist London 1931

وأما كتب الرحلات الأوروبية فقد حررها التجار الأوربيون ، ومروجو المسيحية من من مبعوثى باباوات روما ، ولويس التاسع وأهمها :

(أ) رحلة بلانو كاريني وقد أوفده البابا انوسان الرابع إلى قاراقورم فى ١٢٤٥ — ١٢٤٦ .

(ب) رحلة روبروق وهو قسيس فرانسيسكانى أوفده لويس التاسع سنة ١٢٥٣ إلى قاراقورم أيضاً : وقد ترجمها إلى الإنجليزية W. Rockhill

The Journey of William of Rubruck to the eastern part of the World lon don1900,

حـ — رحلة ماركو بولو (١٢٧١ — ١٢٩١) وهو تاجر من أهل البندقية سافر إلى بلاد المغول وجاب فى الطريق بدخشان وختن وصحراء جوبى واتصل بقوبيلاى وطوف فى شمال الصين وجنوبها ورجع بطريق البحر ماراً بالملايو وبورما والهند وإيران وقد نشر H. yule نصها الإنجليزى فى لندن سنة ١٨٧٦ ثم طبعت ثانية سنة ١٩٢٩ وترجمها إلى الفرنسية A. J Charignon

Le livre de Marco Polo, Pekin (3vols) 1924, 26, 28.

د — رحلة قلاوبخو الأسبانى
وقد أوفد من قبل ملك قسطلة لزيارة تيمور فى سمرقند .

بين (١٤٠٢ — ١٤٠٧) وقد نشرت الأكاديمية الروسية النص الأسبانى مع ترجمته الروسية فى بطرسبرج سنة ١٨٨١ .

(١) وأهم هذه المصادر هى كتب المكتبة الجغرافية العربية .
Bidliothneca geographorum Arabicorum.

كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبه (٨٤٠)

كتاب البلدان لأحمد بن الواضح اليعقوبى كتبه سنة ٨٩١

العربية والفارسية [1] ، ثم بما صنف الأوربيون أخـــذاً عن

= أخبار البلدان لابن الفقية الهمدانى (٩٣٠)
المسالك والممالك للاصطخرى (٩٥١)
المسالك والممالك لابن حوقل (٩٧٦)
أحسن التقاسيم فى معرفة الأقليم لمحمد بن أحمد المقدسى ٩٨٥
وكذلك تحفة الألباب لأبى حامد الأندلسى الغرناطى (١١٦٢) وقد ترجمه gabriel Ferrand إلى الفرنسية ١٩٢٥ J. A, 1925 t. CCVII .

معجم البلدان : ياقوت الحموى ت ١٢٢٩ نشره ووستنفلد فى ليبزج سنة ١٨٦٦ — ٧٣ فى ٧ مجلدات .

تقويم البلدان لأبى الفدا وقد نشره مترجماً إلى الفرنسية دهسلان De Slane وستانيسلاس جويار S. guyard ١٨٤٨ — ١٨٨٣ ونشر Ch. Schier النص العربى سنة ١٨٤٦ فى درسدن .

مسالك الأبصار لابن فضل الله العمرى ت ١٣٤٨ والأجزاء الخاصة بالترك هى الأجزاء الثلاثة الأولى وقد نشر تاشنر Fr. Taeschner سنه ١٩٢٩ القسم الخاص بالأناضول .

al-umari' s Bericht ùber anatolien, Leipszig

(١) أهم كتب التاريخ التى تناولت تاريخ الترك فى آسيا الوسطى هى :
— فتوح البلدان للبلاذرى ت ٨٩٧ ونشره ده عويه ١٨٦٦
— تاريخ الأمم والملوك للطبرى ت ٩٣٢
— مروج الذهب لعلى بن الحسين المسعودى ت ٩٥٧
— تجارب الأمم لابن مسكويه ت ١٠٢٩
— كتاب البدء والتاريخ لمطهر بن طاهر المقدسى ينتهى بتاريخ حوادث سنة ٣٥٠ (٩٦١) ، وقد عنى بالحديث عن عقائد الترك وعن تقاليدهم .
نشره مع ترجمته الفرنسية كليمان هيوار Clement Huart بعنوان

Le livre de la creatian et de l' Gistoire, Paris 1899—1916 5 vol.

— التاريخ الكامل لابن الأثير .
— تاريخ مختصر الدول لأبى الفرج جريجوريس بن العبرى (ت ١٢٨٦).

Gregorius, Bar Hebraeus.

وقد نشره Pocoek مع ترجمته اللاتينية فى أكسفورد سنة ١٦٦٣ ثم نشر فى بيروت سنة ١٨٩٠ .

— زين الأخبار (فارسى) لأبى سعيد عبد الحى الكرديزى كتب سنة ١٠٤٠ وعنى بتاريخ خراسان وقد نشر ميرزا محمد خان القروينى هذا الجزء الخاص بخرسان سنة ١٩٣٧ فى (طهران) . =

= — أبو الفضل محمد بن حسين البيهقى ت ١٠٧٧ تاريخ بيهق (فارسى) تاريخ السلطان مسعود بن محمود الغزنوى ، نشره Morley فى كلكتا سنة ١٨٦٢ ثم نشره سعيد نفيسى فى طهران سنة ١٩٤٥ فى مجلد بن ثم نشره بعد ذلك قاسم غنى وعلى فياض وترجمه إلى العربيه الأستاذ الدكتور يحيى الخشاب والأستاذصادق نشأت.

— تاريخ بخارى (فارسى) لأبى بكر محمد بن جعفر النرشخى ت ٩٥٩ ، قدم لنوح ابن نصر السامانى وقد نشره شيفر Ch. Schefer بعنوان .

Description topographique et histori que de Bukhara. Paris 1892.

— تاريخ بيهق : لأبى الحسن على بن زيد البيهقى بن فندق ت ١١٦٩ (فارسى) وقد نشره أحمد بهمنيار سنة ١٩٣٨ فى طهران .

— طبائع الحيوان لشرف الزمان المروزى ، نشر مينورسكى القسم الخاص بتاريخ الترك والهند والصين .

Sharaf al-Zaman Tahir Marvazi

on China, the Turks and India. 1941

ولم يكن هذا الكتاب قد وجد أيام ألقى بارتولد المحاضرات انظر ص ٨٨ .

— تاريخ جهانكشا لعطا ملك الجوينى ت ١٢٨٣ نشرفى سلسلة جب فى ثلاثة مجلدات وقد وزر عطا ملك لهولاكو وتردد كثيراً على منغوليا .

— جامع التواريخ لرشيد الدين بن أبى الخير الطبيب ت ١٣١٨ ويوشك هذا الكتاب أن يكون أهم مصدر عن تاريخ القبائل التركية وتاريخ البدو من التتار فى عهد جنكيز خان ، وبه فصل هام عن تاريخ (خطاى) أو (الصين) ومما يزيد قيمته أن المؤلف عين وزيراً لغازان خان سنه ١٢٩٨ (وقد احتفظ بالوزارة فى عهد أولجايتو وقدم له الكتاب سنة ١٣٠٧ ثم قتله أبو سعيد سنة ١٣١٨) وقد أعانه منصب الوزارة على الإطلاع على الوثائق فى خزائن غازان . وقد أفاد أيضاً من (حوليات المغول) المعروفة بالكتاب الذهبى (آلتين دفتر)

وكان أول من حاول ترجمة هذا الكتاب هوهامر بور جشتال إذ ترجم الجزء الخاص بتاريخ الصين ولكن كلابروت Klaproth وجد فى الترجمة أخطاء كثيره فنشر ترجمة أخرى فى سنة ١٨٣٣

Description de la Chine sous la dynastie Maugole, trao. du persan et accom pagnée de notsJ. A serie 11, Vol XI, 1833,

وقد اعتمد دهسون d' Ohsson فى كتابه Histoire ds Mongols الذى صدر سنة ١٨٢٤ ، على كتاب رشيد الدين

وفى سنة ١٨٣٦ بدأ كاترمير Quatrmere يترجم تاريخ الايلخانيين عن كتاب رشيد الدين بعنوان **Histoire des Mongols la de Perse**

وقد نشر المستشرق الروسى Berezin فى ١٨٥٦ — ١٨٨٨ ترجمة القسم الأول من الجزء الأول حتى هلاك جنكيزخان وذلك فى أربعة مجلدات وفى سنة ١٩١٠ نشر بلوشيه

هـــــذه المصادر(١) .

— Blochet تاريخ بعض خلفاء جنكيزخان : Hisroire ds Monsols successeurs de Tchiniz Khagan (G. M. S.)

وفى سنة ١٩٤٠ نشر K. Jahn تاريخ غازان بعنوان

History of Ghazan knan G. M, S,

ثم ترجم A. K Arend تاريخ الايلخانيين إلى الروسية ونشره فى ليننجراد سنة ١٩٤٦ .

— ذيل جوامع التواريخ للطف الله حافظ أبرو (١٤٣٠) نشره خ بيانى فى طهران سنة ١٩٣٨ وترجمه نفس هذا الناشر إلى الفرنسية

Hafizi Abru : Chronique des rois mongols en Iran

— الملحقات لجمال الدين أبى الفضل بن محمد القرشى وهو ذيل على معجم لغوى ، تناول فيه المؤلف تاريخ القاراخانيين والسلاجقة وخانات الختائية ونشرت منه أجزاء فى كتاب برتولد عن تاريخ تركستان .

— ظفر نامة لنظام الدين الشامى وهو تاريخ غزوات تيمور ترجمه عن الفارسية إلى التركية نجاتى لوكال انقره (١٩٤٩)

(١) أوسع هذه المصادر هو Bibliotheque Orientale. ou Dictionnaire Universel d' Herbelat

ظهرت طبعته الأولى ١٦٩٧ والثانية ١٧٧٦

وللطبعة الثانية ذيل هام : Supplement â la Bibliotheque Orientale par C, Visdelou, et A. Galland

وقد كتب Visdelou حوالى مائتى صحيفة من هذا الذيل تشتمل على معلومات قيمة عن الشرق الأقصى وآسيا الوسطى من الناحيتين التاريخية والجغرافية ، استقاها كلها من المصادر الصينية .

شرح فى القسم الأول من هذا الذيل كثيراً من الاصطلاحات التى يستعملها المؤلفون المسلمون عن الصين

أما القسم الثانى فعنوانه تاريخ بلاد التتار Histoire de la Tertarie

تناول فيه تاريخ القبائل والشعوب فى منغوليا وآسيا الوسطى

ويتناول القسم الثالث دراسة الاصطلاح : (خان)

ويتناول الرابع أسماء الأماكن والشعوب فى الشرق الأقصى وآسيا الوسطى .

ثم يعرض فزدلو تاريخ الخمسة الأول من أباطرة المغول .

— d' Ohsson J Hotoise des Mangols

تناول تاريخ المغول من جنكيزخان إلى تيمور

— Howorth : Historyof theMongals

— Barthold : Turkestan down to the Mongol invasion

وبه مقدمة ببليوجرافية شاملة

— R.Grousset L' empire de Steppes Paris 1947

ولـكن معلوماتنا عن آسيا الوسطى مالبثت — بفضل البعثات العلمية[1] — أن عمقت وتشعبت . وكان أكبر ما أحرزت هذه البعثـات من توفيق هو الـكشف عن نقوش أورخون ثم حل رموزها على يد العالم طومسن Thomsen فى أواسط القرن التاسع عشر ، ولـكن هذه البعثات قلت بعد الحرب العالمية الأولى ، ثم ما زالت تقل حتى أصبحت مقصورة الآن على العلماء الروس .

وبارتولد (١٨٦٩ — ١٩٣٠) صاحب هذه المحاضرات أحد هؤلاء العلماء كرّس حياته لدراسة المنطقة الممتده من بحر قزوين غرباً إلى منغوليا شرقاً ، وعن هذه المنطقة كتب معظم مؤلفاته .

وقد تناولت هذه المحاضرات تاريخ الترك من عهد ما قبل التاريخ التركى إلى أيامنا هذه ، فهى تحدثك عنهم من لدن كانوا قبائل لم يوسموا بعد بالاصطلاح الذى عرفوا به طوال التاريخ وهو كلمة (الترك) إلى أن دالت دولهم فى آسيا الوسطى فخضع قسم منهم للروس وخضع الآخر للصين .

ولم يكن بدٌّ والموضوع على هذا النحو من السعة من أن تـكون الالمامات المحاضر ببعض النقاط سريعة مجمـــلة أقرب إلى الإشارات المبتورة منها إلى الشرح المفصل .

---

(١) بدأت هذ البعثات منذ أواخر القرن الثامن عشر فقد بدأت الأكاديمية الروسية تنظمها بأمر من كاتريثا الثانية وكانت هذه البعثات تعنى قبل كل شىء بممتلـكات روسيا فى آسيا وكثرت بنوع خاص فى المناطق المجاورة للطرق التى تربط هذه المتلـكات بالشرق الأقصى تجاريا . وكان Prejevalskii (١٨٣٥ — ١٨٨٨) أهم باحث فى هذه المنطق بعد ذلك فلما مات واصل Potanin (١٨٣٥ — ١٩١٤) و Koslov الدراسة من بعده وعنى هذان العالمان بالحدود الصينية التبتيّة .

وفى نفس الوقت عنى بعض العلماء بدراسة منغوليا وفى سنة ١٨٨٩ اكتشف yadrintsev أماكن العواصم التركية القديمة فى القرنين السابع والثامن :

وكانت أهم البعثات هى تلك التى نظمتها الجمعية الفنية — الأوغرية بهلسنـكى إذ استطاعت تصوير نقوش أورخون التى وُفّق طومسن إلى قراءتها . وبعد هذا النجاح كثرت البعثات الأوروبية إلى أن قصرت أخيراً على الروس .

كما لم يكن بد — وقد ألقى الموضوع محاضرات — من أن تكون به شروح واستطرادات كثيرة ، إلا تكن جميعها وثيقة الصلة بالموضوع ، فإنها جميعها ، تلقى أضواء على جوانبه .

وقد عنى بارتولد فى كتاباته التاريخية بدراسة التأثيرات الحضارية والدينية واللغوية ، وبدراسة العوامل الجغرافية والاقتصادية ، ودراسة الطرق والمسالك التجارية البرى منها والبحرى .

ومن هنا كثرت مصادره ، فهو لا يكتفى بالمصادر التاريخية والجغرافية التى أشرنا إليها من قبل بل يرجع أيضاً إلى النتائج التى وصلت إليها البعثات العلمية فى آسيا الوسطى ثم يستعين كذلك العلوم التاريخية المساعدة فيرجع إلى الأبحاث الأتنوغرافية والأثرية ، كما يرجع كثيرا إلى علم المسكوكات Numismatographie يضبط به الأسماء ، ويقف به على دقائق الوضع الاقتصادى فى العهود المختلفة ؛ ثم يرجع بعد هذا كله إلى كتب الأدب والفولكلور ، وإلى كتب التصوف والمناقب والتراجم ؛ يدرسها ويستنبط منها .

فلا جرم كانت هذه المحاضرات موسوعة مجملة لتاريخ آسيا الوسطى ، كتبها بارتولد وألقاها باللغة التركية فى جامعة استانبول سنة ١٩٢٦ — ١٩٢٧ (١) وقد سبق أن ترجمت هذه المحاضرات إلى الألمانية فى مجلة العالم الإسلامى الألمانية Die Welt des Islams بعنوان اثنتا عشرة محاضرة عن تاريخ أتراك آسيا الوسطى .

Zwölf Vorlesungen üder die Geschichte der Turken Mittelasiens.

ثم ترجمها م . دونسكيس عن الألمانية إلى الفرنسية (سنة ١٩٤٥) بعنوان تاريخ أتراك آسيا الوسطى Histoire des Turcs d' Asie Centrale

---

(١) كان ذلك بدعوة من حكومة أتاتورك وكان المراد بهذه المحاضرات أن تعلم الأتراك على الأصول البعيدة للقومية التركية .

نعتوننا

وحاولت المترجمة أن تخرج من هــذه المحاضرات كتابا فعنونتها وعنونت فقراتها ، وحذفت كثيرا من الاستطرادات وأدرجت بعضها فى الحواشى ومن هنا كان النص الفرنسى — وهو ترجمة الترجمة — أسهل تناولاً ولكنه أقل معلومات .

وقد ترجمنا نحن هذه المحاضرات عن الأصل التركى ، لم نغادر شرحا ولا استطرادا ثم زودناها بمقدمة ببليوجرافيه مختصرة و بثلاثة فهارس ليسهل الأخذ عنها ولتحفز على المضى فى دراسة مهد من مهود الشعوب الإسلامية هو آسيا الوسطى .

أحمد السعيد
دكتوراه الدولة من
السوربون بمرتبة الشرف الأولى
ومدرس اللغات الشرقية بكلية الآداب
بجامعة القاهرة

القاهرة ٣٠ من المحرم سنة ١٣٧٨ هـ
١٧ أغسطس سنة ١٩٥٨

المحاضرة الأولى

المراد بهذه المحاضرات هو أن أطلعكم، بقدر ما تسمح لنا به ساعات الدرس، على ماوصل إليه العلماء الروس والأوربيون عن تاريخ أقوام الترك، ولكنكم سترون أن النتائج التى وصل إليها هؤلاء العلماء ليست عظيمة المقدار، وسترون أيضاً أن كثيراً من مسائل هذا التاريخ لم يُحَلَّ حلا نهائياً. والسبب فى ذلك هو صعوبة الأخذ عن المصادر الأولى لتاريخ الترك، وضرورة الوقوف على علوم ولغات كثيرة قل أن يجتمع العلم بها لشخص واحد.

فلئن اقتضى الأمر عادة أن نتعلم اللغة لندرس تاريخ أصحابها ولنطّلع على ألوان حياتهم، فإن لدراسة تاريخ الترك وضعاً خاصاً. وذلك أن المصادر الأولى لهذا التاريخ لم تكتب بلغة الترك، ومن هنا كان موقف المتخصص فيه مخالفاً تماماً لموقف المتخصص فى تاريخ الروس أو أى أمة من أمم أوربا الغربية، فنحن مضطرون من أجل أن نعرف تاريخ الترك زمان بداوتهم «أى زمان جهلهم الكتابة» إلى أن نقرأ حكايات جيرانهم، فإذا أردنا دراسة تاريخهم بعد أن فتحوا الممالك المتمدينة، وبعد أن تحولوا هم أنفسهم من البداوة إلى الحضارة، وبعد أن أصبحت هذه البلاد المتمدينة تحت حكم أسر تركية.. إذا أردنا هذا واجهتنا صعوبة أخرى وهى أن الترك فى هذا الدور من تاريخهم تأثروا حضارياً بالعناصر المغلوبة، وتأثروا أيضاً باللغات الأدبية لهذه العناصر، وبخاصة النثر، وبدءوا يستعملون فى كتاباتهم لغة هؤلاء المغلوبين. ويمكن أن نقول بلا تردد إن أحوال الترك المقيمين فى شرق آسيا وخاصة فى منغوليا إنما تعرف من المصادر الصينية (يظن كثيراً أن الترك هاجروا من منغوليا فى القرن العاشر الميلادى).

فأما الترك الذين هاجروا إلى الجزء الغربى من آسيا الوسطى وتأثروا بالحضارة

الإسلامية فإن أحوالهم إنما تعرف من المصادر العربية ، ومن المصادر الفارسية بوجه خاص .

فأما فى داخل تركستان نفسها فلم يحرَّر أى أثر تاريخى فى العصور الوسطى وإن كان شىء قد حرِّر فلا بد أنه ضاع . فإذا أردنا الوقوف مثلا على تاريخ خانات المغول فى آسيا الوسطى ، أو على تاريخ تيمور وأحفاده ،فإننا لانكاد نجد ذلك إلا فى مؤلفات حررت داخل حدود إيران . والحق أن كتب التاريخ لم تبدأ فى الظهور داخل تركستان إلا فى القرن السادس عشر ، وأنها كثرت فى عهد الأوزبك . وقد تكونت فى تركستان ثلاث خانيَّات أوزبكية . إحداها فى بخارى وقد ظلت تستعمل حتى زمن قريب اللسان الفارسى فى المعاملات الرسمية وفى الأدب مع استثناءات قليلة . والثانية فى خيوه وكانت تستعمل اللغة التركية الجارية فى آسيا الوسطى . والثالثة فى خوقند وقد استعملت اللغة التركية أحياناً ، ولكنها كانت تستعمل الفارسية أكثر ، وليس بين الدول التركية جميعها مايمكن أن تَسْتَمِدَّ تاريخه من مصادر محررة بالتركية إلا الدولة العثمانية ، ولكن لغة المؤرخين العثمانيين تحوى من الكلمات العربية والفارسية أكثر مما تحوى من الكلمات التركية ،وهى لذلك غير مفهومة لكثير من الأتراك .ومن هنا يمكن القول بأنه لاتوجد كتب تاريخية كتبت بلغة تركية خالصة . ولئن كان صاحب الدراسات الفارسية لايستطيع حتما أن يكون مؤرخا لإيران (من المعلوم أن تاريخ إيران حتى عهد المغول لم يكتب بالفارسيّة وإننا مضطرون لدراسته فى المصادر العربية واليونانية) فكذلك صاحب الدراسات التركية لايمكن أن يكون مؤرخاً للترك إلا نادراً ؛ إذ ربما اقتضت دراستك فترة من تاريخ الترك أن تكون أولا صاحب دراسات صينية ، وفترة ثانية أن تكون صاحب دراسات عربية ، وثالثة أن تكون صاحب دراسات فارسية .

ومن الآثار التى تهم صاحب الدراسات التركية وتهم المؤرخ أيضاً آثار

أورخون ، وهى تخلد أقدم ذكرى للسان التركى . وقد اكتشفت فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وهى أقدم آثار تركية أنشأها الترك أنفسهم عن تاريخهم ، فأصحاب هذه الآثار قد سموا أنفسهم لأول مرة فى التاريخ بالترك ، وهم قوم ظهروا فى القرن السادس واستولوا فى زمن قصير على مساحات تمتد من حدود الصين إلى إيران و بيزنطة ، ونحن من أجل ذلك الجوار نملك مصادر مختلفة تحدثنا عن هؤلاء الأتراك .

ولا يعرفُ تاريخَ البدو الذين سبقوا هؤلاء إلا الصينيون ، وقد كان معروفاً — حتى قبل أن تُحَلَّ نقوش أورخون — أن هؤلاء القوم الذين أقاموا لأنفسهم دولة فى القرن السادس هم الترك ، ولئن كان تفسير كلمة Tu — Küe (تو — كه — ئه) الواردة فى المصادر الصينية بمعنى « الترك » موطن خلاف فإن كلمة توركوا Turkoi الواردة فى المصادر البيزنطية قد قبلت على أنها بمعنى الترك بلا خلاف .

والفرق بين حكومة الترك فى القرن السادس و بين غيرها من حكومات البدو هو أن الدولة عند أتراك القرن السادس كانت منذ نشأتها تحت إمرة أسرة ، لا تحت إمرة شخص . و بناء على هذا فقد كان الخانات الحاكمون فى غرب البلاد مستقلين من بداية أسرهم استقلالا تاماً، فكانوا يستقبلون السفراء و يعقدون المعاهدات دون أن يراجعوا فى ذلك الخاقان الأكبر « باشخاقان » المقيم فى الشرق كما كانت تفعل القبيلة الذهبية « آلتين أوردو » فى أواخر عهد المغول ، ورغم أن دولة أتراك الغرب T'ou Kiue لم تكن تبلغ فى أواخر أيامها درجة دولة المغول إلا أنها كانت تتصل ثقافياً بالخارج وكانت واسطة لاتصال حضارة الشرق الأقصى بحضارة غرب آسيا ، ومن هنا عنى بها علماء أوروبا و بخاصة أصحاب الدراسات الصينية . وآية هذه العناية الكتاب الذى وضعه عالم الصينيات الفرنسى شاڤان Chavannes فى أوائل القرن العشرين والذى نشرته الأكاديمية الروسية والذى تناول أتراك الغرب هؤلاء .

وفى هذا الكتاب قارن المؤلف بين الأخبار التى سجلها الصينيون عن هؤلاء الأتراك وبين المعلومات التى وردت عنهم فى المصادر الإسلامية والبيزنطية والأرمنية ، هذا على حين أن أتراك الغرب أنفسهم لم يتركوا عن تاريخهم إلا بعض نقوش يسيرة على شواهد القبور .

نقوش أورخون :

وتتناول نقوش أورخون فترة نصف قرن فقط من ٦٣٠ إلى ٦٨٠ وهى الفترة التى كان أتراك الشرق فى أثنائها تحت حكم الصين . وتتحدث كذلك عن أن هؤلاء الترك قد استطاعوا الحصول على استقلالهم تحت قيادة بعض الخانات الجدد ، وأن هؤلاء قد استطاعوا فى زمن قصير أن يخضعوا لحكمهم أبناء جنسهم من أتراك الغرب ، ومع أن العالم الدانمركى طومسن Thomsen قد قرأ هذه النقوش منذ ثلاثين سنة[1] فإنها ما زالت موضع بحث وتأويل ودراسة . ويجب على من يعتمدون على ترجمة هذه النصوص « لأنهم لا يفهمون لغة النص الأصلى » أن يتحفظوا فى استنتاجاتهم التاريخية ، ولا شك أن لتراجم طومسن ورادلوف قيمة كبرى فى توضيح هذه النصوص . وكان طومسن قد أعلن بعد أن نشر ترجمته الأولى أنه لن يشتغل ثانية بهذه النقوش ، ولكنه لحسن الحظ لم يحقق هذه النية ، ووضع عنها عدة أبحاث ، وقد نشرت محاولته الأخيرة لترجمة هذه النصوص فى المجلة الشرقية الألمانية Z.D.M.G. سنة ٢٤ — ٢٥ .

ومع أنه فى محاولته الأخيرة قد قام بتصحيحات صائبة موفقة لترجمته الأولى فما زالت فى ترجمته فروض قد تسوق القارىء إلى أخطاء جسيمة ، فمن ذلك ما يسوقه طومسن فى ترجمته لوصف معركة اشترك فيها كول تكين أخو الخان ؛ ففى أثناء المعركة رمى الأعداء كول تكين بأكثر من مائة سهم أصابته ،

(١) أى ستين سنة الآن .

ووردت فى نقوش أورخون (بحسب قراءة طومسن) عبارة « يارقندا يالماسيندا » وقد ترجمها طومسن هكذا « فى تطهيمته والهلال الماسى الذى على جبينه » وهكذا قرأ كلمة « يالما سيندا » كأنها آى — آلما سيندا ومعنى هذا أن كول تكين كان يضع على رأسه مغفرا فى شكل هلال مزين بالماس و إن صح هذا لكان أمراً هاماً عند المؤرخين ولكنَّ معنىً كهذا لا يمكن مع الأسف أن يخرج من النص .

ولما لم أكن من أصحاب فقه اللغة فإنى لا أستطيع الجدل فى معانى الكلمات ولكنى مع هذا سأكتفى بالقول بأن هناك كلمات مكتوبة برسم واحد ، ولكن قراءتها وترجمتها كانت تختلف من موضع إلى موضع ويخيل إلى أن مثل هذا التصرف لا يقبل إلا فى حالات الضرورة القصوى وقد كان طومسن فى غنى عن هذا التصرف بل إنه لو لزم معنى واحداً للكلمة لكانت الترجمة أكثر استقامة وتوفيقاً . ومن الأمثلة على ذلك كلمة أولمك olmek بمعنى الموت فإنها ترد كثيراً فى النص ، وتستعمل أحياناً بصدد شعب بأسره ولاشك أن معناها فى مثل هذا المقام ليس الموت بالمعنى الأول للكلمة و إنما معناها الاضمحلال والتشتت وأن هذا الشعب ينهض بعد حين ، وقد فهمها طومسن على هذا النحو ، ولكنه مع هذا يقرأ هذه الكلمة أحيانا و بغير ضرورة : (أولمك ülmak) ويكون معناها عندئذ الانقسام ، ولو لم يغير طومسن الكلمة ولا معناها واحتفظ لها بنفس الترجمة الأولى « اضمحلال » لكان المعنى أكثر توفيقا وخاصة فى مثل عبارة « يا كيليب أولمك » أى هلك بالإثم فمع أن العبارة تفيد أن الهلاك كان نتيجة حتمية لما ارتكبَ من خطأ ، فإن طومسن يترجمها هكذا . . « إنك انقسمت لأنك خنت العهد » وهى ترجمة خاطئة فيما أظن .

وكان رادلوف قد ترجم هذه العبارة ترجمة صحيحة فى ترجمة له قديمة . وقد نشرت ترجمة طومسن أول الأمر باللغة الدانمراكية ثم نشرت مرة ثانية بالألمانية بإذن منه و بعد أن أدخل عليها بعض التصحيحات بنفسه . وقد ادعى

مترجم هذه الترجمة الألمانية أنها بلغت الكمال وأن ترجمة رادلوف قد أصبحت بعد ظهور الترجمة الألمانية عتيقة . ولكننا بعد أن سردنا الأمثلة المتقدمة وبرهنا على أن قراءة بعض المواضع مازالت خلافية نقرر أنه يوجد فى ترجمة رادلوف تأويلات أصح من تأويلات طومسن .

النظام السياسى والاجتماعى عند أتراك الأورخون:

وتصور نقوش أورخون حياة قوم من البدو وحكومتهم وقد سبق أن بيّن رادلوف الفرق بين قيام الدول البدوية وانقراضها وبين مايفهمه الأوربيون من هذا إذا هم تحدثوا عن « الدولة » بالمعنى الحديث وذلك فى كتابه Aus Sibirien وأيضاً فى مقدمة طبعة قوتادغو بيليك وقد ترجمت هذه المقدمة إلى الروسية بعنوان: (حول مشكلة الأويغور) وقد أيدت نقوش أورخون نظريات رادلوف كما أقر بذلك طومسن.

ويرى رادلوف أن البدو لا يفكرون فى الظروف العادية فى أن تضمهم رابطة سياسية بل يرى كل فرد أن أصول الإدارة فى العشيرة تكفل له الأمن ، أى أن الجماعة فى هذا الدور من أدوار التطور تكون من القوة بحيث تنفذ إرادتها دون وجود سلطة تنفيذية ، بل تجرى أمورهم طبقاً للعرف الذى تولده علاقات العشائر بعضها ببعض بغير حاجة إلى عقد ميثاق أو إلى تكوين جهاز إدارى ، على أن الخانات وهم رمز السلطة فى الدولة كانوا يستطيعون فى أحيان نادرة أن يخضعوا لحكمهم شعباً كاملا أو عدة شعوب ، وكانوا فى مثل هذه الحال يقبضون على أزمة الأمور بالقوة فلاهم يُعيَّنون ولاهم يُنتخبون وإنما يجد الشعب أو تجد جماعة الشعوب نفسها أمام الأمر الواقع فتقبله بلا مقاومة ، أو تضطر إلى قبوله بعد مقاومة طويلة . وكان الخان لا يستطيع إخضاع قومه الأقربين من البدو إلا بعد معارك دامية قد تكون أحمى وطيسا من تلك التى يخوضها فى غزو البلاد المتحضرة وكانت غنائم هذه الحروب هى التى تصلح بين الخان و بين قومه .

وتؤكد نقوش أورخون أن الخانات كانوا ينحدرون من الأتراك الغز أو التغزغز ومع هذا فإنهم يحاربون دائماً قبائل الغز وغيرها من قبائل الترك .

وتمدنا نقوش أورخون ، عن هذه الحروب الداخلية بمعلومات أكثر تفصيلا مما تُمِدُّنا به عن الحروب مع الصين وغيرها من البلاد المتحضرة المجاورة . وكانت هذه الحروب الخارجية فى نظر الخان وأتباعه وسيلة طبيعية للحصول على الغذاء والكساء للجياع والفقراء .

وقد تناولت هذه النقوش عاملا من عوامل قيام الدولة عند البدو غفل عن ذكره رادلوف وذلك العامل هو اشتداد النزاع بين الطبقات وتوتر العلاقات بين الأغنياء والفقراء و بين « البكوات » والعامة . وتروى هذه النقوش أنه حين حكم الصينيون بلاد الترك سارعت الأرستقراطية التركية — استبقاء لامتيازاتها — فوطّنت نفسها فى يسر على ذُلّ الحكم الأجنبى وتنكرت للتقاليد وللعادات القومية فكانت لذلك خائنة . هذا على حين لم يسغ العامة الحكم الأجنبى بسهولة ، ولم يتخلوا عن تقاليدهم ، بل ازداد بغضهم للبكوات بسبب تقليدهم للصينيين وتخلقهم بأخلاقهم . وقد أفاد أبناء الخان من هذا الوضع فأثاروا الشعب ضد الحكم الصينى وحصلوا بذلك على الاستقلال للدولة التركية .

وفى تاريخ الأقوام البدوية لآسيا الوسطى مثلٌ آخر لشعب ، ولدولة قامت نتيجة للصراع الداخلى بين الطبقات ، وتلك هى دولة جنكيز خان أو دولة المغول . إلا أن هذه الدولة قامت نتيجة انتصار الأرستقراطية ، فقد كان جنكيز خان — مثله كمثل خاقان الترك فى القرن الثامن — لا يذكر مصلحة العامة ولكن يتحدث عن الخدمات التى أداها لأبناء طبقته من أصحاب الأرستقراطية . والحق أن هذا النصر للأرستقراطية قد ضمن لها ولطبقة البكوات حياة آمنة فى الوطن ونصيباً عظيما فى غنائم الحروب .

والمعلومات الخاصة بكفاح هذه الطبقة لم تحفظ إلا فى قصص البطولة المغولية

ولا ذكر لها فى المصادر الصينية ولا الأرمنية ولا الأوربية وكذلك لا يوجد فى المصادر الصينية ولا فى غيرها ذكر للصراع بين الطبقات فى ذلك المجتمع التركى، ولو كان البدو قد سجلوا عن أنفسهم أكثر مما سجلوا لكان أثر الصراع بين الطبقات فى تكوين دول البدو أكثر وضوحاً.

وتشتمل نقوش أورخون على كثير من المعلومات الخاصة بالنظام الداخلى للدولة التركية فهى تعدد مثلا أسماء المناصب المختلفة وإن كان من المحتمل أن تكون أسماء هذه المناصب لم تقرأ قراءة صحيحة. وعلى أية حال فإنه يفهم من الأسماء التى أمكن قراءتها حتى الآن أنها ليست من أصل تركى وإنما وردت على الأتراك من الخارج فمثلا اللقب شاد «وهو لقب أعضاء أسرة الخان الذين يرأسون القبائل.» يحتمل أن يكون فارسياً وأن يكون أصله كلمة شاه. ومما يلفت النظر أيضاً وجود علامة الجمع المغولية وهى حرف التاء فى أواخر بعض هذه الأسماء. وقد ذهب الأستاذ بليو Pelliot فى محاضرة له ألقاها فى لينينجراد خريف سنة ١٩٢٥ إلى أن الأبر Les avares المذكورين فى المصادر الصينية باسم «چو — چن» J'ou-Jan من نسل المغول، وذهب كذلك إلى أن أسماء المناصب المنتهية بحرف «ت» ليست إلا ميراثاً أخذه الأتراك «تو — كيو» عن المغول. ويرى بليو أن الترك أخذوا أصول الحكم ونظام الدولة عن الأبر.

وتدعونا هذه المسألة إلى أن نتساءل كيف كانت العلاقات بين الترك وبين الأقوام المتمدينة فى الغرب من ناحية وبينهم وبين من سبقهم من البدو فى أوربا وآسيا من ناحية أخرى.

كان يعتقد حتى زمن قريب أن مدنية الشرق الأقصى لم تتأثر مطلقاً بالمدنية الغربية وأن الأقوام التى عاشت فى منغوليا لم تتأثر بدورها إلا بحضارة الصين، وقد ذهب إدجار بلوشيه فى الكتاب الذى نشره سنة ١٩١٠ بعنوان «مدخل تاريخ المغول لرشيد الدين» إلى أن كل كلمة غير تركية فى نقوش أورخون فهى

صينية ، وذهب كذلك إلى أن المغول عرفوا منذ أقدم عصورهم حضارة الصين وأنهم لم يقفوا على الحضارة الإسلامية إلا بعد أن تكونت لهم حكومة قومية و بعد أن خرجوا لفتح بلاد الإسلام . ولعل أقوى ما تُنْقَضُ به هذه الفكرة هو وصول الرسم الأبجدى من غرب آسيا إلى الترك فى القرن الثامن و إلى المغول فى القرن الثالث عشر .

أبجدية نقوش أورخون :

وقد لوحظ منذ عرفت آثار ينيسى فى القرن الثامن عشر أن حروفها هى عين الحروف المسطورة على آثار الأورخون ولوحظ أيضاً أن بعض هذه الحروف يشبه حروف الأبجدية الأوربية ، وأن الحروف التى على آثار ينيسى أقدم من الحروف التى على آثار أورخون ، و يحتمل أن ترجع إلى القرن السابع .

ولكن ليس من الممكن تحديد تاريخها بالضبط . ومما يلفت النظر فى نقوش ينيسى أنها لم تستعمل أى تاريخ حتى ولا طبقاً لتقويم الإثنى عشر حيواناً ، وهو التقويم المستعمل عند أتراك الأورخون ، و بما أن القيرغيز فى ذلك الزمان كانوا يقيمون فى سهل ينيسى الأعلى طبقاً لما ترويه المصادر الصينية والمصادر الإسلامية . فيحتمل أن تكون هذه الحروف هى حروف القيرغيز .

وتروى المصادر الصينية أن تقويم هؤلاء القيرغيز هو تقويم الإثنى عشر حيواناً ، بل لقد ذهب بعض العلماء إلى أن القيرغيز هم مبدعو هذا التقويم . وقد درس العالم الفنلندى دونر Donner أصل نقوش أورخون و ينيسى ورأى أن هذه النقوش تشبه الكتابة المحكوكة على مسكوكات الدولة الاشكانية التى وليت الحكم فى إيران من القرن الثالث ق . م . إلى القرن الثالث بعد الميلاد .

وقد عثر الباحثون فى المنطقة التى يحدها شرق تركستان وغرب الصين على وثائق مكتوبة بلغة إيران الشرقية وهى اللغة التى تسمى عادة لغة الصغد « والصغد

منطقة فى حوض نهر ز رفشان محصورة بين مدينتى بخارا وسمرقند » . وترجع هذه الوثائق إلى القرن الأول الميلادى ويرى جوتيو gauthiot ، وهو أكثر العلماء اشتغالا بآثار الصغد ، أن نقوش أورخون وينيسى مأخوذة فى الأصل من الحروف الصغدية وأنها ترجع إلى رسم قديم لهذه الكتابة يرجع إلى ماقبل القرن الأول للميلاد ، هذا على حين أننا لانستطيع إرجاع النقوش التركية التى عثر عليها إلى ما قبل القرن السابع ، وبناء على هذا فإنه مالم يعثر على أثر تركى تشابه كتابته الكتابة الأولى للصغد ويقاربها زماناً فإنه لن يمكن تعيين أصل الأبجدية التركية القديمة تعيينا علمياً .

ولم يكن الترك يكتفون بأن يستعيروا الأبجدية كما هى بل كانو يضيفون إليها علامات من عندهم فمثلا إذا أرادوا التعبير كتابة عن جرس الكلمة التركية (أوق) رسموا سهماً هكذا « ↓ » ذلك أن السهم يسمى بالتركية أوق وبالإضافة إلى هذا فإنهم أخضعوا الأبجدية المستعارة للقوانين الصوتية للغة التركية وبخاصة قانون تناسب المقاطع ويمكن لهذا أن يقال إن أقدم أبجـــــدية استعملها الترك كانت أكثر تطوراً من بعض الأبجديات التى استعملوها فى الأزمنة الأخيرة[1] ، وليس بعيداً أن يكون الترك قد كتبوا وثائق أخرى بهذه الأبجدية وأنهم لم يقتصروا على كتابتها فوق الآثار ، ويلاحظ أن الرسم الخطى لهذه الأبجدية كان أكثر ضبطا وتطوراً فوق أثر أقامه أحد أحفاد الخان لجده ، وأثر آخر أقيم باسم « تونيوقوق » وهو رجل وَزَر لثلاثة خانات ، ويدل أسلوب هذه النصوص على أن نصيب الترك من المدنيّة لم يكن منخفضاً بنسبة ما كانوا عليه من حياة البداوة حتى إن الخان ليدعو جميع أقوام الترك إلى أن تنظر فيما خلف من آثار لترى ألوان ما أحرز من نجاح ولترى المشاكل التى واجهها نتيجةً لعصيان الشعب ، وإنه ليصعب أن نعتقد أن الشعب

---

(١) يعرض المؤلف هنا بالخط العربى وذلك فى سنة ١٩٢٧ أى قبل أن تفرض الأبجدية اللاتينية فى تركيا بعام واحد . المترجم

كان كله قارئا كاتباً ولكن وصية الخان هذه تدل على أن سلطانه وواجباته كانت أوسع مما تصورشاقان حين زعم أن الخان إنما يصف فى هذه الكتابات رؤيا مجدعنيف Rêve de gloire brutale ، فإن هذه النصوص تبكى الدماء التركية التى أريقت أنهاراً فى الأيام السود، ولكنها لا تذكر ما أراق الأتراك من دم العدو ولا تصرح بعدد القتلى منهم ولا تفخر بما أظهر الترك فى حومة الوغى من عنف وتعطش للدم ، على حين أن كل هذه الأمور كانت مدار فخر فى نقوش الحكام الآشوريين .

إذا أردنا أن نفهم الحياة الروحية لقوم ما وجب أولا أن ندرس عقائدهم الدينية . ولكن الآثار الموجودة لا تذكر شيئاً عن هذه العقائد وإن كانت تتحدث عن عبادة السماء والأرض ، وذلك أننا كثيراً ما نصادف فى تلك النقوش عبارة تورك كوكى « سماء الترك » وعبارة تورك يرصوبى « أرض الترك وماؤهم » وتستعمل كذلك كلمة (ته كرى) بمعنى « سماء » وبمعنى « الألوهية » . ويمكن أن نستنتج من العبارات المشتملة على كلمة يرصوب أى « الأرض والماء » أن الأرض والماء يكونان ألوهية واحدةً لا ينفصل جزآها وأنه لا يراد بهذه الكلمة مجموعة الأرواح الأرضية ، وإنما يقصد بها إله واحد معين . وقد زاد طومسن غموض هذه الكلمة « يرصوب » فى ترجمته الأخيرة حيث ذكرها بصيغة الجمع « أراضى الترك ومياههم المقدسة » . ومن بين الألوهيات المنعزلة عن غيرها يذكر روح واحد هو الروح الحارس للأطفال الرضع والمسمى (أوماى) umay وقد كان الخان يقرن دائما بين هذا الروح الحارس وبين أمه . وما زال الأتراك الشامانيون فى الألتاى يقدسون أوماى حتى أيامنا هذه .

ولا شك أن الأتراك (توكيو) كانوا شامانيين مع أن الكلمة التركية المقابلة لكلمة (شامان) وهى « قام » لا ترد أبداً فى النقوش الأثرية ، وتذكر نقوش

ينيسى كلتى (ته كرى) و (بل Bel) ولا شك أن Bel هذا هو أحد الأرواح (الجن) التى يقدسها الشامانيون وإن كانت هذه الكلمة لم ترد فى نقوش أورخون الأثرية ، ومع أن انتشار الديانات المتحضرة بين الترك كان موضوع بحث فى المصادر الصينية فإنا لا نجد شيئاً بخصوصه فى نقوش أروخون . وتروى المصادر الصينية أن الخان أراد إقامة معبد بوذى فى عاصمة ملكه ولكن مستشاره (تونيوقوق) حوله عن هذا الرأى بقوله إن الديانة البوذية تؤثر تأثيراً سيئاً على خصائص الترك العسكرية .

هذا وما زالت المعلومات قليلة عن الدعاية الدينية الآتية من الغرب . وقد كان انتشار الأبجدية الإيرانية بين الترك نتيجة محضة للعلاقات التجارية (مثلها كمثل الأبجدية الفينيقية فى العصور القديمة) ومن هنا فلم يكن لانتشارها بين الترك أى تأثير دينى فضلا عن أن الديانة القومية للإيرانيين وهى الزردشتيه لم يكن لها نشاط تبشيرى عالمى ، وقد ظلت الولايات الشرقية لإيران مفصولة عن الولايات الغربية بعد فتح الإسكندر وتعرضت بذلك للتأثير البوذى الوافد من الهند، وقد كان مروجو الديانة البوذية من الهنود يستخدمون فى تبشيرهم الأبجدية الهندية . وإن بين أيدينا الآن بفضل البعثات الأوربية لكشف الآثار وثائق تركية مكتوبة بالحروف الهندية . ومع هذا فإن البوذيين مالبثوا بعد استخدام هذه الحروف أن تحولوا بسرعة إلى الحروف الصغدية التى انتشرت بينهم فيما بعد كما سنرى . وقد دخلت فى آسيا الوسطى أبجديتان أخريان هما الأبجدية المانوية والأبجدية السريانة ، وذلك أن الديانتين المانوية والمسيحية دخلتا هذه المنطقة ابتداء من القرن الثالث الميلادى ودخلت مع كل منهما أبجديتها الخاصة ومع أن المانوية ترمى إلى التوفيق بين الزردشتية والمسيحية والبوذية فإنها فيما يبدو دخلت فى آسيا الوسطى قبل المسيحية ومعنى هـــــذا أنه قد نشأت علاقة بين الدين و بين

الأبجدية فاستعمل المانويون أبجديتهم واستعمل النصارى أبجدية أخرى سموها السريانية .

وكانت الفرق المسيحية المختلفة التى انتشرت فى آسيا تستخدم أنواعاً مختلفة من هذه الأبجدية السريانيــة وهكذا ظل الترك والإيرانيون الذين قبلوا المسيحية أو المانوية يستعملون أبجدية هــذه أو أبجدية تلك بحسب الديانة التى أُدخلوا فيها . ومع هذا فإن هناك نصوصاً مسيحية ومانوية كتبت بالأبجدية القومية ، وهى الأبجدية الصغدية ويوجد إلى هــذا نص مانوى كتب مرة بالمانوية وأخرى بالصغدية ولم تــكد تسقط دولة الأتراك الغز حتى أخذت المانوية تنتشر بين الترك على نطاق واسع كما سنبين فيما بعــد والآن نتساءل إلى أى مدى كان نجاح التبشير الدينى مطرداً مع اتساع التجارة الصغدية فى الاستبس فيما بين القرنين السادس والثامن ؟ لاشك أن الطريق التجارى المؤدى إلى الصين كان مجالا لنشاط المبشرين والتجار من الصغد ، وقد أسست فى هذا الطريق مستعمرات صغدية حتى منطقة لوب — نور . وقد أدت أبحاث بليو إلى إثبات أن مستعمرة صغدية أقيمت فى لوب — نور فى القرن السابع وأنها كانت لاتزال تتمتع بعد قرن من الزمان بنوع من الحكم الذاتى ، وفى نفس الوقت كان التجار من الصغد يجدون لبضائعهم سوقا فى مناطق الاستبس التركية ، وبخاصــة فى معسكرات الخان ، وعلى هذا النحو تــكونت مستعمرات صغدية فى تلك المناطق .

ويروى السائح الصينى هيوان — تسانج الذى جاب آسيا الوسطى حوالى سنة ٦٣٠ أن مدناً تجارية صغدية كانت موجودة فى المناطق التى يسكنها أتراك الغرب والتى كانت تمتد حتى نهر چو . وعلى الرغم من أن هذا السائح قد مرَّ بالساحل الجنوبى لبحيرة إيصيغ فإنه لايذكر المدن الواقعة هناك .

ولكننا نجد ذكر بعض المدن المؤسسة في تلك المنطقة في ثنايا تاريخ أسرة تانج T'ang (إلا أن تاريخ آسيا الوسطى ينتهى بتاريخ الأحداث التى وقعت فى السنوات الأولى من القرن التاسع) .

الشامانية :

تظهر العقائد الشامانية فى مراسم الجنائز والدفن عند الترك ، وتروى المصادر الصينية أن الأتراك يقيمون إلى جوار قبور الجند تماثيل لقتلى هؤلاء ، وقد عززت نقوش أورخون هذه الرواية الصينية ، وهى تحدثنا بأن هـذا النوع من التماثيل كان يسمى بلبال Balbal ، ويظهر أنها كلمة من أصل صينى .

ولكن نقوش أورخون لا تحدثنا عما إذا كانت هناك مراسم خاصة تقام فى أثناء وضع هذه التماثيل ؛ فأما المصادر البيزنطية فتحدثنا بأن الرؤساء العسكريين الذين يقعون فى أسر الترك كانوا يذبحون عادة إلى جوار قبر الخان ، ولا شك أن أساس هذا التقليد يرجع إلى عقيدة توجد عند شعوب أخرى شامانية ، وهى أن القتلى يصبحون فى العالم الآخر خدماً لقاتليهم أو لمن كان القتل باسمهم .

وهذه العقيدة حد فاصل بين ديانة الشعوب البدائية وديانة الشعوب المتحضرة ، وذلك أن الشامانية وما شابهها من ديانات البدائيين لا تقوم على أسس أخلاقية وليس معنى إيمانهم باليوم الآخر أنهم يؤمنون بالحساب وبأنهم سيسألون عما يفعلون . ولذلك فإن القاتل عندهم لا يخاف عقاباً يوم القيامة بل يعتقد أن منزلته ذلك اليوم تزداد ارتفاعاً بازدياد عدد من قتلهم .

وقد أيدت آثار أورخون والتماثيل التى اكتشفت معها المعلومات التى وردت فى الكتب ، وأبطلت الأفكار التى كانت تنزع إلى تجريح هذه المعلومات ، وقد لوحظ أن هذه التماثيل المسماة (بالبال) ، والتى ترجع إلى القرن الثامن هى من حيث الشكل عين التماثيل التى يسميها الروس (المرأة الصخرية)

(طاش نيته) (Kamennaya boba) والتى توجد فى مساحات واسعة فى مناطق الاستبس الروسية و بالإضافة إلى المعلومات الصينية الخاصة بإقامة (البال بال) فإن لدينا معلومات أخرى أمدنا بها أحد رجال القرن الثالث عشر وهو المروّج الكاثوليكى جيوم رو بروق فقد روى أن الأتراك المقيمين فى جنوب روسيا ويسمون قومان أو بالوويتس طبقاً لرواية الحوليات الروسية كانوا يقيمون على عهده تماثيل مشابهة (للبلبال) وكانت تقام بحيث تكون وجوهها متجهة إلى الشرق . وعلى الرغم من أن المصادر الصينية قد اتفقت مع مصادر أخرى مستقلة عنها وهى المصادر الأوروبية فإن رادلوف فى كتابه Aus Sibirien يخطّىء مؤرخى الصين ويخطّىء رو بروق ، ويدعى أن هذا النوع من التماثيل قد أقيم فى روسيا قبل ظهور الترك وقبل أن يتوغلوا فى هذه المناطق بقرون عديدة .

وقد كان هذا الرأى ممكناً قبل أن تحل النقوش التى وجدت على آثار ينيسى ولكن الكتابة التى وجدت على تماثيل بلبال الينيسى وعلى نفس التماثيل بجوار أورخون قد حلت وتبين أنها تركية خالصة ، فلا شك إذن بعدق أن التماثيل المسماة (المرأة الصخرية) من أصل تركى .

وقد اعترض رادلوف فى نفس الوقت على بعض المعلومات الصينية الخاصة بالترك ؛ فهو يكذب مثلا ما ترويه هذه المصادر من أن الترك كانوا يشتغلون بالحدادة قبل أن يؤسسوا لأنفسهم دولة ، ويرى أن صناعة التعدين لا تلائم حياة البداوة . وليس بنقوش أورخون ما يؤيد الرواية الصينية ولا ما ينقضها ، ولكن الروايات الشعبية عند الترك وعند المغول تؤكد إمكان استعمال الأسلحة الحديدية مع الحياة البدوية . ويرى رادلوف أن ماترويه المصادر الصينية من أن الترك يحرقون جثث الموتى يمثل تناقضاً بين روايات الكتب و بين ما تدل عليه الآثار المادية ذلك أنه لم يجد أى أثر لعادة إحراق الموتى فى كل القبور التى درسها ، وكل

ما تمدنا به نقوش أورخون فى هذا الموضوع هو أن الترك يعتقدون أن روح الإنسان تتناسخ بعد موته فتصبح طائراً أو حشرة و يقول الترك إذا مات ميتهم إنه (طار) « او چدى » ومعلوم أن أتراك الغرب حتى بعد إسلامهم كانوا يقولون فى كان كلمة « أولدى » = (مات) العبارة التركية(شونقار بولدى) أى لقد صار صقراً و يفهم من هذا أنهم كانوا فى الغالب لا يعنون بالمحافظة على الجسم الإنسانى ، ومع هذا فهناك رواية خلاصتها أن جثة قائد تركى وقعت فى أيدى العرب فكان ذلك عند الترك أشد من الموت نفسه ، ولكن يحتمل أن يكون هذا الإحساس غير راجع إلى الدين ولكن إلى الشعور بالكرامة : فقد كان الترك يرون أن الذل كل الذل هو أن تقع المرأة أو أن تقع جثة القائد فى يد العدو أثناء الحرب . وربما كانت الحفريات التى تجرى فى أماكن دفن الخانات أقدر على إعطائنا معلومات مفصلة عن مراسم الدفن والجنازة عند الترك . وقد قام بهذه الحفريات زادلوف وزملاؤه ثم قام بنفس العمل من بعدهم الأستاذ ڤيلاديميرتسوف Veadimirtsoff سنة ١٩٢٥ ولكن هذه الحفريات لم تؤد إلى ظهور أى قبر حتى الآن و يحتمل أن يكون الترك — شأنهم شأن غيرهم — يحفرون عند دفن الخان حفراً كثيرة و يضعون جثة الخان أو رماده فى إحداها — صوناً للخان من أن يهان أو أن يحقر بوقوع جثته فى يد العدو .

ولعل النتيجة اللافتة لحفريات فيلاديميرتسوف هى وجود تمثال قد حفظ بعناية شديدة فى قبر أحد رجال الحرب من الترك . وقد رؤيت فى هذا التمثال كل ملامح الترك ، وكان هذا النوع من التماثيل يوجد فيما قبل فوق سطح الأرض ولكن رءوس التماثيل كانت دائماً لا توجد وكان كسر رءوسها من فعل المغول فإنهم كانوا يعتقدون أن صور القدامى تورث الشر للأحياء ، و يرى من هذا أن كسر رءوس التماثيل عرف فى أماكن لم ينتشر فيها الدين الإسلامى الذى جرت العادة حتى يومنا هذا على أن ينسب إليه هذا الفعل . و يحتمل أن تعطينا الحفريات

التى ستجرى مستقبلا معلومات جديدة كثيرة عن هذا الموضوع ولكن لا يصح — حتى تظهر نتائج الحفريات — أن ترد روايات الصينيين الخاصة بإحراق الترك جثث الموتى ، و بخاصة أنه ظهرت بعد حفريات رادلوف بعض قبور فى الاستبس و بداخلها آثار الإحراق، وكان الصينيون يستطيعون رؤية مراسم الدفن عند الترك من قريب، وقد اضطر بعض الخانات — تحت سيطرة الأعداء — إلى الفرار إلى الصين ، وكانوا يدفنون طبقاً لعاداتهم تحت أعين الأهالى ، ومن هنا يمكن القول بأن احتمال خطأ المصادر الصينية بعيد .

و بعد فقد أردت بهذا الدرس توضيح الأفكار التى حصلناها من دراسة النقوش والآثار والتماثيل التى خلفها قوم تسموا لأول مرة فى التاريخ بـ (الترك)

وأمامنا الآن مسألتان : إلى أى حد يمكن أن تعيننا هذه النتائج على معرفة أى الشعوب السابقة على الترك كان يؤاخيهم من قريب أو من بعيد ، و إلى أى حد يمكن أن توضح لنا أحداث دولة الترك بين القرنين السادس والثامن حياة الترك فيما أعقب ذلك من عصور ، وسيكون الدرس القادم خاصاً بهذه الموضوعات .

المحاضرة الثانية

بالإضافة إلى الصعاب التى تعترض دراسة تاريخ الترك بآسيا الوسطى ، والتى عددناها فى المحاضرة الماضية توجد صعوبة أخرى هامة وهى انعدام التناسب من حيث الكم بين المعلومات التى تخص حقب التاريخ المختلفة ؛ فبينما تتكاثر المعلومات وتعمق عن حقبة معينة من تاريخ قوم من الترك أو عن بلد معين من بلادهم ، إذا نحن نقنع مضطرين، إذا أردنا أن نقف على حياة هؤلاء القوم أنفسهم قبل هذه الحقبة أو بعدها ، ببضع كلمات مأخوذة عن أى مصدر ، هذا على حين أن فهم تطور الأحداث التاريخية لشعب أو لبلد ما يقضى بأن نكون قادرين على تأمل كل صفحة من تاريخ هذا الشعب ،ولقد يدفعنا خلو المراجع من المعلومات المطلوبة إلى سَوْق الفروض والأفكار الشخصية ، ومن هنا يستحيل حسم المشكلة بالوسائل العلمية الصحيحة .

إنّ لنقوش أورخون — كما بينا فى المحاضرة الماضية — منزلة خاصة فى تاريخ الدول البدوية التى قامت على حدود الصين حتىّ عهد المغول .

وأمّا الدول البدوية التى قامت فى مناطق الاستبس قبل تكون الإمبراطورية التركية أى قبل القرن السادس فإن مراجعها التى لامناص من القناعة بها هى الإشارات المقتضبه الواردة فى المصادر الصينية ، لابد من القناعة بها لأن هؤلاء الترك أنفسهم قد اختفوا من مسرح التاريخ ، دون أن يخلفوا ولو بضع كلمات من لغاتهم وإذا أردنا أن نجد اللغة التى كان يتكلمها أى قوم من أقوام الترك ، فإن مرجعنا الأول المعترف به حتى الآن هو تلك الألفاظ المفردة الواردة فى التواريخ الصينية والمسطورة أيضاً بالحروف الصينية وهى على الخصوص أسماء ، وألقاب ، وأسماء مناصب ثم نستطيع (مستعينين بقواعد التلفظ الصينية) أن نرجع هذا اللفظ أو ذاك إلى هذه اللغة أو تلك ، كما نستطيع أيضاً أن نضبط تلفظه ، وقد أعانت نقوش أورخون العلماء القدامى على مراجعة هذه الطريقة من طرق الاستدلال ، وعلى مراجعة

النتائج التى وصلوا إليها ، ومع هذا فإن هذه المراجعة لم تشف ، بل إن ماقام به أكابر علماء لغات الترك من أبحاث كان خطأ مع أن الكلمات التى تصدوا لها كانت تركية من تراث أقوام لاشك فى تركيتهم ، ومن ذلك مثلا أن رادلوف — قبيل أن تكشف نقوش أورخون — حاول أن يدرس ألقاب الحكام الأتراك الواردة فى المصادر الصينية و بالرسم الصينى ولكن نقوش أورخون دلت فيما بعد على أن جل الفروض التى ساقها رادلوف لحل تلك الكلمات كانت بلا أساس (هذا وقد نشرت أبحاث رادلوف فى جملة من تآليفه ، منها مقدمة لطبعة قوتا — دغو بيليك) . كان رادلوف يقرأ مثلا فى المصادر الصينية « به لك » وحقيقتها « بيلكه » وكان يقرأ « آيدينلق » وصوابها « آى ته كرى » بل إن كلمة « ايدينلق » لم تكن موجودة فى اللغة التركية فى ذلك الزمان .

وتبين نقوش أورخون أن الصينيين كانوا يطلقون أحياناً على بعض هذه الشعوب أسماء مغايرة تماماً لما تطلقه هذه الشعوب على نفسها . فكلما تحدثت المصادر الصينية مثلا عن (قيطا) ذكرت معهم اسم شعب آخر هو (هى) على حين أن نقوش أورخون تسمى هذا الشعب الذى يذكر دائماً مع الخطاى باسم (تاتابى) و يتفق العلماء فى أوروبا على أن هاتين الكلمتين المختلفتين (هى) و (تاتابى) اسمان لشعب واحد .

ومما يزيد الصعوبة على الباحثين فى تاريخ الدول البدوية أن علماء الصينيات لم يحددوا قواعد نطق الحروف الصينية فى المدة المقابلة لقيام كل من هذه الدول . وقد تكررت محاولة تعيين لغات بعض الشعوب فى آسيا الوسطى بالاستعانة بما خلفته تلك اللغات من ألفاظ مسطورة بالحروف الصينية وكانت أولى هذه المحاولات خاصة بلغة أقدم هذه الشعوب وهو شعب الهياطلة .

ومعلوم أن الهياطلة أقاموا دولة قوية على حدود الصين فى القرن الثانى ق . م.

ثم هاجروا إلى أوربا حيث عرفوا تماماً فى القرن الخامس ويعتبر الهياطلة تركاً، ويقول الصينيون عن الأتراك فى القرن السادس إنهم من سلالة الهياطلة .

وقد قام الأستاذ اليابانى شيراتورى Shiratori ببعض الأبحاث على المفردات المنسوبة للهياطلة فى المصادر الصينية وذلك لمعرفة ما إذا كانت لغة الهياطلة لغة تركية أم لا ، ويكفى لمعرفة مدى فشل هذه التجربة أن تعلم أن الأستاذ شيراتورى رجع هو نفسه عن فكرته وقرر أن الكلمات المنسوبة للهياطلة يمكن توضيحها أكثر بالاستعانة بلغة التونغوز . ذلك أن البدو الذين أقاموا حكومتهم على حدود منغوليا الشرقية بعد الهياطلة أصلهم على الأرجح من التونغوز ، ولم نعرف اسم هؤلاء القوم إلا من الكلمة المكتوبة بالرسم الصينى: (سيانبى) Sienpi ويذكر هؤلاء التونغوز بوصفهم أعداء الهياطلة وجيرانهم من الشرق وقد حلوا محل الهياطلة فى منغوليا فى أواخر القرن الأول للميلاد ، وأسسوا — مثلهم فى ذلك كمثل الهياطلة — أسرات حاكمة فى المناطق الشمالية للصين .

ولم ينسب مؤرخ واحد هؤلاء السيانبى إلى الأصل التركى كما حدث للهياطلة بل قيل إنهم تونغوز ، ولكن الأستاذ پليو يقول فى بعض محاضراته بلننجراد إن معجماً للغة السيانبى قد وجد بين بعض الآثار الصينية وأنه قد تبين بدراسة هذا المعجم أن لغته تركية خالصة . ومن هنا فلا شك فى أن السيانبى قوم من الترك ، وهذا الذى أعلنه پليو بالغ غاية الأهمية لأنه يدل على إمكان استنباط معلومات محددة وصريحة عن لغات البدو المتاخمين للصين من المصادر الصينية وليس العثور على معجم للغة السيانبى حادثاً مفرداً ؛ فقد سبق أن أعلن پليو فى مقال مطبوع عن العثور بين بعض الآثار الصينية على معجم للغة (خطاى) وهم قوم مذكورون فى نقوش أورخون ويفهم من هذا المعجم أن الـ (خطاى) الذين كانوا يعتبرون حتى الآن من التونغوز كانوا يتكلمون اللغة المغولية .

الأثر

والحق أن آراء پليو التى عرضتها فى المحاضرة السابقة لم تتضح لى تماماً فهو

يعتبر الأبر Les avars من سلالة المغول) وقد كان لهؤلاء الأبر حكومة قبل الترك ، وهى إن لم تبلغ مابلغته حكومة الترك من سعة فقد استطاعت فى القرن الخامس وفى النصف الأول من القرن السادس أن تحكم كل القسم الشرقى من آسيا الوسطى) فعلى أى أساس بنى بليو هذا الرأى ؟ لاأدرى !

إن الاسم الذى أطلقه الصينيون على الأبر لايمت بصلة لاسمهم الحقيقى فقد سماهم الصينيلون « جُوجَن » أوجوان جوان Jouan Jauan وهو اسم لنوع نادر من الذئب ولاشك أن الصينيين يعبرون بهذا الاسم عن استخفافهم بالبدو وبغضهم لهم.

ولانصادف كلمة أبر فى المصـادر الصينية ولا ندرى أموجودة فى نقوش أورخون أم لا . وقدوردت فى هـذه النقوش كلمة پارپاروم par parum أو آپا آپوروم وقد وردت مرة واحـدة على أنها اسـم لشعب عاش فى الماضى ولم يـكن معاصراً لـكاتب النقوش ، وقد قرأها طومسن فى آخر ترجمة له على أنها كلمتان مستقلتان كل منهما اسم لشعب مستقل ، ولـكن طومسن وضع علامتى استفهام بعد الـكلمتين فدل بذلك على غموض المعنى . أما كلمة أبر فإنها تصادف فى المصادر البيزنطية والأوروبية والروسية(وتردفى كتب الوقائع الروسية فى صيغة Obry أوبرى) ويفرق البيزنطيون بين الأبر الحقيقيين واللصقاء ، وعندهم أن الحقيقيين قدبادوا واندثروا فى الشرق وأن الأبر الذين هاجروا إلى أوروبا إنما تسموا فقط باسم الأبر الحقيقيين وانتسبوا إليهم ولايخلو فإمّا أن يكون الأبر قوماً واحداً أوقومين متشابهين .

على أن هناك حقائق تعزز رأى بليو منها أن بعض الـكلمات البلغارية القديمة وردت فى كتاب حوليات صقلبى يرجع إلى عهد الأستقراطية البلغارية القديمة على نهر الدانوب ، وبما أن البلغار ليسوا صقالبة حتى إنهم مازالوا يحتفظون فى مظهرهم بعلامات غير صقلبية وبما أن من المحقق أن هذه الـكلمات الملغزة لاعلاقة لها بلغة الصقالبة فقد حوول تقريبها إلى اللغة التركية أو إلى لغة قريبة منها ، وأشهر رأى فى هذا الصدد هو رأى العالم الفنلندى ميقولا Mikkola فقد ذهب

إلى أن هذه الـكلمات الملغزة هى الأسماء الواردة فى تقويم الاثنى عشر حيواناً ولـكن لوحظ أن عام الحصان وهو بالتركية (بيلقى) أو (أت) قد سمى اسماً مغوليا هو (مورين) Morin ، وقبل أن تظهر النظرية القائلة بأن الأبر من أصل مغولى كان وجود كلمة مغولية فى مثل هذا التقويم يعتبر شيئاً غريباً ، وإذا تحقق أن الأبر من أصل مغولى كان معنى هذا أن هذه الـكلمة وردت على البلغار من الأبر الآتين من الشرق .

وسأكتفى بهذا المثال ، ولن أتعرض لمحاولات أخرى قليلة الأهمية لبعض العلماء الذين يحاولون العثور ببعض الـكلمات المغولية فى الغرب فى تواريخ سابقة على ظهور المغول على مسرح التاريخ ، ولقد ذهب بعض كبار هؤلاء العلماء إلى فروض علمية غاية فى الجراءة ومن بين هؤلاء العالم « ماركارت » فإنه يقارن مثلا بين كلمة جغانيان وهى اسم لمنطقة فى حوض جيحون وبين الـكلمة المغولية تساغان (بمعنى أبيض) وعلى الرغم من أن المسألة خلافية فإن ماركارت يبدأ قوله بتأكيد أن هذه الـكلمة مغولية .

ومن ناحية أخرى يمكن أن تقوم بعض الاعتراضات على رأى بليو القائل بأن الأبر من سلالة المغول ذلك أن حكم الأبر أوجوان جوان كان قد امتد غرباً منذ القرن الخامس حتى أشرف على حدود قار اشهر فى تركستان الصينية وقد ألجأ توسعهم هذا قوماً من الهياطلة — كان الأتراك قد فتحوا بلادهم — إلى الهجرة غرباً نحو حوض جيحون ، فإن كان هؤلاء الأبر وهم على هذا القدر من الأهمية مغولا فـكيف لم تتمخض الحفريات ولا الأبحاث الـكثيرة فى آسيا الوسطى عن نص مغولىّ واحد يرجع تاريخه إلى ما قبل جنـكيز خان ؟

ومع هذا فهناك فـكرة ربما عززت رأى بليو ذلك أنه من المحتمل أن العلاقات التجارية بين تجار الصغد و بين البدو فى آسيا الوسطى لم تبلغ فى عهد الأبر ما بلغته فيما بعد بين فى عهد الأتراك ال (تو — كيو) .

وذلك رغم ما نعلمه من أن العلاقات التجارية كانت قائمة فى القرن الخامس بين (الصغد) و بين الهياطلة سواء المهاجرون منهم إلى أوروبا أو أولئك الذين كونوا لأنفسهم دويلات على حدود الصين . ومهما يكن من شىء فإن ما ساقه پليو يدعونا إلى أن ننتظر من علماء الصينيات معلومات أكثر فيما يتعلق بأصل أقوام البدو فى آسيا الوسطى ، و إننا ننتظر أيضاً أن تستفيد الدراسات التاريخية من التقدم الذى أحرزه علم اللغات أو أن يفيدنا هذا التقدم على الأقل فى إصلاح بعض الأخطاء . ولا مجال اليوم للمقارنات اللغوية التى قام بها اللغويون القدماء على أصول غير علمية ؛ فقد كانوا يستعينون مثلا على توضيح كلمة من كلام الهياطلة أو غيرهم من الشعوب البدوية باللهجات التركية الموجودة الآن ، ولا يتساءلون إذا كانت هذه الكلمة قد وجدت بصورتها الحالية فى تلك اللغة القديمة أم لا . ومن ذلك أن الأستاذ شيراتورى حاول أن يشرح لقب الحاكم عند قوم عاشوا قبل الميلاد فاستعان على ذلك بكلمة موجودة الآن فى بعض اللهجات التركية بآسيا الوسطى وهى كلمة (بى Bi) مع أن هذه الكلمة ليست إلا تحريفاً محدثاً للكلمة التركية (به ك).وهى صيغة لا تصادف قبل القرن الخامس عشر .

وحاول ماركارت أيضاً أن يوضح كلمة وردت فى نقوش أورخون بكلمة تستعمل الآن بمعنى نهر وهى كلمة اتيل ، على حين أن هذه الكلمة أخذت من لغة الجوڤاش ولا تصادف إلا فى لغة التتار أى أتراك الڤولجا .

ويمكن القول بأن النقوش التركية التى اكتشفت فى آسيا الوسطى والآثار الدينية، تساعد كلها على معرفة التطور التدريجى للغة التركية وعلى تحديد المكان واللهجة اللذين تنتمى إليهما الكلمة ، كل أولئك بصورة علمية .

ولو أن النماذج الأولى للغة المغول كانت قد اكتشفت لبلغت الآن الأبحاث المتعلقة باللهجات التركية والمغولية — من حيث المنهج العلمى — مابلغته اللغات الهندية الأوروبية واللغات السامية .

ولكن مادامت آثار اللغة المغولية قبل القرن الثالث عشر غير موجودة فسيظل تاريخ لغة المغول — حتى يتم كشف هذه الآثار — أكثر إبهاما وغموضاً من تاريخ لسان للترك ، على أن دراسة اللهجة الموجودة الآن للغة ما تفيدنا فى تاريخ هذه اللغة . ذلك أن اللغات جميعها تحتفظ فى لسان الخطاب ببعض الكلمات العتيقة التى انعدم استعمالها فى لغة الأدب ، ولكن هذا أيضاً لايساعد علماء اللغة التركية والمغولية مثلما يساعد علماء اللغات الهندية الأوربية والسامية لأن اللغة المغولية كانت متشابهة اللهجات بحيث لايمكن أن تؤدى المقارنة بينها إلى استنباط أى فذلكة تاريخية .

وبما أن الترك قد انساحوا فى بقعة من الأرض أرحب من التى انتشر فيها المغول، فقد كان ينتظر أن تكون الفروق بين اللهجات التركية أكبر ، ومع هذا فإن معظم اللهجات التركية متشابهة وليس أمام عالم التركيات سوى لهجتين اثنتين متميزتين إحداهما عن الأخرى وهما لهجة (ياقوت) ولهجة (چوفاش) وهكذا يمكن إذا قورن هذان اللسانان باللهجات التركية الأخرى أن نحصل على المواد الأساسية التى تلزم لإيضاح تاريخ اللغة التركية وتاريخ الترك أنفسهم .

الياقوت والجوفاش:

انسلخ الناطقون بلغة (الياقوت) عن الأقوام التركية منذ أقدم العصور وهاجروا إلى المناطق الشمالية القصوى وهم بذلك لم يشتركوا فى الحياة التاريخية

للأتراك وأما لغة جوفاش فقد استعملت على الضفاف الوسطى لنهر الڤولجا وصودفت آثارها فى الطريق الذى سلكته أقوام الترك المهاجرة من آسيا الوسطى ويظن أنها كانت فى العصور الوسطى أوسع استعمالا منها الآن إذ يسجل جوغرافيو العرب أن الأقوام التركية التى تبدأ بالپچنك فى جنوب روسيا ثم تنتشر حتى حدود الصين تتكلم بلغات متشابهة إلا البلغار فى حوض الڤلجا وإلا (الخزر) فإن لغتهما لم تكن تفهم عند سائر الأقوام التركية ؛ ويزيدون على هذا أن ذلك اللسان كان مغايراً للسان الفن Finne ، ولهجة الجوفاش الآن هى بنفس هذا الوضع فهى أشبه باللهجات التركية منها بلهجة الفن ، ولكنها مع هذا غير مفهومة لا عند الترك ولا عند الفن . ويسمى البلغار و الخزر نهر الفلوجا (أتيل) وهى كلمة چوڤاشية بمعنى نهر ، ومن هنا ذهب أصحاب الدراسات التركية إلى أن لغة الجوفاش هى بقايا اللسان القديم للبلغار وربما كذلك للخزر .

وقد دُرِستْ فى زمن ما خصائص لغة الجوفاش وذهب رادلوف — فى ذلك الوقت إلى أن هذه اللغة هى نتاج خلطة اللغة التركية باللهجات الفنّية .

وقد حاول بعض العلماء بعد ذلك إثبات أن لغة الچوفاش قد حفظت بقايا أقدم دور من أدوار تطور اللغة التركية ، وكان آخر من درس هذا الموضوع ووصل إلى نفس النتيجة هو پوب poppe ، وقد نشر مقالاته فى «أخبار الأكاديمية الروسية» وكان پوب يرى فى أول الأمر أن اللسان الچوڤاشى — مع دخوله فى مجموعة اللهجات التركية المغولية — لا يرتبط بهذه ولا بتلك بل يكون فى هذه المجموعة شعبة ثالثة — ولكن ما لبث پوپ بعد المناقشات التى دارت حول هذا الموضوع فى أكاديمية لينتجراد أن قرر أنّ اللسان الچوڤاشى هو اللسان التركى إلا أنه يمثِّل أقدم مرحلة لتطور هذا اللسان ، وقد انفصل اللسان الچوڤاشى عن أصله ، زمانَ انفصل اللسان المغولى عن اللسان التركى، ولم يكتسب هذا اللسان بعدُ الملامح المميزة

للغات الترك الأدبية ولهجاتهم الحالية ، وإذا قُبِلَتْ هذه النتيجة علمياً بصورة نهائية كان لها عند المؤرخين أهمية كبرى .

ولئن كان البلغار والخزر لم يُذكروا قبل القرن السادس ، فإن من المحقق أنهم وفدوا على حوض الفولجا قبل أن تتكون إمبراطورية الأتراك (توكيو) فى منتصف ذلك القرن .

ويمكن الجزم بأنهم وفدوا على تلك المنطقة فى الفترة التى يقال إنها دور هجرة الهياطلة ، وقد كان هؤلاء الهياطلة يقيمون بالقرب من نهر الفلجا في القرن الثانى ، زمنَ الجغرافى بطليموس وفى ذلك الوقت لم يكن يُذكر الاسم الجوواشىّ لنهر الفلجا : (أتيل) وهو الاسم الذى صار فيما بعد عاماً فى سائر اللهجات التركية ، ولكن نهر (يايبق) كان يحمل اسمه الحالى التركى الأصل ، والذى نصادفه عند بطليموس فى صيغه (دايبق) ، والظاهر أن استعمال الدال بدل الياء الواقعة فى أول الكلمة يطبق فى اللسان المحلى لأواسط الفولجا بعد زمن بطليموس حتى إن كلمة (يوغ) الواردة فى نقوش أورخون ومعناها « مراسم الميتم » ترد فى مصادر القرن السادس البيزنطية بصيغة ذوخيا Dochia . ولا تتفق هذه الظاهرة مع قواعد النطق الحالية للسان الجوقاش ذلك أن الياء فى اللهجات التركية تنقلب فى لسان الجوقاش وفى لسان الياقوت إلى « س » ومهما يكن فإن التطور الصوتى للهجات الجوقاش والترك لم يوضح بعد كما ينبغى ، وأما كلمة « دايبق » الواردة عند بطليموس فربما كانت أقدم كلمة تركيه وردت فى نص موثوق به .

وإذا كان لسان الجوقاش يمثل بقايا مرحلة من مراحل التطور الأولى للسان التركى فإن الأحداث التاريخية تسمح لنا بأن نفرض أن لسان الهياطلة كان بنفس الوضع ويستنتج من هذا أن لسان الهياطلة لم يكن تركياً بمعنى الكلمة أى أنه لم يكن اللسان الذى تتكلمه الأقوام التركية جميعها ماعدا الجوواش والياقوت . ويحتمل أن يكون

الهياطلة قد وطنوا لسانهم فى أقصى المناطق الغربية وأنهم استطاعوا أن يُدخلوا آثاراً من لغتهم فى لغات الأقوام التى تأثرت بهجرتهم مباشرة أو بالواسطة ، ومن هذا القبيل الكلمات التركية فى اللغة المجرية .

ويحتمل أن يكونوا هم الذين نشروا بعض اصطلاحات الصين الحضارية فى المناطق الواقعة فى أقصى الغرب ، فكلمة كتب مثلا فى اللغة المجرية مشتقة من كلمة من أصل صينى هى بيتيمك ، ويجب أن يكون لسان السيانپى — وهم جيران الهياطلة من الشرق — راجعاً إلى أبعد دور من أدوار تطور اللغة التركية ، ولكن حل هذه المسألة يتطلب المبادرة إلى نشر المعجم « السيانپى — صينى » الذى حدثنا پليو عن وجوده .

وما زالت الفروض العلميـــة المتعلقة بنشاط الترك فى الجزء الغربى من آسيا الوسطى فى القرنين الأولين قبل الميلاد و بعده غير مؤيدة بالأدلة .

/ سكيت :

ويفهم من الكتب اليونانية القديمة وبخاصة كتاب (الأقاليم والأماكن) ليقراط أن اليونان عرفوا عدا الأقوام الهندية الأوروبية أقواماً أخرى ولكننا لا نعرف بصورة حاسمة إذا كان الترك من بين هذه الأقوام ، ويميل شاڤان Chavannes وهو يحاول أن يثبت أن تقويم (الاثنى عشر عاماً) تركى إلى أن يقول بأن القوم الذين كونوا بأواسط آسيا فى القرن الثانى ق . م دولة عاشت فيما بعد قروناً ، كانوا كذلك من الترك ، وأنهم هم الذين غزوا كثيراً من الأقاليم الهندية ، وأنهم هم الذين سماهم اليونان (هند / سكيت) .

وقد اعتُرض على شاڤان بأن تقويم الاثنى عشر حيوانا يحتوى على (عام القرد) على حين أن القرد لا يوجد فى بلاد الترك ، ويرد شاڤان بأن الترك — وقد فتحوا الهند فى القرن الأول قبل الميلاد — قد رأوا القرد ، والآن

فلا يكاد يوجد من يؤيد نظرية شاوان الخاصة بتقويم (الاثنى عشر حيواناً) ولا نظريته الخاصة بأن (الهند / سكيت) أصلهم من الترك ، إلا عالم الصينيات المشهور فريدرخ هيرث Hirth الذى يصر على هذا الرأى ، ويبدو أن هذا التقويم نشأ فى الهند وأن الصينيين قد أخذوه عن الهنود ، ثم انتقل فى الأزمنة القديمة من الصين إلى الترك .

الطوخاريون :

والطوخاريون يكونون الطبقة الأولى بين ال (هند / سكيت) وقد سميت المناطق الواقعة فى أعالى مجرى نهر جيحون باسم (طخارستان) نسبة إلى هؤلاء الطوخاريين ولكن المؤلفين المسلمين لم يعرفوا الأصل الاتنوغرافى لهذه التسمية . وكان الطوخاريون يعيشون أول الأمر فى تركستان الصينية ، ويعد لسانهم بين ألسنة آسيا الوسطى التى حررت بها نصوص بوذية ، وقد عثرت البعثات الأوربية للتفتيش عن الآثار على وثائق فى شرقى تركستان مكتوبة بلغات مختلفة ، ولكن لم يمكن بعد المناقشات الطويلة تحديد اللسان الطوخارى من بين هذه اللغات .

ومهما يكن فإن الخلاف محصور بين لغتين من العائلة الهندية — الأوربية كتبت إحداهما على الآثار القريبة من ختن وكتبت الأخرى على الآثار القريبة من كوچا

الترك :

ولا شك أن الترك الذين يتكلمون ما نسميه اليوم (اللغة التركية) كانوا موجودين منذ أقدم العصور ، ولكن من العبث أن نفرض أن كلمة (ترك) كانت موجودة قبل القرن السادس ، وقصارى ما يمكن قوله فى أصل هذه الكلمة ومعناها هو أن نسوق بعض الفروض .

يرى طومسن فى آخر مؤلفاته أن كلمة (تورك) اسم لقبيلة مستقلة أو على الأرجح اسم لأسرة حاكمة ، ويحتمل أن يكون المعنى الأول للكلمة (تورك) أو (توروك) هو القوة والإحكام .

و يعترض على هذا بأن نقوش أورخون لاتؤيده ، فقد وردت كلمة (ترك) فى هذه النقوش بمعنى (قوم) ووردت مرة واحدة بغير هذا المعنى ، ولكنها حتى فى هذه المرة المفردة لاتدل على معنى القوة أو الإحكام .

و يتحدث الخان عن قاغان التوركش فيقول (توركم بودونم) أى تُركيي وقومى (كندى توركم كندى قومم) و يترجم طومسن هذه العبارة هكذا (إنه ملك لأترا كى ، لشعبى) فإذا لم تكن كلمة (تورك) اسم جنس وكانت صفة للزم أن يكون المعنى (المسوّى والمهيأ) أو نحو هذا ، ذلك أن الخان يريد أن يقول فى هذا المقام إن قاغان تركش خرج عليه بعد أن سواه بيديه وجعل منه شيئاً .

و يمكن أن نفرض أن كلمة تورك لها علاقة بكلمة (تورو) التى يكثر استعمالها فى نقوش أورخون بمعنى الجماعة المتحدة بالقانون و بالتقاليد ، و يقول الخان إن قومه (بودون) منحوه السلطة وولوه سيادة القوم (تورو) .

وليس فى نقوش أورخون ما يعين على تحديد القبائل التى كانت تسمى (تورك) تحت حكم الـ (توكيو) ، كما أننا لانعلم كيف اتسع مدلول الكلمة حتى شمل القبائل الأخرى ، ولا كيف تطور حتى اكتسب معناه الحالى ؛ كان الخان يقول لقومه : (التورك) و (الغز) و (التغزغز) على حين تصف بعض المصادر الأخرى الـ (تغزغز) بأنهم أعداء الخان ، وقد وصل رادلوف — قبل أن تحل نقوش أورخون — إلى أن الأتراك الذين دامت دولتهم من القرن السادس إلى القرن الثامن كانوا ينتسبون إلى الأتراك الغز ، وقد صدّقت النقوش الأثرية ماذهب إليه رادلوف . وقد كان هؤلاء (الغز) أو (الترك) ينقسمون قبائل عدة ، ففى الشرق يوجد الـ (تولوس) والـ (طاردوش) وفى الغرب يوجد الـ (توركش) ، و يذكر عدا الغز قبائل أخرى من الترك أى (الترك) بالمفهوم الحالى للكلمة ، وأشهر هؤلاء هم الـ (قارلوق) و (الاو يغور) والقيرغيز ، ولكن ليس لدينا دليل

على أن هذه الأقوام كانت تسمى نفسها (تركا) ويحتمل أن يكون المفهو الحالى لكلمة تورك اصطلاحا إسلامياً .

وقد لاحظ العرب أن أقواماً كثيرة ممن حاربوها في القرنين السابع والثامن كانت تتكلم نفس اللغة التى يتكلمها الأتراك ، فأطلقوا عليهم كلمة ترك و بعد هذا بدأت الأقوام التى دخلت فى الإسلام تسمى نفسها (تركا) ومع هذ فيوجد الآن من الأتراك الذين دخلوا فى الإسلام من لايسمون لغتهم (تركية) ولم تنتشر كلمة ترك خارج المحيط الإسلامى كثيراً ، إلا أن لدينا فى هذا الخصوص حالة استثنائية ، ذلك أن هناك أثراً خاصا بالديانة البوذية ، وقد ذكر فيه أنه كتب باللسان التركى (تورك اويغورتيلى) على أن الروس والأور بيين الغر بيين فى الأزمنة المتأخرة لم يطلقوا كلمة (ترك) لا على البچنك Petchénegues ولا على البولوڤتسى Polovtsy (قومان) وإنما أطلقوها على السلاجقة ثم على العثمانيين .

وهم جميعاً (العثمانيون والسلاجقة منحدرون من الغز مثلهم كمثل أتراك الأورخون وتردفى كتب (الحوليات الروسية) كلمة تركى Torki وهى فى الغالب بمعنى كلمة (ترك) وإن كانت تشير مع هذا إلى الشعب المسمى فى المصادر البيزنطية (Uz) أى (الغز) .

القيرغيز :

ومن بين أسماء الأقوام التى ذكرت فى نقوش أورخون لا نجد اسما ذكر فى المصادر الصينية (السابقة على تلك النقوش) غير اسم القيرغيز ذلك أن هذا الاسم يرد فى الحكايات المتعلقة بوقائع حكم الهياطلة أى فى الفترة الواقعة قبيل ميلاد عيسى و بعيده ، وهو يردفى أقدم المصادر الصينية بهذه الصورة (قين ـــ قون Kien -- Kun) وقد حاول الأستاذ پليو أن يوضح هذه الكلمة بكلمة أخرى مغولية فى صيغة المفرد وهى قيرقون Kyr -- Kun وهكذا يكون الصينيون قد عرفوا القيرغيز بواسطة قوم من أقوام المغول ، وترجع أصدق المعلومات الصينية عن

القيرغيز وعن مواطنهم فى حوض ينيسى الأعلى إلى عهد الحكم التركى ، و يسمى الصينيون قيرغيز ذلك العهد (هاقاس Hakas) وهى تحريف لكلمة Ki—li— Ki—sli المسطورة بالهيروغليقية الصينيّة . ولما منحت روسيا بعد ثورتها الحكم الذاتى للأتراك القاطنين فى أعالى ينيسى أى فى منطقة مينوسنسق Minousslnsk (سابقاً) احتاجوا بعد هذا الاستقلال الذاتى إلى أن يتخذوا اسماً يشملهم جميعاً (ولم تكن بهم حاجة إلى مثل ذلك فى عهد القيصرية) ، وقد اختار المثقفون منهم اسم (هاقاس) لأنه وارد فى المصادر الصينية ولأن له أهمية سياسية ، ولم يكونوا يعلمون أنه تحريف اسم القيرغيز ممن لا يعيشون الآن فى منطقة (مينو سنسق) وتوجد بعض الكلمات القيرغيزية فى تاريخ أسرة T'ang الصينية ، وهى تدل على أن القيرغيز كانوا يتكلمون التركية فى ذلك الزمان ، ومن هذه الكلمات كلمة (آى) بمعنى (القمر) ، وتدل أوصاف الصينيين للقيرغيز على أنهم كانوا مغايرين من الناحية الأنثروبولوجية لغيرهم من الترك فقد كان شعرهم أشقر — وعيونهم زرقاً وأيدت المصادر الإسلامية فيما بعد معلومات المصادر الصينية ، فالكرديزى وهو مؤرخ إيرانى عاش فى القرن الحادى عشر يقرر — مُستَقياً معلوماته من مصادر مجهولة لنا — أن شعر القيرغيز أشقر ، وأن ذلك أدى إلى الظن بوجود قرابة بين القيرغيز والصقالية .

ولا يمكن فى هذا الصدد إثبات ما ذهب إليه ماركارت من أن هذه المشابهة تدل على أن قوماً قد هاجروا من أوروبا إلى تلك البقاع ولا تكفى المعلومات التى بين أيدينا لتعليل التغيرات التى اعترت هؤلاء القيرغيز على مر الزمان حتى اكتسبوا شكلهم الحالى وسموا (قاراقيرغيز) أى (القيرغيز السمر) ويدل ذكر هؤلاء القيرغيز فى المصادر الصينية القديمة على أنهم كانوا داخل نطاق العلاقات التجارية الدولية منذ أقدم العصور ولعل ولاية مينوسنسق أن تكون

أكثر الولايات دخولا فى هذا النطاق ، وقد وجدت فى مينوسنسق آثار قديمة يصعب ردّها إلى عصر معين ، بل ما زال الجدل دائراً حول معرفة أيها يرجع إلى الترك عامة وأيها أبعد قدماً . وكانت قوافل التجار المسلمين تفد على ديار القيرغيز، وكان المسك (وله يومئذ قيمة كبيرة) أهم صادراتهم .

وإذا قارنا بين ما كتبه القدماء من الجغرافيين المسلمين عن القيرغيز و بين ما كتب المحدثون منهم لرأينا أن المدنيّة فى هذا الإقليم قد تطورت تدريجياً. فتحدثنا المصادر الصينية والإسلامية القديمة بأنه لم يكن بديار القيرغيز سوى مدينة واحدة هى مقر الخان ، ولا يوجد بعد ذلك مدن ولا قرى وكان القسم الأكبر من السكان بدواً ، وأما القسم الآخر فيمكن القول بأنه كان بدائياً يعيش على الصيد . ولكن رشيد الدين[1] يقرر أن بلاد القيرغيز فى عهد المغول كانت حافلة بالمدن . و بغض الطرف عن أثر الصلات التجارية فى إنماء المدنية الزراعية فقد كان لخصوبة التربة فى ولاية مينوسنسق أثر فى هـــذا الإنماء والغالب أن القيرغيز هم أقدم مثل للأقوام المتتركة . وليست من أصل تركى . حركة التترك

وقد كانت هذه الأقوام كثيرة منها البدوى ومنها الحضرى — وكان من أكثر الأقوام اتصالا بالترك (الضامو ييد Samoyedes و بخاصة القاطنون منهم فى الجنوب ، والصامو ييد هؤلاء قوم من خمسة أقوام تتكون منهم الأسرة (الأورالتائية) وهم من الشرق إلى الغرب (الفنّ — الـ صامو ييد — الـ تورك — الـ موغول — الـ تونغور) وما زالت عملية التمثل هذه ماضية — ومن

---

(١) مؤرخ المغول وصاحب جامع التواريخ ، القرن الثامن الهجرى .

الصامو يبد المتتركين حديثاً قوم الـ (قارأغاص Karagasse) ومن الأقوام التى لم يتم تتركها قوم (قاماسين) وتقع ديار هؤلاء شرق ديار (الياقوت) وهى بذلك أقصى ديار الناطقين بالتركية نحو الشرق .

ويقرر كاسترن Castren وقد زار بلادهم سنة ١٨٤٨ أن لغتهم كانت ما تزال حية بينهم ، فلما زارهم بعد ذلك رادلوف سنة ١٨٦٣ وجد أنهم قد تتركوا إلا قليلا منهم كانوا فى دور التَّترك ، فلما زارهم بعد ذلك بمدة طويلة العـالم الفنلندى دونير K. Donner وجد تتركهم قد تمّ وإن يكن رأى أن بعض المعمرين مازالوا يعرفون لغة الصامو يبد . واسم الصامو يبد بالتركية هو (طو با Tuba) وهو اسم لم يذكر فى نقوش أورخون ولـكن المصادر الصينية المعاصرة لهذه النقوش تذكره بصيغة طوپا Topa) .

الآز :

ومن الأقوام غير التركية التى ورد ذكرها فى نقوش أورخون قوم الـ (آز) وهو اسم يُذكر دائما مع اسم القيرغيز ، وقد اختُلف أول الأمر فى مفهوم كلمة آز أهى اسم قوم أم لا ، وكنتُ أنا أول من قال إن هذه الـكلمة اسم قوم ، وقد قبل هذا الرأىَ طومسن فى ترجمته الأخيرة وقال عن هذه الـكلمة (إنها تدل على قوم لا يعرف أصلهم) . وتوجد فى الجزء الأسفل من حوض نهر ينسى عند منطقة (طورفان) أطلال قوم يسميهم الروس خطأ (أوستياق الينسى) Ostiaks du Inisséi إذ لا توجد علاقة البتة بين هولاء القوم و بين الأوستياق المنسو بين للفِنّ والقاطنين وادى نهر أوب ob ولا بينهم و بين الأسرة الأور التائية على العموم ويسمّى (أوستياق الينسى)هؤلاء أنفسهم قوت Kott أو آسين Assin. وقد درس كاسترن هؤلاء الناس سنة ١٨٥٤ ثم درس بعد ذلك آنوچين Anoutchin . لغتهم و نظم معيشتهم بالتفصيل .

وربما كان هؤلاء الأوستياق القدماء قد شغلوا فى سالف العصور مساحات واسعة ، ويحتمل كذلك أن يكونوا هم الـ (آز) المذكورين فى نقوش أورخون .

ومن الأقوام التى تذكر على الآثار مع القيرغيز قوم الـ چيك Tchik ولـكن لم يعثر حديثاً على أى معلومات تتعلق بهم .

وكان للقيرغيز منذ ذلك الوقت أهمية سياسية خاصة ، فقد كان لهم (قاغانات) مستقلون تتحدث عنهم نقوش أورخون أكثر مما تتحدث عن القومين اللذين أخذا مكان الأتراك الغز وهم الأويغور فى الشرق والقارلوق فى الغرب ، وقد ارتقى هذان القومان بسرعة ، وترد كلة أويغور مرة واحدة فى نقوش أورخون ولـكن ترد فى فقرة واضحة تماما ولا مجال للشك فى قراءة الـكلمة وفى دلالتها على الأويغور الذين لا يمكن أن يلتبس اسمهم باسم الغز وكان رؤساء (الأويغور) يحملون لقبا متواضعاً بالنسبة لما يحمله رؤساء القيرغيز وهو لقب اﻟ(ئلتبير) Eltebir ويرى طومسن أن هذه الـكلمة عند الترك بمعنى (والى) ، ولـكننا لا نجد كلة واحدة تدل على أن الـ « ئلتبير Eltebir كان يعين من قبل الخاقان ، ومهما يكن فقد كان القوم الذين يرأسهم الـ « ئلتبير » (ئلته بيرلك بودون) أقل أهمية من القوم الذين يرأسهم [قاغان] (قاغانلغ بودون) .

ولم يكن كذلك للقارلوق قاغان .

التتار :

ومن الأقوام غير التركية التى ورد ذكرها فى نقوش أورخون التتار وقد وسم المغول أنفسهم فيمابعد بهذا الاسم ، ويرد بالنقوش اسم « طوقوز تاتار » و «أوتوز تاتار » ويفهم من هذا أن التتار كانوا حينذاك قسمين ، قسما يتكون من تسع قبائل ، وقسما يتكون من ثلاثين قبيلة .

وتوشك مسألة العلاقة بين الترك فى ذلك الزمان وبين حياة الحضر أن تكون معضلة فيلاحظ أن الترك مع تأثرهم بأهل الحضر المتمدنين ولا سيما الصينيين فى الشرق ، والصغد وغيرهم فى الغرب كانوا يحيون حياة

بدوية . وتوجد فى الآثار التركية كلمة صغدية شاعت فيما بعد بين الترك والمغول وهى كلمة « قاتون أو خاتون » بمعنى ملكة .

وتذكر بلادالصغد فى النقوش الأثرية على صورتين « صوغد وصوغداق» وهما كلمتان نصادفهما فى النقوش الإسلامية المتأخرة .

وقد صحبت كلمة « صغد » فى بعض الأحيان عبارة « به رچه كه ر بوقارا قولوس » التى يحتمل أن تقرأ أيضاً بتقديم الكلمة الثانية « بوقار قولوس » على الكلمة الأولى وقد ترجم ماركارت هذه العبارة هكذا : «أقوام أمة فارس و بخارا» ومع أن كلمة أولوس تؤدى معنى قوم فى النقوش التركية الدينيّة القديمة ، فإن هذا المعنى لم يُصَادَف فى نقوش أورخون . وقراءة الكلمة على أنها « أولوس » ثم إعطاؤها معنى « قَوْم » ضعيف إلى حد كبير وذلك بأن كلمة « بودون » واردة فى نفس المكان ، وهى أيضاً بمعنى « قوم » ومن المستبعد أن تستعمل كلمتان بمعنى واحد فى مكان واحد .

وأما تحويل كلمة بارسيك الدالة على « فارس » إلى كلمة « به رچه كه ر » فإنه يجافى قواعد علم اللغة ،ومع هذا فإن طومسن فى ترجمته الأخيرة قد قبل هذا الطرز من القراءة مع وضعه أمامه علامة استفهام .

وإذا كان البدوُ لا يُزاولون الحياة الزراعية إلا تحت تأثير الضرورة الاقتصادية فإن هذه الضرورة كانت أوضح فى شرق تركستان منها فى أى مكان آخر . فهناك لا توجد مراع تساعد على علف الماشية وتربيتها . بل إذا لم تروَ الأراضى هناك بواسطة الجداول فإن المنطقة تتحول إلى صحراء لا تصلح للزراعة ولا لتربية الماشية ،وتدل الآثار العتيقةالتى عثر عليها فى أحدث الحفائر على أن شرق

تركستان لم يكن أصلا آهلا بالترك ولكنه تُرِّك فيما بعد مثله فى ذلك كمثل غرب تركستان . وكان تترّك سكان الحضر وتحضر الأتراك فى تلك البقاع يمضيان جنبا إلى جنب متجهين اتجاها واحداً طبيعيا من الشرق إلى الغرب . وقد هاجر الترك بكثرة إلى شرق تركستان بعد أن سقطت دولة الـ « دقوزاوغوز » ثم دولة « الأويغور » فى منغوليا . وتُصَادَفُ فى نقوش أورخون كلمة « باليق » بمعنى مدينة وكذلك عبارة « بش باليق » بمعنى المدن الخمس ، ومن المعروف أن مدن « بش باليق » أسِّست إلى جانب « كوچين » فى الجزء الشرقى من تركستان الصينية الحالية .

ويفهم من المعلومات التى أوردها مؤلفٌ من القرن الحادى عشر سنتناوله فى المحاضرات القادمة أن كلمة « باليق » كانت تستعمل استعمال الكلمتين التركيتين « بالچيق » و « چامور » وهما بمعنى الطين . وقد كان العرب كذلك يطلقون على البدو (أهل الوبر = كچه ليلر) وعلى أهل الحضر (أهل المدر = چامور ليلر) . والأتراك الذين كانوا يعيشون فى ذلك الزمان فى (بش باليق) هم هؤلاء الذين تذكرهم المصادر الصينية . باسم (باسْمِل) ومذكور فى معجم دوكانج Ducange وهو من معاجم القرون الوسطى أن كلمة (باسمل) تدل على الإنسان غير خالص النشأة ، ومن الطبيعى جداً أن هؤلاء القوم الذين مارسوا الحياة الحضرية والمدنية قبل الترك لم يكونوا أتراكا خلصاً من ناحية الدم ولكنهم اختلطوا بالعناصر القديمة المتمدنة فى تلك النواحى . حتى إن محمود الكاشغرى يعدُّ هؤلاء الـ (باسمل) بين الأقوام غير خالصة التركية . ولما كان تترّك شرقى تركستان على صورة واسعة مرتبطا بالنتائج التى ترتبت على سقوط دولتى الغز والأويغور فسنبحث ذلك فى محاضرتنا القادمة .

المحاضرة الثالثة

الترك فى تركستان :

تصور نقوش أورخون خواقين الأتراك الغز أقوياء أصحاب شوكة ، لا يتطرق إليهم الخوف من أى جانب على حين نرى أن الحكم فى منغوليا قد انتقل فى سنة ٧٤٥ أى بعد عشرة أعوام من وفاة الخاقان الذى كتبت باسمه هذه النقوش إلى قوم آخرين من الترك هم (الأويغور) وقبل ذلك ببضع سنين كانت الشعبة الغربية من الأتراك قد فقدت وحدتها السياسية نتيجة لصراعها مع العرب .

ونعلم من المصادر الصينية أن الغز المقيمين غرباً كانوا ينقسمون عشر قبائل . خمس منها تقيم شمال نهر « ايلة ili » وخمس منها فى جنوبه وتسمى هذه القبائل العشر كما يذكر طومسن فى ترجمته نقوش اورخون « اون اوق » أى « السهام العشرة ». ومن بين هذه القبائل علا شأن قبيلة توركه ش Turguesh فترة ماوخرج منها خواقين أتراك الغرب المتأخرون .

وكان العرب حتى ذلك الوقت يكتفون بصدّ غارات الترك على البلاد المتمدينة ولم يكونوا يستطيعون التوغل فى بلاد الترك ولا التقدم إلى مقر خاقانهم إلى جوار نهرچو Tchou ومع هذا فإن الحروب التى خاضها أتراك الغرب ضد العرب فى حوض نهر (سيردريا) ، ثم انهزامهم ، وهلاك خاقانهم كل أولئك أدى إلى إنقسام مملكتهم ، وعلى الرغم من أن العرب لم يكن لهم تأثير كبير فقد ظلت البلاد زماناً فى الفتن والقلاقل ، ولم يحتل الأتراك (القارلوق) محل الأتراك (الغز) على ضفتى نهرچو إلا فى سنة ٧٦٦ .

الاتصال بالاسلام :

أحرز العرب أهم انتصاراتهم فى آسيا الوسطى أثناء ولاية قتيبة بن مسلم على خراسان بين سنتى ٧٦ — ٩٨ هـ (٧٠٥ — ٧١٥) وتنبئنا نقوش أورخون

بأنه فى النصف الثانى من هذه السنوات العشر أى بين ٧١٠—٩٢٧١٥—٩٧ هـ استولى الأتراك الشرقيون على دولة تورگه ش لمدة محدودة . وفى غزواتهم هذه المتجهة غرباً وصلوا إلى (تيمرقابوغ) = (الباب الحديدى) أو إلى ممر بزغاله Bouzghala الذى يفصل الصغدوطخارستان أى البلاد المتمدينة الواقعة فى حوض زرفشان وقاشقادريا عن البلاد الواقعة قرب المجرى الأعلى لنهر جيحون — ويرى طومسن — وهو على صواب — أن هذا الممر يصل بين سمرقند و بلخ ولكنه أخطأ فى تحديد مكان الممر حين قال إنه بين الصغد وفرغانه فمن المعروف أن الطريق بين (الصغد) أو (صوغديانا) إلى (فرغانه) يتجه شمالا بشرق وليس جنوبا كالطريق المؤدى إلى بلخ .

ويفهم من مجرى الحوادث أن أتراك الشرق حاربوا العرب كما حاربهم أتراك الغرب وعلى هذا الأساس تُفسر بعض المواضع فى نقوش أورخون . ولكن بعض العلماء يشكون فى صحة هذا التفسير ، وقد ردّه علماء منهم العالم الإنجليزى « الشاب » جب فى كتابه « فتوحات العرب فى آسيا الوسطى » وهو أحدث الكتب المتعلقة بالموضوع ظهوراً . والواقع أن كلمة « عرب » لم ترد فى نقوش أورخون وفى نفس الوقت فإن كلمة « تازيك Tâzik » التى كان الإيرانيون أول من أطلقها على العرب والتى انتقلت إلى الصينيين ويحتمل أن تكون قد وصلت أيضاً إلى الترك ، « وتكون بحسب النطق التركى « ته زيك Tàzik - Tezik » . هذه الكلمة يبعد أن تكون واردة فى نقوش أورخون . .

ومن المعلوم أن دلالة هذه الكلمة قد تغيرت تماما ، ففى القرن الحادى عشر كانت تطلق على غير العرب ، وربما على الإيرانيين وأغلب الظن أن الأتراك أطلقوها أولا على العرب وحدهم ثم أطلقوها على كل المنتسبين إلى المدنية الإسلامية ثم بعد ذلك على الإيرانيين خاصة لأن الأتراك كانوا يعرفونهم أكثر من غيرهم من المسلمين .

وعلى العكس من الإيرانيين ثبت الأتراك ولم تستطع قوات المسلمين أن تفتح

بلادهم وقد كان العرب يلتزمون سياسة الدفاع طوال القرن الثامن وذلك بعد أن تم لهم فتح الأماكن المتحضرة فى أحواض جيحون وزرفشان وسيحون .

واتبع العرب أيضاً سياسة من سبقهم فبنوا الأسوار وحفروا الخنادق ليحافظوا على البلاد المتحضرة الواقعة على تلك الأنهار من هجمات البدو . ومن المعروف أن البلاد المتمدنة كانت منذ القدم تبنى الاستحكامات لتصون المدنية من غارات البربر، وهكذا انتشرت أمثال هذه الاستحكامات فى كل العالم المتمدين من بريطانيا إلى الصين ومنشوريا . أما فى آسيا الوسطى فإن أول ما بنى من الاستحكامات يرجع إلى زمن بعيد قبل الاسلام .

ففى القرن الرابع قبل الميلاد بنيت الاستحكامات للمحافظة على مرو وعلى ماجاورها من البلاد المتمدينة من غارات قوم من البدو يحتمل ألا يكونوا تركا . وأما السد الذى أقيم قبل حكم العرب للمحافظة على القسم الشمالى الشرقى من ولاية الصغد فقد كان المراد به حماية هذه الولاية من الأتراك البدو ، وأما الأسوار والخنادق التى أعدها العرب فى الصغد وفى ولاية بخارى وفى أطراف طشقند فما زالت آثارها قائمة إلى الآن .

وبعد الحكم العربى — وابتداء من حكم السامانيين الايرانيى الأصل — بطل بناء هذا النوع من الأسوار ، ولم يستصلح ما كان باقياً منها ، فقد كان السامانيون يتبعون سياسة الهجوم . ولكن هجومهم هذا كان أقرب إلى الغارات منه إلى أى شىء ولذلك لم تتسع على أيديهم حدود البلاد التى فتحها المسلمون ؛ فإن كل ما أضافوه اليها هو المناطق الممتدة من وادى نهر چيرچيق Tchirtchiq إلى نهر (طالاس) .

أثر إيران الثقافى : -

وعلى الرغم من أن الأتراك لم يستسلموا لأسلحة المسلمين فإن تأثير المدنية العربية عليهم قوى بعد دخول المسلمين فى آسيا الوسطى . والواقع أنه منذ العهد الساسانى

كان تأثير المدنية الإيرانية قد بدأ يحل محل المدنية الهندية في آسيا الوسطى ، وكانت إيران تسيطر على طرق التجارة العالمية البرية والبحرية . ومعنى هذا أن إيران قبيل سقوط الدولة الساسانية كانت قد بلغت أقصى المدى في ميدان التجارة كما كانت قد بلغته في سائر الميادين :

ولا تعطينا إيران الساسانية صورة لدولة ارتقت تدريجياً ثم أخذت تسقط رويداً رويداً شأن غيرها من الدول الشرقية ، وإنما كان مثل الدولة الساسانية والشعب الإيراني كمثل الحكومة الألمانية والشعب الألماني في العصر الحديث : انهارت الدولة بعد أن وفقت في مجاهدة الأعداء الخارجيين بما بذلت من قوى هائلة . وكان توفيق الساسانيين في الغرب بخاصة أي في حروبهم مع البيزنطيين . وقد أحرزوا أيضاً بعض النجاح المؤقت في الشرق بفضل اتفاقهم مع الترك ولكن العلاقات بينهم ما لبثت أن ساءت ثم انقطعت . وعدا هذا فقد كان الساسانيون كما كان الأكمينيون من قبلهم لا يستطيعون — وهم يخوضون الحروب في الغرب — أن يحافظوا على حدودهم في الشرق ، وقد أفاد الترك من هذا الوضع فسلبوهم حوض نهر جرجان الذي يصب حالياً في بحر الخزر ولكن الأتراك باستيلائهم هذا وقعوا تحت تأثير المدنية الإيرانية ودخلوا الديانة الزرادشتية . ويدلنا هذا المثل على أن إيران الساسانية كانت تؤثر بفضل مدنيتها وأهميتها الاقتصادية على جيرانها دون أن تنتصر عليهم عسكريا . وربما أمكن بهذه الصورة أن نتبين كيف رسخت أقدام المدنية الزرادشتية في الصغد بعد اضمحلال الديانة البوذية هناك ، ويمكن بفضل أوصاف الرحالة الصيني هيوان — تسانج الذي جاب أواسط آسيا في سنة ٦٣٠ أن نقول إن انتصار الديانة الزرادشتية على الديانة البوذية في أواسط آسيا بدأ في أواخر أيام الساسانيين ففي عهد هيوان — تسانج كانت البوذية قد انقرضت تماماً في بلاد الصغد ، فبعد أن جاوز هذا الرحالة تركستان الشرقي ، حيث بلغت

البوذية غاية الازدهار لم يقع نظره على أديرة بوذية إلا بعد أن تجاوز الحدود الجنوبية للصغد ووصل إلى طخارستان ، وفى سمرقند عاصمة الصغد وَجَدَ ديرين اثنين للديانة البوذية وكانا خاليين . ولم يكن الزرادشتيون يدعون رجال الدين البوذى يجتمعون فى هذين الديرين بل كانوا يطردونهم ويقذفونهم بالحطب المشتعل ولكن هيوان — تسانج استطاع أن يبعث الحياة فى تلك الاديرة البوذية لمدة قصيرة جدا . ويفهم من روايته عن سمرقند أن إخراج البوذية ومطاردتها من الصغد وقعا قبل وروده على تلك البلاد بقليل .

:لبوذية :

وقد كشفت لنا بعثات الآثار فى تركستان عن وجود نصوص بوذية فى لغة الصغد وعن أن هذه النصوص قد ترجمت إلى لغة الترك وأنها أثرت عليهم . وأول من حقّق هذه الوثائق هو عالم الإيرانيات الفرنسى جوتيو Robert Gauthiot وقد قرر أن هذه الوثائق لا ترجع إلى أبعد من القرن السابع ، ولكننا إذا سلمنا بصحة ما ذهب إليه لزم أن تكون هذه الوثائق قد كتبت فى غير بلاد الصغد . وليس معنى هذا أن رأى جوتيو خاطىء من أساسه ، بل يحتمل أن تكون بعض مستعمرات الصغد المتعددة فى أواسط آسيا قد احتفظت بالبوذية حتى ذلك العصر . وفى أثناء سيطرة المدنية البوذية على بلاد الترك لم يكن مروِّجو الديانة البوذية من الهنود هم وحدهم الوافدين على تلك البلاد ، بل كان التجار الهنود يفدون عليها كذلك ، ومن مخلفات ذلك العصر التى ما زالت باقية إلى الآن كلمة (سارت) وقد استعملها الأتراك أولا بمعنى (تاجر) وظلت تستعمل بهذا المعنى حتى القرن الحادى عشر . وثبت الآن أن هذه الكلمة وردت على الترك من الهند ، ولا بد أنها دخلت عندهم زمان كان أغلب الوافدين على الترك من التجار هنودا ثم انتقلت التجارة بالتدريج من أيدى الهنود إلى أيدى الإيرانيين ولم تكتسب هذه الكلمة عند الترك والمغول مدلولا عنصريا إلا فى العهد الإسلامى

و بعد القرن الحادى عشر ،فأطلقت على قوم من إيرانيي آسيا الوسطى كان الأتراك يعتبرونهم (قوما من التجار) .

وقد زاد تأثير إيران على آسيا الوسطى بعد الإسلام فلم يظل تأثيرها فى العهد الإسلامى ثقافياً فقط كما كان من قبل ، فقد اتحد الإيرانيون فى فارس مع الإيرانيين فى آسيا الوسطى فى دولة واحدة لأول مرة منذ عهدى الإسكندر المقدونى والسلوقيين .وجاء كثير من الإيرانيين مع العرب وتوطنوا تركستان ، ووقف إيرانيو آسيا الوسطى (بواسطة الإيرانيين الوافدين حديثاً) على مناقب ملوك إيران القدماء . و بدأ اللسان الفارسى يحل محل اللهجات الإيرانية فى آسيا الوسطى، وظهرت لغة أدبية فارسية واحدة لإيرانيي إيران وإيرانيي تركستان .

وانقرضت لغات ايرانيي تركستان القديمة ومن بينها لغه الصغد الأدبية ، وظهرت فى مكانها اللغة المسماة الآن « تازيك » وليس بينها و بين الفارسية إلا فروق يسيرة . ولم يكن للفارسية هناك إلا خصم واحد هو اللغة التركية وكان صراع اللسان الفارسى ضد اللسان التركى فاشلا فى أكثر الأحيان .

وتوجد منذ القرن الأول للاسلام حتى الآن ظاهرتان من مظاهر التطور :

١ — فاللغة الفارسية الأدبية تضيِّق بالتدريج لهجات الحديث المحلية فى إيران وتلاشيها .

٢ — واللغة التركية ، تضيق اللهجات الفارسية ومن بينها الفارسية الأدبية وتلاشيها .

و إلى هذا ، فمن الجدير بالملاحظة أن اللسان التركى يوسع مجال انتشاره داخل إيران نفسها ، فإذا عاش الترك والفرس معا فى قرية واحدة مثلا صار اللسان التركى بعد مدة لسانا عاماً للفريقين .

بدأ المسلمون (بعد أن وطدوا حكمهم فى آسيا الوسطى) يفيدون من طرق التجارة القديمة ، وتحدثنا المصادر الصينية بأن قوافل المسلمين التجارية كانت فى القرن الثامن تصل إلى القيرغيز مارة من بلاد القارلوق إلى أعالى نهر ينسي وفى المصادر الإسلامية معلومات عن الطريق المؤدى إلى هؤلاء القيرغيز ، وتتفق هـذه المعلومات إلى حدّ مامع ما ورد فى نقوش أورخون ؛ فسلسلة جبال (سايان) تسمى فى نقوش أورخون وفى المصادر الإسلامية باسم واحـد هو « كوكمن Kögmen » وترد بعد ذلك معلومات عن الطريقين المؤديين إلى « ايرتيش Irtich » وقد ورد ذكر هذا النهر فى نقوش أورخون أثناء الحديث عن غزوات خاقانات أتراك الشرق فى تلك الجهـات ؛ فأما الأتراك القاطنون فى منطقة « ايرتيش » فلم يرد لهم ذكر لا فى نقوش أورخون ولا فى المصادر الصينية. ولـكن المصادر الإسلامية تذكرهم لأول مرة ، فقد كان العرب أكثر اهتماماً بالطريق المؤدى إلى الصين، ولهذا كثرت المعلومات فى المصادر الإسلامية عن هذا الطريق وعن الأقوام التركية القاطنة بمحاذاته .

ومع هذا فإن المصـادر الإسلامية لا تذكر شيئاً عن سكان بلاد المغول ولا عن أحداث هذه البلاد قبل ظهور جنكيزخان ، على حين أننا نعلم من المصادر الصينية أن التجار المسلمين كانوا منـذ سنة ٩٢٤ يترددون على بلاد المغول .

وتقف معلومات العلماء المسلمين عند حدود القيرغيز ، بل كانوا يتصورون أن بلاد القيرغيز تنتهى عند البحر المحيط الشرقى .

وإذا نظرنا إلى سعة المجال التجارى للمسلمين وإلى كثرة مؤلفاتهم الجغرافية توقعنا أن تـكون معلوماتهم عن وسط آسيا وشرقها أوسع مما هى ، ولـكن هذه المعلومات — إلى ضيقها — أقل وضوحا وصراحة ممـا نتصور ، بل إن

الإفادة منها أمر ملىء بالصعاب. وقد لا نقدّر هذه الصعاب قدرها فى بعض الأحيان فنصل بذلك — إلى نتائج خاطئة ومن أهم الصعوبات أننا لا نستطيع إرجاع ماترويه هذه المصادر من أحداث إلى زمان وقوعه وقد نهج العرب فى مؤلفاتهم الجغرافية منهجهم فى سائر مؤلفاتهم فأخذوا المعلومات من الكتب وألفوا بينها ومن المحقق أن التصنيف والأخذ عن الكتب المدونة يغلب فى الكتب التى بين أيدينا على روايات الرحالة الذين يصفون مارأوا بأعينهم. وفى أكثر الأحيان تتكرر الحكاية الواحدة الواردة فى مؤلف بعينه فى كتب أخرى فى أزمنة مختلفة ولا يصرح المؤلف بأن هذه الحكاية قد وقعت قبله بقرن أو بعدة قرون .

وأحيانا يخلط المؤلف ماجمعه هو أو ماجمعه معاصروه عن بلد معين بما دُوِّن عن هذا البلد فى كتب ألفت قبله بقرون عديدة ، ثم يعطينا عن هذا البلد صورا وتفصيلات ولا يشير مطلقا إلى أن معلوماته ترجع إلى عصور مختلفة وهكذا يخطىء القارىء الفهم لأنه يظن أن كل ماورد فى الكتاب راجع إلى زمن المؤلف .

وقد يلجأ بعض العلماء الكبار دون جدوى إلى فروض علمية ليبرروا رأيا لمؤلف معين . على حين أن المؤلف قد نقل هذا الرأى حرفياً من كتاب يسبقه بعدة قرون وقد وقع من زمن قريب خلاف حول كلمات أوردها أحد جغرافيي القرن الثالث عشر وهو ياقوت الحموى ؛ فقد ذكر ياقوت أن الأتراك والبيزنطيين هم أعداء الإسلام وأنهم أوقعوا بالعالم الإسلامى أضراراً كبيرة ، وتبدو هذه العبارة عجيبة لأن الاتراك فى القرن الثالث عشر كانوا يحتلون منزلة هامة فى العالم الإسلامى ، وقد حاول بعض العلماء إيضاح هذه العبارة فذهبوا إلى أن الأتراك وإن كانوا مسلمين فقد كانوا يختلفون عن غيرهم من أهل الاسلام لانتشار التشيع والمذاهب المبتدعة بينهم ، وقد تأكد فيما بعد أن ياقوت نقل

هذه العبارة بحروفها من المقدسى وهو من رجال أواخر القرن العاشر ، ولا بد أن يكون المقدسى قد نقلها بدوره من كتاب آخر ، و بناء على هذا فإن القول بأن الأتراك أعداء الإسلام يرجع إلى زمن لم يكن فيه مسلم من الأتراك إلا عساكر الخلفاء العباسيين وغيرهم من الحكام المسلمين ، وفى ذلك الوقت كان الأتراك غير المسلمين — شأنهم شأن البيزنطيين — أعداء خارجيين للإسلام وقد كانوا هكذا فى نظر المؤلفين فى القرن العاشر ، ومما يزيد الأمر صعوبة أن العرب لم يعنوا بالحروب الداخلية بين قبائل الترك ، ولا بما كان يحدث أحيانا من أن تقوم دولة من بدو الترك على أنقاض دولة أخرى فخلت بذلك المصادر الاسلامية من أية إشارة إلى الأحداث التاريخية فى صحارى الترك . ولولا المصادر الصينية والمصادر اليونانية لعجزنا إلى حد ما عن تكوين فكرة عن تلك الأحداث ،ولعل هذا هو السبب فى أن الأحداث التى وقعت فى الشرق أى فى منغوليا وفى تركستان الصينية كانت أوضح من تلك التى وقعت فى الجزء الغربى من مناطق الاستبس فى آسيا الوسطى .

وتحدثنا المصادر الصينية وحدها بأن دولة الاويغور حلت محل دولة الأتراك الغز فى منغوليا سنة ٧٤٥ ، وكان المقر الرئيسى لخاقان الأويغور يقع أيضاً على نهر أورخون ، قريباً من مدينة قاراقورم التى بنيت فيما بعد فى عهد المغول وقد نشأت مدينةٌ جديدة إلى جوار مقر الخاقان . ويفهم من دراسة أطلال هذه المدينة ورسومها ، أنها كانت أوسع من المدينة التى بناها المغول فيما بعد أى « قراقورم » و بقيت دولة الأويغور مائة سنة تقريباً ثم انقرضت سنة ٨٤٠م على يد القيرغيز الزاحفين من الغرب ، ولكن المصادر الصينية تروى أن الأقوام البدوية التى كانت تقطن منغوليا قد تَشَتَّتَتْ بسبب ما كان يقع بينهما من حروب وأن المطرودين منهم اتجهوا تركستان حيث توطنوا وألفوا بالتدريج المدنية وحياة الحضر وأول من توطن القسم

الشرق من تركستان الصينية هم الأتراك المعروفون باسم « باسميل » ، ويلاحظ أن تقاليد هؤلاء « الباسميل » قد حفظت على الرغم من كثرة الانقلابات وقيام قوم مكان قوم آخرين فى تلك البلاد. وفى نقوش أورخون تستعمل كلمة «ايد وق قوت» لقباً لحاكم الباسميل والمعنى الحرفى لهذه الكلمة هو «السعادة المقدسة» أو « العظمة » وكلمة « قوت » فى اللغة التركية تستعمل مقابل الكلمة الأوربية Majestat . « حشمت مآب » = صاحب الجلالة .

وفى القرن الثالث عشر كان نفس هذا اللقب يستعمل للحاكم الأويغورى فى نفس المنطقة ؛ فقد كان يلقب « إيديقوت » وقد أطلق الصينيون على جماعة الأتراك الغز المهاجرين من منغوليا إلى شرقى تركستان الصينية اسم (شا — تو) أى سكان الإستبس وكانت مدينة بش باليق فى أيدى هؤلاء الترك منذ القرن التاسع . ولما تعرضوا للضغط من أبناء جنسهم المتوطنين فى الغرب لم يقاوموا ولكن هاجروا مضطرين إلى الشرق فدخلوا الصين وهناك اشتركوا فى قمع ثورة قامت فى النصف الثانى من القرن التاسع ،واستطاعوا بذلك أن ينقذوا عرش الامبراطور . وكانت لهؤلاء الأتراك الـ « شا — تو » دويلات بين تلك التى ظهرت فى النصف الأول من القرن العاشر فى الشمال الغربى من الصين .

وفى النصف الثانى من القرن التاسع حوالى سنة ٨٦٠ هاجر قوم من الأويغور بعد أن عجزوا عن مقاومة القيرغيز المتوطنين فى منغوليا إلى أطراف « بش باليق» واستوطنوها وتكونت هناك دُويلة أويغورية استطاعت أن تعيش حتى عهد المغول أى إلى القرن الرابع عشر ،وكون فرع آخر من الأويغور دُوَيلة فى المكان الذى توجد به الآن مدينة« غانچزو Kan - Tcheou وقبيل تكوّن هذه الدويلة كان هناك صراع بين الصينيين وأهل التبت حول ذلك المكان ، وكانت كفة أهل التبت فى هذا الصراع أرجح فى نهاية الأمر . وفى القرن الحادى عشر وفق « التانكوت » وهم قوم من أهل التبت فى الاستيلاء على ذلك المكان وتكوين

دولة غزاها المغول فيما بعد ، ومن ذلك التاريخ سمى الاقليم « إقليم التانكوت » وما زال الأويغور يعيشون هناك حتى الآن دون أن يكون لهم طوال تلك المدة دخل وفى أى عمل سياسى ، وهم يحتفظون إلى حد ما بلغتهم التى تمثل إحدى اللهجات التركية القديمة ، وقد بقيت فى هذه اللغة وحدها طريقة العدد كما وردت فى نقوش أورخون وفى بعض النصوص الأويغورية ، وهى عبارة عن وضع الآحاد قبل العشرات التى تليها فهم يقولون مثلا « واحد وعشرون » بدلا من « احد عشر » و « واحد وثلاثون » بدلا من واحد وعشرين فواحد وعشرون عندهم معناها واحد فى اتجاه العشرين أى أحد عشر وواحد وثلاثون معناها واحد فى اتجاه الثلاثين أى « واحد وعشرون » .

وقد خلف هؤلاء الأويغور — كما خلف الأتراك الغز — بعض النقوش أهمها وأطولها مكتوب باللغة الصينية وتعزز هذه النقوش ما ترويه المصادر الصينية من أن الأويغور لم يستمسكوا بالديانة الشامانية ولم يتأثروا كما فعل الأتراك الغز بالديانة البوذية ولكن دخلوا فى إحدى الديانات الغربية وهى الديانة المانوية وقد نجح المانويون فى نشر دينهم بين الصغد كما نجح البوذيون والمسيحيون من قبلهم ، ثم استغل المانويون فيما بعد نجاح الاويغور التجارى فى نشر ديانتهم المانوية . وقد ذُكر دخول الاويغور فى الديانة المانوية فى النقش الصينى الطويل الذى أشرنا إليه من قبل والموجود بنواحى اورخون -- ويذكر نقش صغير باللسان الصغدى وموجود بنفس المكان أن دخول الأويغور فى الديانة المانوية تم على أيدى بعض المبشرين من الصغد — وتذكر المصادر الصينية أن هؤلاء المبشرين لم يخرجوا من بلاد الصغد نفسها ليبشروا الاويغوريين ولكنهم التقوا بهم سنة ٧٦٢ أثناء غزوة قام بها قاغان الاويغور فى الصين ، ويدل هذا على أن تجارة الأقوام الغربية مع الصين كانت أهم كثيرا من العلاقات بين هذه

الأقوام وبين البدو . وقد بدأ تأثير الصغد الحقيقى على الأتراك البدو بعد أن تكونت للصغد مستعمرات تجارية فى داخل الصين وعلى الطريق المؤدى إليها، وزاد هذا التأثير بزيادة غارات الترك على الصين وعلى ما نسميه الآن بتركستان الصينية . وكان تأثير الصغد الدينى على الترك أقوى وأكثر تنوعا من تأثير الأقوام الهندية الأوربية المستوطنة فى تركستان الصينية ؛ فعلى حين لا يوجد فى بقايا اللغتين الهنديتين الأوربيتين المكتشفتين فى كوچه Koutcha وختن Khotan إلا نصوص بوذية فإن الآثار المحررة باللغة المسماة بالصغدية « على الرغم من أن منطقة انتشار هذه اللغة لم تحدد جغرافيا فيحتمل أنها كانت لغة سكان كاشغر وما حولها » تحوى إلى جانب النصوص البوذية نصوصا مانوية ومسيحية .

وأما اللغة التركية فإن فيها نصوصاً مترجمة ونصوصاً أصيلة عن هذه الديانات الثلاث .

وقد أحرزت المانوية والمسيحية أكبر التوفيق فى أواخر القرن السابع وأوائل الثامن أى فى نفس الوقت الذى قوى فيه حكم المسلمين فى غرب آسيا .

ولم ينتشر الإسلام فى أول الأمر على أيدى المبشرين ولكن انتشر بفضل علاقات الدولة العدائية أو السلمية مع الدول الأجنبية وكان من الطبيعى أن تستفيد الديانات السابقة على الاسلام من الفرص المواتية ومن الإمكانيات التى ترتبت على الفتوحات الاسلامية . وقد كان لدخول الترك فى ديانة مانى أهمية كبيرة فى تاريخهم إذ ليس لدينا مايثبت مهما يكن توفيق المبشرين أن البوذية أو المسيحية أصبحت دينا لشعب كامل من الترك لافى القرن الثامن ولا قبل ذلك ، ولكن المانوية كانت أول دين دخله الترك بوصفهم شعبا بعد الديانة الشامانية . وكانت أول دين ذى أسس أخلاقية يعتنقه الترك ؛ فبينما ترى الديانة الشامانية أن قتل الإنسان يفيد يوم القيامة فإن ديانة مانى لاتكتفى بتحريم قتل الإنسان بل تحرم أكل لحم الحيوان .

وقد كان الأتراك يفهمون التضاد بين الديانتين . ومسطور في نقوش أورخون أن الأمة التي كانت تأكل اللحم ستأكل الأرز والبلد الذى يكثر فيه القتل يسود فيه فيما بعد الأمر بالمعروف .

الأبجدية الاويغورية

وجد مع نقش خاقان الأويغور المكتوب بالصينية نقش صغدى صغير إلى جانبه أسطر من اللغة التركية كتبت بالرسم الاورخونى . ويرجع هذا النقش الصغدى إلى النصف الأول من القرن التاسع —وهو يمثل أول خط غير أورخونى انتشر بين الأتراك وهو الخط الاويغورى وكان المانويون قد نقلوا معهم خطهم الخاص من أرض بابل (العراق العربى) . ولكنهم كانوا فى نفس الوقت يستعملون الأبجدية الصغدية القومية ، وقد استعملوها فى النص المنقوش على قبر خاقان الاويغور ولما أسلم الصغد الايرانيون نبذوا تلك الكتابة القومية واستعملوا الحروف العربية ، ولا يُدرَى إذا كانت الكتابة الصغدية قد استعملت ولو قليلا فى تحرير النصوص الإسلامية . وفى نفس الوقت حافظ الاويغور على الكتابة التى انتقلت من الصغد إلى الترك وتعرف هذه الكتابة عند العلماء باسم الكتابة الاويغورية . ومن المعروف أن الأتراك واصلوا استعمال هذه الكتابة بعد دخولهم فى الإسلام ولم يتركوها بسهولة ، وفى نفس الوقت نشر الاويغور هذه الأبجدية فى منغوليا ، ثم جاء بها المغول ثانية إلى الغرب وبعد قليل انتقلت من المغول إلى المانچو Manchous وهكذا نرى كيف وصلت الأبجدية السامية الأصل إلى المحيط الهادى بواسطة الصغد والاويغور ثم المغول .ولا شك فى أن هذه الأبجدية صغدية ، وقد عرف ذلك العلماء المسلمون وصرح به المؤلف المسلم فخر الدين مباركشاه المروروزى وهو من رجال أوائل القرن الثالث عشر ، ولم يكن استبدال الخط الاويغورى بالخط الأورخونى

بداية رقى بل كان خطوة إلى الوراء لأن الأبجدية الأويغورية لاتدل على الأصوات التركية دلالة الأبجدية الأورخونية .

الأويغور فى تركستان الصينية :

لما طرد الأويغور من منغوليا حملوا الديانة المانوية إلى الإمارات التى أسسوها فى تركستان الصينية وفى غانچو Kan Tchou . ويحتمل أن تكون هذه الديانة قد انتشرت فى تركستان قبل أن يفد عليها الأويغور أى فى حكم الغز المعروفين باسم (كوك — ترك) أو فى زمان خلفائهم ، وربما كانت كتابات الجغرافيين العرب مؤيدة لهذه الفكرة ، فبين أيدينا كثير من كتبهم التى ترجع إلى القرن العاشر الميلادى وهو العهد الكلاسيكى لكتابة الجغرافيا عند العرب ، وتحوى هذه الكتب وصفا مفصلا للعالم الإسلامى ، وفيها كذلك معلومات قليلة عن الأماكن الآهلة بالترك والواقعة على الطريق الذى يربط العالم الإسلامى بالصين .

ويوجد طبقا لما تصوّره هذه الكتب ثلاثة أقوام من الترك فى الأرض الممتدة من بحر الخزر إلى حدود الصين وهؤلاء هم :

١ — الغز وينتشرون فى الأراضى الممتدة فى بحر الخزر إلى أواسط مجرى سير داريا .

٢ — القارلوق وينتشرون فى الأراضى التى تمتد إلى مسيرة عشرين يوما شرقى فرغانة .

٣ — التغزغز أو طوقوز — أوغوز ويسكنون الأراضى التى تبدأ من حدود أراضى القارلوق وتمتد حتى الصين .

وهذا الوصف لبلاد الترك يرجع حسب ما تروى المصادر الصينية إلى عهد الحكم الأويغورى فى شرق تركستان الصينية وأول من تحدث عن الطريق المؤدى

إلى الصين وعن الأتراك الذين يقطنونه هو ابن خرداذبه ،ولكنا لا نعرف بالضبط متى ألف كتابه أقبل سنة ٨٦٠ أى قبل أن يتوطن الأويغور فى تركستان الشرقية أم بعد ذلك . ومع هذا فيمكن أن نستنتج أن الأتراك الذين يُسميهم جغرافيو العرب (تغزغز) هم هم الذين تسميهم المصادر الصينية (أويغور) وفى وقت ماقرئت كلمة تغزغز على أنها (طقوزغور) أى (طقوزاويغور) ثم عُدل عن هذه القراءة .

وتنفى مصادر التاريخ العربية أن يكون الأويغور هم (الطقوزاوغوز) فيروى ابن الأثير أن الغز الغربيين منحدرون من الـ (طقوزاوغز) ويروى الطبرى أن الـ (طقوز اوغوز) أغاروا بعيد سنة ٨٢٠ على أشروسنه وهى عبارة عن الأراضى الواقعة بين مدينتى جزاق وخجند الحاليتين ، ومعنى هذا أن كلمة (طقوز اوغوز) لم تكن تطلق على الأتراك المتوطنين فى الجزء الشرقى من تركستان الصين فحسبْ ، بل كانت تطلق كذلك على الأتراك المتاخمين مباشرة للبلاد الإسلامية ، ويؤيد هذا ما يروى من أن بعض (الطوقوز اوغوز) كانوا يقعون أسرى فى أيدى المسلمين كما يمكن أن يستنتج منه أن أبا أحمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية فى مصر كان من الأتراك (طوقوز اوغوز) .

ولم يرحل ابن خرداذبه وهو أقدم من وصفوا الطريق المؤدية إلى الصين إلى تلك النواحى ولكن صنف كتابه بما جمع من الروايات ، وقد أورد ياقوت الحموى نفس الوصف الذى أورده بن خردازبه إلا أنه ينقل عن رجل طوف بنفسه فى ذلك الطريق وهو تميم ابن بحر المطوعى ، ولكن ياقوت لم يذكر مع الأسف تاريخ رحلة تميم ولا بد أن نقبل — على ضوء ما ورد فى هذه الرحلة من تفاصيل — أنها كانت بين عام ٧٦٠ وبين بداية القرن التاسع ، فأما عام ٧٦٠ فهو تاريخ نشأة حكم القارلوق فى منطقة (سميريتشى) = (يتى صو) =

(بلاد الأنهار السبعة) فى الجزء الغربى من تركستان الصينية ، وأما بداية القرن التاسع فهى تاريخ هجرة الأتراك (شا — تو) من منطقة (بش باليق) إلى الشرق ،أى إلى داخل الصين . وهؤلاء الأتراك هم المذكورون فى المصادر الصينية والمنحدرون من الأتراك المذكورين فى نقوش أورخون أى الأتراك التغزغز .

ولا شك فى أن العرب قد عرفوا عن كثب نواحى بش باليق حين كان يسكنها التغزغز ولكن فاتهم أن هؤلاء التغزغز هاجروا شرقا فيما بعد وأن قوما آخرين من الترك حلوا محلهم وظلوا كعادتهم يطلقون على سكان تلك النواحى التغزغز ولعل أوضح دليل على أن كلمة (طقوزاغوز) كانت تطلق أول الأمر على الـ (شا — تو) لا على الأويغور أن المسعودى يروى أن أمبراطور الصين استطاع بمعاونة التغزغز قمع ثورة قامت ببلاده فى النصف الثانى من القرن التاسع ،على حين تروى المصادر الصينية أن ذلك تم بمساعدة الأتراك « شا ـ تو » وهكذا نسب العرب هذا الحادث التاريخى « الذى يعتبر وروده فى المصادر العربية والصينية معاً إحدى النوادر » إلى التغزغز وعزاه الصينيون إلى « شا ـ تو » .

وفى أثناء رحلة تميم بن بحر كان بأراضى التغزغز من لا يزال يدين بالزرادشتية ومن لا يزال يدين بالمانوية ، وفى أول الأمر كانت ديانة زرادشت هى السائدة ، وكانت المانوية فى العاصمة فقط . ولكن بما أن العرب يتحدثون عن التغزغز بوصفهم جميعاً مانويين ، فلابد أن الزرادشتيه كانت آخذة فى السقوط بالتدريج مما قوّى المانوية ويقال إن هذه الديانة — مثلها كمثل البوذية — ترقّق شمائل الإنسان ومزاجه . ولذلك أضعفت الروح العسكرى عند التغزغز . ويروى الجاحظ المتوفى سنة ٨٦٩ أن التغزغز كانوا قبل اعتناقهم المانوية أمة محاربة باسلة وأن الغلبة كانت لهم على القارلوق فى الحروب التى خاضوها

عددهم ، حتى حين كان عددهم أقل . فلمـــا دخلوا ديانة مانى بدأوا يذوقون الهزائم .

ويرى ماركارت أن الأويغور البدو هم المقصودون بكلام الجاحظ ويرى أيضاً أن العرب قد بلغتهم أخبار تدمير الدولة الاويغورية فى منغوليا على أيدى القيرغيزهذا مع أن الحرب المذكورة فى رواية الجاحظ والتى نقلها ماركارت كانت ضد القارلوق لاضد القيرغيز . ومن هنا يفهم أن الحرب التى أشار إليها الجاحظ لم تكن بمنغوليا كما يرى ماركارت وإنما كانت إحدى الوقائع التى دارت فى تركستان الصينية ، ويفهم أيضاً أن أولئك الذى تسميهم المصادر العربية « تغزغز » كانوا مستوطنين قبل مجىء الاويغور إلى تركستان الشرقية ، وكان وصول هؤلاء الاويغور إلى تركستان الشرقية قبل وفاة الجاحظ بثلاث سنين ، ولـكن يؤخذ من رواية الجاحظ أن التغزغز كانوا يعيشون منذ زمن بعيد فى تركستان الشرقية حيث عرفهم العرب وأنهم كانوا فى صراع طويل مع جيرانهم الغربيين : القارلوق .

ومع أن الاويغور كانوا يعيشون فى شرق تركستان فقـــد ظل العرب — بتأثير المصادر المكتوبة — يطلقون على سكان هذا الإقليم (التغزغز) وكانت أخبار هؤلاء الأويغور الواردة فى المصادر العربيـة جزئية مقتضبه ولعل أكبرها أهمية ما أورده المسعودى والنديم ، وهما من رجال القرن العاشر فهما ، يرويان أن خان الاويغور كانت له من أجل حماية أبناء ديانته المانوية مساع لدى أمبراطور الصين ولدى ثلاثة من الأمراء المسلمين من آل سامان . وقد روىْ ابن النديم أن خان التغزغز لما علم بما يبيت الأمير السامانى للمانويين المقيمين بسمرقند بعث إليه بأن المسلمين فى أراضى التغزغز أكثر عدداً من المانويين فى أراضى السامانيين وبأنه إن مسّ المانويين أذى أو اضطهاد فسيمس المسلمين ببلاد التغزغز مثله . فعدل الأمير السامانى بسبب هذا التهديد

عن سياسة التضييق التى كان يزمع اتباعها ازاء المانويين وتدل هذه الرواية على أن الجاحظ بالغ حين زعم أن المانوية أضعفت الروح العسكرى عند التغزغز ، وقد قيل أيضاً إن البوذية أضعفت روح القتال عند المغول ، وفى ذلك مبالغة ؛ فقد خاض المغول فى سبيل الاستقلال حروباً ضد الصينيين دلت على أنهم لم يفقدوا صفاتهم العسكرية ، وكذلك ظهر أهل التبت على مسرح الحوادث غزاة محاربين وكان ذلك فى القرن السابع وهم ما يزالون حديثى العهد بالديانة البوذية .

وفى أوائل القرن العشرين رأى الإنجليز وهم يدخلون بلاد التبت مقاومة باسلة من أهل البلاد مع أنهم تحت سيطرة البوذية منذ قرون ، ويكفى فى هذا الباب المثل الذى ضربه المسيحيون الأوربيون فى القرون الوسطى ؛ فإنهم برهنوا على أن الأمة المحاربة تستطيع أن تجعل من دين السلام والحب دين حرب ، وكذلك الأويغور البدو فإنهم تذرعوا بالمانوية بعد اعتناقها ليهددوا الصين وكان على إمبراطور الصين وهو يضطهد الديانات المنتشرة فى بلاده ما عدا البوذية أن يحسب حساب الحماية التى بسطها خاقان الاويغور على المانويين بالصين ولم يضطهد الصينيون الديانات الأجنبية ببلادهم إلا بعد أن انهارت دولة الأويغور على يد القيرغيز ؛ فهناك اضطهدت الديانات ومن بينها المانوية . وبعد أن توطن الاويغور شرقى تركستان استأنفوا سياسة التهديد إزاء الصين ولكنها لم تكن فعالة كما كانت من قبل أيام كانت لهم حكومة قوية فى منغوليا . ومع هذا فيستنتج من هذه الروايات التى أوردها المسعودى والنديم أن الأويغور كانوا لا يحجمون حتى بعد إستيطانهم شرقى تركستان عن استعمال السلاح ذيادا عن أبناء دينهم فى البلاد الأجنبية : أى أنهم لم يفقدوا ميزاتهم العسكرية .

الديانة المانوية عند الأويغور :

يستطيع علماء أوربا لأول مرة أن يدرسوا الديانة المانوية فى وثائق حررها المانويون أنفسهم ، وذلك بعد أن كشفت بعثات الآثار فى آسيا الوسطى عن وثائق

مانوية مكتوبة بالفارسية والصغدية والتركية والصينية ، حتى الآن تدرس الديانة المانوية فى المصادر المسيحية والإسلامية وهى جميعها مصادر جدلية معادية . كانت المانوية ترمى — كالبوذية تماما — إلى أن تنتشر بين جماهير الشعب ، وكانت تعاليم الزهد فى الديانة موجهة ضد نظام الطبقات الذى كانت الديانة الزرادشتية « وخاصة فى إيران ابان حكم الساسانيين — تحتفظ به . ومن أجل هذا كتبت النصوص المانوية بحيث يفهمها العامة ، وتتميز مخطوطات تلك الديانة بين مخطوطات ذلك العهد بوضوح الأسلوب وبخلوها من الرموز اللفظية السامية التى كانت تحشد بها النصوص البهلوية والتى استعملها المسيحيون الإيرانيون أيضاً .

فقد كان هؤلاء يكتبون كثيراً من الكلمات باللغات السامية حتى إذا قرأوا نطقوا باللغة الفارسية .

وكذلك كانت كتابات المانويين التركية واضحة وبسيطة، وأهم نصوصهم المكتوبة بالتركية «صلاة التوبة » المسماة خوا ستوا نيفت Khwastwanift ويرى رادلولف أن هذا الأثر يفوق كل ما وقع بين أيدينا من النصوص التركية سلاسة .

ومن خلال هذا النص تبدو المانوية — كما كنا نتوقع — قريبة الشبه بالبوذية فقد كان يعاقب على التطاول بالمقدسات المانوية بنفس الطريقة المتبعة فى الديانة البوذية ويظهر تقارب الدينين بوجه خاص فيما كان بينهما من الاصطلاحات المشتركة التى تدل فى نفس الوقت على أنهما كانا يتأثران أحدهما الآخر حتى إننا لا نستطيع بسبب هذا التأثر أن نجزم أى الدينين انتشر أولا بين الترك : المانوية أم البوذية ؛ فالمانويون يسمون قديسهم «بورخان» وهى الكلمة التركية التى تدل على «بوذا» وعلى التماثيل البوذية ، والبوذيون يطلقون على كتبهم المقدسة كلمة « نوم Nom» وهى اصطلاح مانوى ما زال مستعملا حتى الآن فى اللغة المغولية وقد حاول البوذيون والمانويون كما حاول المسلمون والمسيحيون فيما بعد أن يصوغوا

اصطلاحاتهم الدينية من اللغة التركية حتى يسهل انتشارها ، ولكن ذلك لم يكن ميسراً فى كل الحالات . فلئن كان الاصطلاحان الدالان على كلمتى « الله » و« ابليس » موجودين فى الديانة الشامانية ، فلم يكن بتلك الديانة اصطلاح يدل على « الملك » .وقد اضطر المبشرون المانويون والنصارى والمسلمون المزاولون نشاطهم بين الترك أن يستعملوا الكلمة الفارسية « فرشتة » وأن يكتفوا بها، وقد أشار محمود الكشغرى إلى أن الترك ليس عندهم تصورٌ لمعنى « الملك » .

ولم يستطيع العرب أن يفرقوا تماماً بين المانوية والبوذية وآية هذا أن كثيراً من المؤلفين ومن بينهم البيرونى يقولون إن المانوية انتشرت بين الترك انتشاراً واسعاً على حين يجزم المسعودى بأن المانوية كانت منتشرة بين التغزغز وحدهم وأنها لم توجد عند غيرهم ، ولا شك أن المراد بالتغزغز هنا هم الأويغور و بعد ذلك (بعد القرن العاشر بقليل غالباً) حلت البوذية والمسيحية محل المانوية عند الأويغور ، ولكن كيف كان ذلك ومتى ؟ ذلك مالا تجيب عنه مراجعنا فحتى محمود الكشغرى وقد حرر كتابه فى القرن الحادى عشر لا يشير إلى أن المانوية كانت وقتذاك موجودة عند الأويغور ، مع أنه بالنسبة لغيره أعلم كثيراً بدولتهم .

ولعل أهم ما يلفت النظر أن محمود الكشغرى —وهو الوحيد بين من كتبوا بالعربية الذى اعتمد على مشاهداته ولم ينقل عن كتاب مدون — لا يستعمل كلمة تغزغز البتة ولكن يستعمل كلمة أويغور ويثبت هذا أن المؤلفين العرب نقلوا كلمة (تغزغز) عن الكتب القديمة ثم تناقلوها خلفاً عن سلف ، وأن هذه الكلمة لم تكن موجودة بين الأتراك فى شرق تركستان فى ذلك الزمان .

و إذا لم يكن الأويغور فى زمان الكشغرى قد احتفظوا فعلا بالديانة المانوية فقد كانوا يحتفظون يقينا بالبوذية والمسيحية ، ذلك بينما كان جيرانهم الغربيون تحت تأثير الإسلام .

فهل يمكن أن نلم بشىء عن هذا الأمر الجلل فى تاريخ الترك ؟ سأحاول ذلك فى المحاضرة القادمة .

المحاضرة الرابعة

دخول الترك فى الاسلام

أخذ الاسلام ينتشر بين الترك حين بسطت دولة آل سامان الإيرانية نفوذها فى أواسط آسيا ففى القرنين التاسع والعاشر (من ٨٢٠ إلى ١٠٠٠ تقريباً) كانت المناطق المتحضرة بتركستان الروسية الحالية فى قبضتهم، وتسمى الولايات الواقعة بالجانب الآخر من نهر آموداريا (نهر جيحون) بلاد ما وراء النهر وكان سكانها يسمون أحيانا فى أثناء الفتوحات الإسلامية بالأتراك ومن المحتمل أن يكون بعض الأسرات التركية قد حكم بعض المناطق هناك، ويقال إن فى قصير عمرا الأموى الموجود بسوريا صورة لأمير بخارى التركى ماثلة إلى جانب صور شاه إيران وقيصر بيزنطة وملك الويزغوت الأسبانى ونجاشى الحبشة، ولكن اللغة التركية لم تكن وقت ذاك منتشرة بين سكان البلاد. وأغلب الظن أن العرب سموا لغة السكان الإيرانيين باللغة التركية، فبهذا فقط يمكن أن نفسر قول الجاحظ بأن الفرق بين لغة خراسان واللغة التركية فرق لهجة ليس غير كالذى بين لهجة مكة ولهجة المدينة.

المسلمون فيما وراء النهر

ويبدو أن الحد الشمالى للاسلام وللخلافة فى آسيا الوسطى كان فى فترة ما مطابقا لحدين آخرين: الحد الجنسى الذى يفصل بين العنصرين الإيرانى والتركى، ثم الحد الحضارى الذى يفصل بين مناطق الزراعة ومناط تربية الحيوان، ولئن كان بعض المدن قد أسس شمالى تلك الحدود فقد كان ذلك على يد جاليات من سكان المناطق ذات الحضارة الزراعية هاجرت وأقامت هناك.

وكان الجغرافيون المسلمون فى القرن العاشر يتحدثون عن الترك بوصفهم أجانب وأعداء للإسلام مع أن هذا الوضع أخذ يتغير منذ ذلك الوقت.

وينتمى السامانيون كما كان ينتمى البرامكة وزراء العباسيين إلى بلخ حيث سادت البوذية قبل الإسلام ، وقد صعب على هذه الديانه أن تتعايش فيما بعد مع الإسلام لأن المسلمين اعتبروها لكثرة الأصنام بمعابدها ديانة وثنية .

وبينما تماسكت الديانة البراهمية فى الهند إبان الحكم الإسلامى تلاشت البوذية هنالك بسرعة ،وتلاشت أيضاً فى بلخ وفى طخارستان بوجه عام ، هذا ، على حين بقيت الديانة الزرادشتية متماسكة بعض الوقت ببلاد ماوراء النهر ،وعدا ذلك فقد كانت هناك جماعات من المانوية والنصارى واليهود واستطاعت الديانة اليهودية وحدها أن تعيش هناك حتى الآن ، ومع أن البوذية عجزت عن مواجهة الإسلام واختفت فقد بقيت لها بعض الآثار ،ومن بينها مدارس العلوم الإسلامية العالية التى كانت فى الغالب تقليداً للويهارا Vihara البوذية ويدل على ذلك أن هذه المدارس ظهرت أول الأمر فى شرق العالم الإسلامى ولم تظهر فى غرب إيران وفى دار الخلافة بغداد إلا فى القرن الحادى عشر ، وتنم كثرة هذه المدارس فى بلخ وما حولها عن تأثير الديانة البوذية .

وتدل الوثائق التى بين أيدينا على أن المدارس التى كانت بخراسان وبماوراء النهر فى القرن العاشر ، لعبت الدور الأهم فى نشر الإسلام وكانت هذه المدارس مستقلة عن تدبير الحكومات وسياساتها .وفى ذلك القرن كانت الدعوة للإسلام خارج حدود الخلافة أكثر نجاحاً فى آسيا الوسطى منها فى أى مكان آخر ،وذلك بفضل هذه المدارس . وقد رأينا فى المحاضرات السابقة أن السامانيين عدلوا عن خطة الدفاع التى كان يتبعها أمراء خراسان وما وراء النهر المعينون من قبل الخليفة، ونفضوا أيديهم من بناء الأسوار التى كانت تقام وقاية للأقاليم المتحضرة من غارات البدو ، وبدأوا هم يغيرون على مناطق الاستبس، وكانت غزواتهم تنتهى أحياناً بفتح بعض المدن ؛ففى سنة ٨٩٣ فتحت مدينة (طراز) أو (طالاس).

وكانت فى مكان مدينة (أوليا أتا) الحالية . ويقال إنه بمناسبة هذا الفتح حولت الكنيسة الكبيرة بالمدينة إلى مسجد مما يدل على أن التبشير المسيحى كان قد سبق الإسلام إلى هناك .

ولكن هذه الفتوحات ظلت قاصرة على الأماكن القريبة من بلاد ماوراء النهر ،و بالإضافة إلى هذه الفتوحات كان المهاجرون يأتون أحيانا من بلاد ماوراء النهر ليستعمروا الصحراء صلحا ، وكان العنصر الذى هاجر قبل الإسلام من بلاد ماوراء النهر واستعمر صحراءالترك هو عنصر الصغد ، فلما دخلت جمهرة سكان ماوراء النهر فى الإسلام واصلوا سياسة الصغد القديمة الاستعمارية . وهكذا أنشئت ثلاث مدن إسلامية فى القسم الأسفل من نهر سيحون وهى (جند) و (خواره) و (ينعى كنت) و بالتركية (يكى كَنْتْ) و بالفارسية (ده نو) وبالعربية (القرية الحديثة) . وقد انتقلت كلمة كنْت من الصغد إلى الترك وأمكن تحديد موضع (ينغى كنت) بالضبط وتسمى أطلالها الآن (جانكه نت) .

ويؤخذ من أقوال الجغرافيين العرب أن سكان هذه البلاد وإن كانوا مسلمين فانهم خاضعون للأتراك الغز الذين لم يقبلوا الإسلام ،أى أن المدن لم تكن من تلك التى نشأت فى الأقاليم التى غزاها السامانيون ، وإنما كانت مستعمرات أنشأها المهاجرون مما وراء النهر برضا الحكام الأتراك المحليين ، وقد اتسعت تجارة طالاس التى فتحها السامانيون ، وتجارة ينغى كنت التى أسسها المهاجرون صلحا مع بلاد آسيا الوسطى .وفى الطرف الشمالى لكل من هاتين المدينتين كان يوجد طريق يؤدى إلى القبيلة التركية (كيمك) Kimak المشهورة عند الصينيين باسم (كياك) والتى كانت تعيش على نهر ايرتش ومن هؤلاء الكيماك ينحدر القبچاق الذين شغلوا فيما بعد مناطق شاسعة .

خوارزم والخزر :

كانت خوارزم ، وهى إحدى الولايات الواقعة على حدود المدنيَّة الإسلامية محاطة بمناطق الاستپس من ثلاث جهات ، وكان لها من قديم الزمان تجارة واسعة مع الجماعات البدوية ، إلا أنها فى أغلب الظن كانت أنشط قبل العهد الاسلامى منها بعده ، ويبدو أن أهل خوارزم قد أسهموا فى تأسيس المستعمرات الإسلامية بالقرب من سيحون وإن كان مجال نشاطهم قد اتجه خاصة إلى الغرب وإلى الشمال الغربى أى إلى حوض الفلجا (ايديل) حيث كان يقيم البلغار والخزر ويرجع نشاطهم هذا إلى ماقبل العهد الإسلامى ؛ فإن رئيس عسكر الخزر الذين هاجموا الولايات الإسلامية فى قافقاسيا سنة ٨٦٤ كان خوارزميا ، وبعد هذا التاريخ نجد أيضا بعض المسلمين من أهل خوارزم فى خدمة الخزر ، إلا أنهم كانوا يحصلون عند التحاقهم بالخدمة على حق الحياد إذا دخل الخزر فى حرب ضد بلاد إسلامى وعدا هذا فإن عدد التجار المسلمين كان كثيرا فى بلاد الخزر وخاصة فى العاصمة (ايتيل) الواقعة على نهر الفلجا وبفضل التجارة وحدها أمكن أن تنشأ مدينة كبيرة كهذه فى منطقة قال فيها العرب إنها غير ذات حاصلات . وكانت بلاد الخزر تشترك فى حدودها الجنوبية الغربية مع داغستان ومع بلاد الخلافة الإسلامية ، وهناك كانت تحدث المصادمات العسكرية التى ألجأت خواقين الخزر إلى ترك عاصمتهم القديمة بداغستان وتأسيس عاصمة جديدة على مصب نهر ايديل (الفلجا) ومع أن العرب عادوا فاتبعوا فى قافقاسيا نفس الخطة التى اتبعوها فى تركستان — وهى خطة الدفاع — ومع أن داغستان (ماعدا الدربند وضواحيه كانت فى قبضة الخزر فإن عاصمتهم بقيت على مصب نهر الفلجا .

وأما فى الشرق فقد كانت هناك دائما منطقة ليست ملكا لأحد No man's Land) بين بلاد الخزر وبين حدود البلاد الإسلامية ، ولم تكن هذه المنطقة خاضعة لا للخزر ولا للمسلمين . ولكن يمكن أن يستنتج من بعض المراجع العربية

أن عساكر الخزر كانت تتجاوز هذه المنطقة وتشترك فى الأحداث التى تدور فى حوض الفلجا وأهمّ هذه الأحداث هو هجوم الروس على حوض هـذا النهر فى القرن العاشر وقبل هذا الهجوم كان الخزر قد أغاروا على ما جاورهم شرقا من بلاد الصقالبة . وتحـدثنا الحوليات الروسية بأن بعض أقوام الصقالبة كانت تدفع الجزية حتى النصف الثانى من القرن التاسع لخـاقان الخزر ومما يدل على أن تأثيرهم كان بعيد المدى من ناحية الشمال أن الأمراء الروس الذين كانوا يقيمون على مقربة من (نوغورود) كانوا يحملون اللقب التركى خاقان . هـذا ، والروس وقتذاك ما زالوا نورمانديين يتكلمون السويدية ولـكنهم ما لبثوا بعد ذلك أن نسوا اللسان السويدى وتصقلبوا و بدأوا يتكلمون اللغة الروسية ومع أن حكامهم كانوا يحملون لقب (كناز) وهى كلمـة جرمانية قبلها الصقالبة عامة فقد كانت كلمـة قاغان تستعمل أيضاً فلمـا تكونت دولة الروس فى القرن التاسع وامتدت من البحر البلطى إلى البحر الأسود كان ذلك ضربة شديدة لسلطان الخزر وشوكتهم . وكان الروس يغيرون على كل الجهات ، فلما اتجه هجومهم إلى نهر ايديل و إلى بحر الخزر لم يكن بد من أن تصطدم الأمتان ولم تذكر الحوليات الروسية شيئاً عن هذه الغارات باستثناء أخراها وهى غارة (سواتوسلاف) فقد وردت عنها بضـعة أسطر ، وكل معلوماتنا عن هذه الغارات مأخوذ من المصادر العربية . وأكثرها تفصيلا رواية المسعودى عن أولى هذه الغارات ، وقد وقعت غالبا بين ٩١٠ و٩١٥ أو على الأرجح عام ٩١٣ وتمت هذه الغارة بإذن خاقان الخزر ، وكان الروس قد وعدوه بجزء من الغنائم ولـكن هذا الخاقان نفسه أذن لرعاياه المسلمين بمهاجمة الروس (أثناء عودتهم) وانضم إلى المسلمين التجار النصارى المتوطنون فى مدينة ايديل والمهتمون بأن تظل تجارة المدينة فى مأمن من الغارات ، وهكذا كاد الروس أن يبيدوا تماماً .

وأما الغارة الثانية التى قام بها الروس ٩٤٣ — ٩٤٤ والتى انتهت بتخريب ونهب إحدى المدن المركزية بقافقاسيا الإسلامية وهى مدينة (بردعه) فإن المصادر الإسلامية لا تذكر إذا كانت تلك الغارة قد تمت برضا خاقان الخزر أو رغم أنفه . ولا ندرى إذا كانت أراضى الخزر قد أصابها من هذه الغارة مثل الذى أصاب الأراضى الإسلامية ، والغارة الثالثة هى غارة أمير الروس سواتوسلاف فى سنة ٩٦٥ وكان هدفها هو بلاد الخزر نفسها وانتهت بأن خضعت تلك البلاد للروس بعض الوقت ، بما فى ذلك أجزاؤها فى داغستان وهى الأجزاء الواقعة على حدود البلاد الإسلامية ، ولكن الروس لم يتجاوزوا بلاد الخزر ولم يتعرضوا للبلاد الإسلامية ولم يتتبعوا الأهالى الذين فروا إلى شبه جزيرة أبشيرون وهى بلد إسلامى (بالقرب من باكو) ويفهم من قول ابن حوقل — وكان يعيش ذلك الوقت بالجزء الجنوبى الشرقى من بحر الخزر — أن معاصريه كانوا يعتقدون أن الروس قد فتحوا بلاد الخزر كلها وبصفة دائمة ، وكان الفارون يفاوضون الروس لكى يعودوا إلى وطنهم ويعيشوا تحت الادارة الروسية وحتى بعد ذلك لم يعلم ابن حوقل أن الروس قد تركوا تلك البلاد وأن مملكة الخزر قد بعثت من جديد .

وإذا أردنا أن نفهم كيف وقعت هذه الغزوة ، فيجب أن ننظر فى غزوات أسواتوسلاف فى البلاد الأخرى ، كان الهدف من غزات النورمنديين سواء منها ما وقع فى روسيا أو أوربا الغربية هو السلب والنهب وكان السلب أيضاً هو الهدف من الغزوات الأولى لروسيا فى مناطق بحر الخزر ، ثم بدأت هذه الغزوات تصطبغ بصبغة الفتح ولم يكن القصد من الفتح هو ضم البلاد المفتوحة فقط بل كان يراد به التوطن والبقاء فى الأماكن الغنية ، ولما دخل سواتوسلاف فى بلاد بلغار الطونه وكانت أرفع مستوى من روسيا حضاريا واقتصادياً وتجاريا أراد التوطن والبقاء فيها ولم يكن يريد ــ رغم نصائح حاشيته ــ أن يرجع إلى كييف ومن المحتمل جداً

أن يكون سواتوسلاف قد فطن فى أثناء غارته على بلاد الخزر إلى الأهمية التجارية لمدينة اتيل فأعجب بها و بدت له بالنسبة إلى كييف أهم وأغنى وأجدر بأن تكون عاصمة ملكة ، وكان يمكن أن يكون لذلك أثر حاسم فى تاريخ روسيا فلو أن اسواتوسلاف توطن مدينة ايتيل لتأثر الروس بالمدنية الإسلامية . وحينما خرج اسواتوسلاف من بلاد الخزر لم تكن غايته أن يعود إلى وطنه ولكنه خرج إجابة لرجاء امبراطور بيزانطه الذى طلب معاونته على صد بلغارالطونه ، و يبدو أن سفير بيزنطه لم يجد اسواتوسلاف فى كييف ولكن وجده ببلاد الخزر فهل كان اسواتسلاف حين ترك هذه البلاد طامعاً فى بلاد أخرى وعده بها البيزنطيون أم هل خرج باختياره ، أم أنه عانى فشلا فى بلاد الخزر أم خاف عدوًّا آتياً من الخارج ؟ إننا لا نجد عن هذه الأسئلة جواباً لا فى المصادر الروسية ولا فى المصادر البيزنطية ، ولكن المصادر الإسلامية تتحدث عن إشاعات وصلت إلى بغداد فى ذلك الوقت يحتمل أن يكون فيها الجواب . تروى هذة المصادر أن جيشاً تركياً هاجم الخزر سنة ٩٦٥ وهى نفس السنة التى هاجمهم فيها استواتوسلاف وطلب الخزر العون من الخوارزميين ، فاشترط عليهم هؤلاء أن يسلموا فقبلوا الإسلام وعاونهم الخوارزميون وأنقذوهم من استيلاء الأعداء وتذكر المصادر الإسلامية دخول الخزر فى الإسلام فى مناسبة أخرى،و بين أحداث عهد آخر ـ فعلى رواية، أنهم أسلموا نتيجة للغزوات التى قام بها (مأمون) فى بلادهم بعد أن غادر كركانج (حاليا كوهنه أوركانج) ولا شك أن المقصود هنا ليس الخليفة المأمون كما يظن ماركارت ولكن الأمير مأمون بن محمد حاكم كركانج .

ولا شك أن رواية دخول الخزر فى الإسلام كما صورت فى الحادثتين السابقتين تعتمد على شائعات غير صحيحة لأن الخزر ظلوا على دينهم الذى اعتنقه الخاقان والطبقة الاستقراطية فى القرن الثامن الميلادى فى عهد هارون الرشيد وهو الدين اليهودى أى أن اليهودية ظلت ديانة رسمية للخزر حتى انقراض دولتهم . وكان

دخول الخزر اليهودية آخر صفحة من صفحات التبشير اليهودى المذكور فى الأناجيل وعند بعض المؤرخين القدماء ، فبعد ذلك أخذت اليهودية تفقد بالتدريج صفتها كدين عالمى تبشيرى ، واضطرت أن تترك مجالها للمسيحية والإسلام ، وأصبحت كما هى الآن ديناً قومياً للأمة اليهودية فقط حتى إنه ليعد من العجيب أن يدخل فيها شخص من أمة أخرى .

وتقول المصادر الإسلامية أن اليهودية لم تكن ديانة شعب الخزر ، ولكن كانت ديانة الحكومة فقط وأن الحكومة كانت تحمى اليهود ، فلما بلغها مرة أن إحدى الحكومات الإسلامية هدمت معبداً يهوديا ردت على ذلك بأن هدمت فى سنة ٩٢٢ مئذنة إسلامية فى مدينة ايتيل ، ولكن أغلبية الشعب كانت من المسلمين والمسيحيين وكان اليهود أقلية — والآن فما زالت مشكلة القارائيم بالقرم مبهمة ، ما أصلها وما منشأها ؟ لم تكن كلمة قارائيم فى العصور الوسطى اسم شعب ولكن كانت اسم مذهب لفريق من اليهود لم يعترف بالتلمود وهذا هو مذهب قارائيم الذين يعيشون حالياً فى القرم ، وهم يتكلمون التركية وكتبهم المقدسة مترجمة إلى التركية ، ولذلك بقى لسانهم نقياً ، وكان جزء من القرم خاضعاً للخزر ويحتمل أن يكون آخر ملوك الخزر قد عاش فى القرم فى أوائل القرن الحادى عشر ، ومهما يكن فقد كان اسم هذا الملك (جورجى) مما لا يبعد معه أن يكون مسيحياً ، وليس فى المصادر التاريخية أى إشارة إلى دخول الخزر فى مذهب القرائين وتشهد اللغة على أن القارائيم شعب غير الخزر ، وكانت لغة الخزر ـ كلغة البلغار ـ غير مفهومة للترك ، وربما اختلطت بلغة الخطاب التى تمثل لغة الچوواش حالياً آخر بقاياها ، ولكن لغة القرائيم فى القرم ، ولغة كتابهم المقدس (التوراة) لا تختلف كثيراً عن سائر اللهجات التركية ، ولا تمت بأى صلة للغة الچوواش وعلى هذا فإن العلم بأن القرائيم كانوا يهودا وبأن لسانهم كان تركياً لا يكفى لحل مشكلة أصلهم وعلاقتهم بالخزر .

وعلى هذا فإن الإسلام لم يستطع أن يسود فى بلاد الخزر، و إذا صرفنا النظر عن نجاح التبشير الإسلامى أو فشله عنــدهم فقد كانت هناك أسباب تدعو الخوارزميين لمساعدتهم عندما يهاجمهم عدو خارجى؛ فإن وجود الخوارزميين فى خدمة خاقان الخزر ، والضرر الذى يلحق هؤلاء من هجوم الروس كل أولئك كان يدفع الخوارزميين إلى مساعدتهم . ومن أجل هذا يحتمل كثيراً أن يكون خروج استواتوسلاف من بلاد الخزر نتيجة ولو جزئية لتدخل الخوارزميين، أى لهجومهم من الشرق ضد الروس المحتلين ايتيل .

خوارزم وبلغار القولجا :

وتشير المصادر الإسلامية إلى أن بلغار القولجا وهم جيران الخزر كانوا أكثر اتصالا بالمدنية الإسلامية ؛ ففى سنة ٩٢١ وفد على الخليفة المقتدر سفراء من البلغار الذين اهتدوا إلى الإسلام وطلبوا أن يرسل إليهم بعض العسكريين المتخصصين فى بناء القلاع والاستحكامات ، وكذلك بعض العلماء لتدريس الإسلام . وكان بين الهيئة التى أوفدها الخليفة ابن فضلان الذى وصف الرحلة من بغداد إلى بلاد البلغار ثم العودة إلى بغداد مارا ببلاد الخزر . وحتى عهد قريب كانت رحلة ابن فضلان تعرف فقط مما نقل عنها ياقوت فى القرن الثالث عشر ، ولـكن ثبت حديثا أن نسخة من رحلة ابن فضلان موجودة بمكتبة مشهد وهى نسخة تنقصها بضع ورقات من آخرها ، ولـكن أوصافها تلتقى مع تلك التى قرأها وأفاد منها ياقوت .

والظاهر أن ابن فضلان كان هو المـكلف بأن يلقن البلغار تعاليم الإسلام وأنه لم يُعن بالجانب السياسى فى هذه السفارة ، وقد عُيِّن لدى البلغار سفير من قبل حكومة بغداد غير ابن فضلان .

و إذا حكمنا بناء على القسم الذى نشر حتى الآن فإن ابن فضلان لا يتحدث عن المهمة الأخرى وهى المهمة العسكرية ، فلا يتحدث عن الاخصائيين العسكريين

هل أدوا مهمتهم وهل أسسوا القلاع أم لا ، ولا يحدثنا عن هؤلاء البلغار كيف عرفوا الإسلام قبل إيفاد هذه الهيئة . ولـكن وصف طريق الرحلة يجيب جزئياً عن هذه المسألة ؛ فقد قامت الهيئة من بغداد إلى بخارا ثم إلى خوارزم ، ثم إلى بلاد البلغار . ولا يمكن تعليل اختيار هذا الطريق بالذات إلا بأن البلغار اتصلوا بالمدنية الإسلامية أول الأمر بواسطة الولايات التابعة للخوارزميين والسامانيين، وإلا فإن أقصر طريق من بغداد إلى حوض الڤولجا هو طريق قافقاسيا، ولاشك أن العلاقات الثقافية بين البلغار والخوارزميين هي التي جعلت المؤرخين الروس يظنون أن هناك قرابة بين الخوارزميين والبلغار ، وفي نفس الوقت تدل العملة التي سكها البلغار المسلمون في القرن العاشر على تأثرهم بالسامانيين ،ذلك أن هؤلاء السامانيين لم يكونوا يعترفون بالخليفة (المطيع) فلم يكتبوا اسمه على العملة ولـكن ذكروا اسم الخليفة السابق وهو (المستكفي) وقد قلدهم البلغار فسكوا اسم هذا الخليفة على العملة المضروبة في نفس الوقت.

ومع أن العلاقات بين البلغار والخوارزميين كانت سلمية فإن المصادمات كانت تقع بينهم في بعض الأحيان ، وقد كانت غزوات الخوارميين في بلاد (الصقالبة) موطن بحث ، وإنه ليبعد أن يكون السكان في غرب الڤولجا صقالبة حقيقيين وقد كـان ابن فضلان يسمى ملك البلغار (ملك الصقالبة) وكان يمكن اعتبار هذه العبارة خطأ من ياقوت ، ولـكن تبين الآن أن ابن فضلان استعمل العبارة نفسها في نسخته الأصلية .

وأغلب الظن أن بلغار الڤولجا — مثلهم كمثل بلغار الطونة — نتاج اختلاط (الترك — چوڤاش) بالصقالبة ، وذلك مع فرق واحد وهو أن اللسان الصقلبي غالبٌ عند أتراك الطونة ، وأن اللسان (التركي — چوڤاشي) غالب عند بلغار الڤولجا .

وربما كانت مساعدة الخوارزميين قد حمت دولة الخزر لمدة قصيرة من الاندثار نتيجة لاستيلاء الروس عليها ، ولـكن ما كان الخزر ليبعثوا من جديد

بهذه المساعدة فقد انقطع ذكرهم ابتداء من القرن الحادى عشر وعندما أغار المغول فى القرن الثالث عشر لم يلاقوا خزراً ، وقد أفاد بلغار الفولجا أكثر من من الروس من انقراض دولة الخزر. ومع أن ابن حوقل يذكر أن الروس دمروا الخزر والبلغار كليهما فإن الحوليات الروسية لا تذكر شيئاً عن هذا الأمر بل إن الأحداث التى وقعت بعد ذلك لا تتفق مع قول ابن حوقل .

وقد كان البلغار فى المدة بين القرنين الحادى عشر والثالث عشر يبسطون نفوذهم من (ويليكى اوسيتوك) إلى جنوب (ساراتوف) ومن (موروم) إلى حدود (أوفا) .وأما من الناحية السياسية فإن دولة البلغار كانت تعانى — كدولة الروس فى ذلك الوقت — من الانقسام إلى إمارات .

وقد تحدث ابن فضلان عن حاكم البلغار ومع أن هذا الحاكم لم يكن يحمل لقب (خان) مثل حاكم الخزر ، فقد كان أكبر من الحكام الآخرين . ويتحدث أصحاب الحوليات من الروس ، فيما ولى ذلك من عهود ، لا عن حاكم واحد ولكن عن (كنازات البلغار) ومن ناحية أخرى كانت مدنيّة البلغار فى القرن الثالث عشر أرقى منها فى القرن العاشر .

وكان للبلغار — حسب رواية الجغرافيين العرب فى القرن العاشر — مدينة بلغار ومدينة سوار على بعد ٥٠ كيلا . (ويحتمل أن يكون هذا الاسم الأخير اسم قبيلة) والحق أن هذه المدن كانت مضارب بدو أكثر منها مدنا ، كانت عبارة عن أكواخ وخيام من اللبد ، لم تسكن تسكن صيفاً بل كانت تخلو تماما . هذا على حين أن مدينة (بلغار) فى عهد المغول كانت كما تدل خرائبها مبنية بالآجر والحجارة ، وكان بها خمسون ألفا من السكان وكانت تصدر — فى القرن العاشر — منتجات الصين : الجلود والفراء ، وكذلك مقادير كبيرة من الشهد . وتطورت بعد ذلك الدباغة وارتقت وصارت النعال والأحذية من أهم ما يصدر من بلاد البلغار إلى المسلمين (وعن البلغار أخذ الروس صناعة الدباغة)

وكذلك ارتقت الزراعة وكان الروس إذا أقحطوا تداركوا الأمر فاستوردوا المؤن من بلاد البلغار ، وكانت الحروب بين البلغار والروس سجالا — يغلبون ويُغلبون وكانت تحركات الروس تتجه نحو مصب الفولجا ببطء شديد لأن البلغار كانوا يمنعونهم .

وفى القرن الثالث عشر قبيل الغزو المغولى وصل الروس بشق النفس إلى نقطة التقاء نهر (الفولجا) بنهر (أوقا) وهناك أسسوا مدينة (نيزنى ناوغورد) Nijnii--Novgorod ومن ناحية أخرى فليس لدينا مصدر موثوق به يعيّن ويحدّد حضارة البلغار المعنوية .

وعلى الرغم من وجود بعض النقوش البلغارية على بعض القبور التى ترجع إلى العهد المغولى (أى إلى القرن الرابع عشر) فليس فى الممكن معرفة مدى رقيهم الأدبى . وبعد ذلك بقليل سادت اللغة التركية التى كانت منتشرة بين أتراك (آلتون أوردو) فى بلاد البلغار القديمة ، ولا يكاد يحفظ لسان البلغار إلا فى لهجة الجوفاش ، وهم فريق من البلغار لاعلم له بالإسلام ولا بالأبجدية العربية ، وليس له رسم خطّى خاص ، وظل كذلك إلى العهود الأخيرة حيث استعمل الخط الروسى وهو (على العموم) أقل أقسام البلغار اتصالا بالمدنية الإسلامية وتأثراً بها .

تغلغل الإسلام بين الترك :

والآن فإنا نرى من الطريق الذى وصفه ابن فضلان أن الأمم البعيدة عن البلاد الإسلامية كانت تتأثر بالإسلام قبل البلاد ذات الحدود المشتركة مع ديار الإسلام ،وقدرأى ابن فضلان — فى البلاد الواقعة بين بلاد الخوارزميين و بين بلاد البلغار الداخلة فى الإسلام — قوماً من الترك شامانيين يثبتون فوق قبور الموتى من محار بيهم عدداً من الحجارة يعادل عدد الأعداء الذين قتلهم هؤلاء الموتى ، وكانت الأقوام التركية فى آسيا الوسطى فى ذلك الزمان تمثل مستويات مختلفة من

المدنية ، فكان بينهم فريق لم يعرف الأسلحة الحديدية وإنما يستعمل أسلحة من العظام . ويدل دخول البلغار فى الإسلام على أن هذا الدين كان ينتشر بين الأتراك الذين لهم نصيب من الحضارة ، ويروى ياقوت أن الخليفة هشام (٧٢٤ — ٧٤٣) أوفد سفيراً إلى خاقان الترك يدعوه إلى الدخول فى الإسلام وكما لم يذكر ياقوت — مع الأسف — إلى خاقان أى قوم من الترك أوفد السفير ، فإنه لم يذكر أيضاً خط سيره ، وقد نظم الخاقان — كما يروى ياقوت — عرضاً عسكرياً فى حضرة السفير المسلم وقال له « إن قوماً كهؤلاء ليس بينهم صانع ولا إسكاف ولا حلاق ولا حائك ، لن يعيشوا إذا دخلوا فى الإسلام ولزموا أوامره » .

ولا يوجد دليل واحد على الزعم بأن السبب الرئيسى لدخول الترك فى الإسلام هو عسكريتهم وبأنهم كانوا متأثرين بفكرة الجهاد ، وبالجنة التى وُعدها شهداء الحرب .

وكان ظهور التبشير الفردى الإسلامى — سواء فى داخل العالم الإسلامى أو خارجه — مرتبطاً بالتصوف الإسلامى ، فيحكى دائماً فى مناقب الصوفية أنهم استطاعوا إدخال كثير من الكفار فى الإسلام وكان هؤلاء الصوفية يذهبون إلى الصحارى لإدخال الأتراك فى الإسلام ، وقد ظلوا حتى وقت قريب أكثر توفيقاً من العلماء الذين درسوا فى المدارس ، ولم يكن هؤلاء الصوفية — وهم يلقنون الاسلام فى مناطق الاستبس — يتحدثون عن الجهاد وعما يجد الشهداء من نعيم فى الجنة بل كانوا يتحدثون عن الإثم وعن العذاب الأليم فى نار جهنم ، ويؤكد الرحالة الأوربيون فى أواسط آسيا وأفريقيا (وكل منهم مستقل عن الآخر) أن سبب انتشار الإسلام هو الحكايات التى تروى لأهل تلك البلاد عن عذاب الجحيم . ومع هذا فإن الإسلام لم يأت الأتراك بجديد من هذه الناحية فقد كان المبشرون البوذيون والمانويون والنصارى يحدثون الأتراك أيضاً عن العذاب ، وقد نجح

التبشير الإسلامي حتى في الأماكن التي كان سكانها على علم بواحد من هذه الأديان، وكان تفوق الإسلام على الديانات الأخرى يعتمد في ذلك الزمان على تفوق العالم الإسلامي مادياً ومعنوياً على كل البلاد المتمدينة .

وكان البدو في كل وقت بحاجة إلى حاصلات البلاد المتحضرة وإلى الملابس بخاصة ؛ فقد لوحظ في البلاد التي بينها وبين البدو تجارات (الصين والبلاد الإسلامية ثم روسيا أخيراً) أن البدو يحرصون دائماً على استيراد المنسوجات وكانت التجارة مع البدو، مفيدة أيضاً للبلاد المتحضرة لأنها كانت تستورد من البدو الحاصلات الحيوانية وخاصة اللحوم بأثمان منخفضة ، ولكن هذه التجارة كانت أكثر ضرورة للبدو ولهذا كانوا يأتون ومعهم قطعانهم إلى حدود البلاد المتمدينة ولا ينتظرون حتى يذهب إليهم تجار هذه البلاد في الصحراء .

وبينما كان هؤلاء البدو يألفون البضائع الإسلامية ويتأثرون بطراز حياة المسلمين بوجه عام ، كانوا يتأثرون كذلك بالإسلام لا من الناحية الدينية فحسب ولكن من الناحية المدنية بوجه عام .

ولكن الانضمام إلى عالم الإسلام المتمدين لم يكن ممكناً لهؤلاء البدو إلا إذا دخلوا في الإسلام من حيث هو دين ، ومن العوامل على انتشار الإسلام بين الترك خاصة امتاز بها الإسلام على سائر الأديان العالمية ، فعلى الرغم من أن أتباع البوذية وأتباع المسيحية أكثر عدداً من المسلمين فإن الإسلام دين عالمي بمعنى الكلمة أي أنه ليس مقصوراً على جنس أو مدنية ، ولئن كانت بعض الديانات قد بذت الإسلام في هذه الناحية ، فإن توفيقها كان مؤقتاً ولم يستطع الحصول على نتائج دائمة كالتي أحرزها الإسلام ؛ فالديانة المانوية مثلا كانت في وقت ما ديناً عالمياً وكان أتباعها منتشرين في أماكن تمتد من جنوب فرنسا إلى الصين ، ولكن هذه الخاصة لم تمنع المانوية من الاضمحلال الكامل. وقد بدأت البوذية نشاطها

العالمى بحركة دعاية فى الغرب فانتشرت هنالك . ولكنها فى — نهاية الأمر — ظلت ديناً للشعوب المتحضرة فى شرق آسيا فقط .

وقد كان للمسيحية أتباع كثيرون بين الترك حتى بداية انتشار الإسلام ، وفى وقت ما كان لها أتباع فى غرب منغوليا وفى شرقها وجنوبها حتى إن الدعاية الإسلامية لم تستطع أن تكسب شيئاً ، ولكن نجاح المسيحية هذا كان مؤقتاً ، وبقيت المسيحية بعد هذا ديناً أكثر أتباعه من شعوب أوروبا المتحضرة .

وأما المسيحيون غير الأوربيين فإنهم من القلة بحيث لايذكرون إلى جانب مسيحي أوروبا وهم كذلك متخلفون حضاريا ،وإذا كان الإسلام هو دين العالم المتمدين فى غرب آسيا فإن عدد المسلمين فى شرقى آسيا وخاصة فى الهند وجزر (زوند) أكبر من المسلمين فى غرب آسيا ، وأما فى الصين فإن المسلمين قوة مستقلة ولهم أدبهم الدينى الخاص . ولا حاجة بهم إلى أية مساعدة من الخارج ، ذلك ، على حين أن مشروع المسيحيين بالصين لتكوين المسيحية القومية بالصين قدباء بالفشل ، وكذلك لم تستطع المسيحية فى أفريقيا أن تصنع مثل ماصنع الإسلام وهاقد نجحت الدعوة الإسلامية منذ القرن التاسع عشر فى بلد له وحده فى كل أفريقيا كنيسة قومية وهو الحبشة .

وفى التاريخ أمثلة كثيرة لأمم بوذية أو مسيحية تركت دياناتها ودخلت فى الإسلام ولكنا لا نجد أمة إسلامية واحدة تخلت عن دينها ودخلت فى البوذية أو المسيحية .

أول مملكة تركية
إسلامية: القراخانيون

وكان النصر الثانى الذى أحرزه الإسلام بعد أن أسلم بلغار الفولجا هو إسلام عدد من الترك يبلغ مائتى ألف خيمة (أسرة) وذلك فى سنة ٩٦٠ أى بعد أربعين عاما من عودة سفارة المسلمين من بلاد البلغار إلى بغداد ، وقد سُجِّل

هذا الحادث فى كتاب واحد مكتوب ببغداد ، ولم يرد عنه شئ فيما كتب ببلاد السامانيين ولا فى كتب جغرافيي العرب و إليكم السبب فى غموض هذا الخبر وفى انعدام المعلومات عن هؤلاء الترك : من هم ، وما المكان الذى يعشون فيه .

ورد فى بعض كتب المناقب التى وضعت متأخراً فى آسيا الوسطى (وهو كتاب أخذ عن أقدم الكتب التى حررت فى هذا الموضوع فى القرن الحادى عشر ، ولكنه حرر فى القرن الرابع عشر) أن خان الترك الذى دخل الإسلام هو (ساتوق بغراخان عبد الملك) ، وهو ينتمى إلى الأسرة التى قضت على السامانيين فيما وراء النهر فى نهاية القرن العاشر . وأقدم رواية وردت بهذه الكتب بخصوص بغراخان ودخوله فى الإسلام رواية أسطورية ، وقد زاد العنصر الأسطورى فى هذه الرواية فى الكتب المسماة (تذكرة بغراخان) والمنتشرة الآن فى آسيا الوسطى .

فإلى أى قبائل الترك تنتمى أسرة بغراخان ؟ إن المراجع الجغرافية والتاريخية، لا تجيب عن هذا السؤال . وأما العلماء الروس ابتداء من جريجوريف فإنهم يطلقون على بغراخان لقبه الآخر (قاراخان) وأما كتب غرب أوروبا فتستعمل لقب (إيليك خان) وهو تعبير غير موفق لأن استعمال لقب (ايليك) مع لقب (خان) نادر و إن كان قد ورد فى بعض الأحيان . و بالإضافة إلى هذا فإن كلمة (إيليك) لم تكن تطلق على كل خانات تلك الأسرة .

فى أى وقت ظهرت دولة القاراخانيين ، و بأى هجرات الأقوام التركية يتصل هذا الظهور و إلى أى قبيلة ينتسب الخانات ؟ إن هذه المسائل لم تتضح تماما حتى بعد أن اكتشف كتاب محمود الكشغرى و نُشر ، وقد حُرّر هذا الكتاب بعد أن قويت دولة القاراخانيين واستتب أمرها فلم يُعْنَ بما مضى من مشكلات .

وكان جغرافيو العرب حتى أولئك الذين كتبوا بعد سنة ٩٦٠ لايعلمون أن دولة تركية مسلمة قد قامت على حدود دولة السامانيين ، وذلك لأن هؤلاء الجغرافيين كانوا ينقلون عن كتب قديمة حررت فى عهود سابقة .

ومع هذا فبالإضافة إلى الاشارات التى يمدنا بها جغرافيو القرنين التاسع والعاشر القائلون بأن القارلوق يشغلون دائما المنطقة الواقعة بين الغز والتغزغز ، بالإضافة إلى هذا نجد فى مصادر عربية أخرى — معلومات أوسع عن نظم تلك البلاد السياسية والقومية . وقد وصلتنا روايات هذه الكتب بطريق كتابين فارسيين الأول مجهول المؤلف كتب سنة ٣٧٢ هـ (٩٨٢ — ٩٨٣ م) ويُنسب إلى مكتشفه وهو (تومانيسكى) فيقال (مخطوطة تومانسكى) وأما الثانى فكتاب حرره الكرديزى فى القرن الحادى عشر بعد سنة ١٠٤٠ ، ويبدو أن مابهذين الكتابين من معلومات يرجع إلى عهد أحدث من عهد ماورد بالمصادر العربية المحررة فى القرن العاشر ، ومع هذا فإن هذين الكتابين أيضاً لايصوران الاماكن تصويراً دقيقاً ، بل ربما كانت معلوماتهما راجعة إلى عهود مختلفة ، ولذلك فإنا لانستطيع التوفيق بين ماجاء بأحدهما وما جاء بالآخر ، ولا بين ذلك كله و بين ماقال الكاشغرى عن تقسيمات أقوام الترك .

و يؤخذ من مخطوطة (تومانسكى) ومن كتاب الكرديزى أن قبيلة (ياغما) التى ظهرت بين (التغزغز) سكنت فى جزء من المنطقة التى كان يسكنها القارلوق، كما يروى جغرافيو العرب فى القرن العاشر ، وكان هؤلاء ال (ياغما) يملكون كاشغر والمنطقة الواقعة جنوب نهر (نارين) المتفرع من (سيرداريا) فإذا كان توطن ال (ياغما) لتلك المناطق يرجع إلى عهد أحدث من روايات الجغرافيين العرب ، وإذا كان هؤلاء التغزغز قد جاءوا من الشرق فإنه يمكن عندئذ رفض مازعمه الجاحظ من أن التغزغز كانوا بعد دخولهم فى المانوية يغلبون أمام القارلوق .

وكانت دولة القاراخانيين مرتبطة ارتباطا وثيقا بكاشغر ، وكانت هى العاصمة ولذلك سموها (أوردوكنت) أى (المعسكر الملكى) كما يقول محمود الكاشغرى.

وكان يمكن أن نستنتج من هذا أن القراخانيين ينتمون إلى الشعب الذى كان يسكن فى كاشغر ، أو أنهم بعبارة أخرى — ينتمون إلى (ياغما) التى تنتمى بدورها إلى التغزغز أو الأويغور ، ولكن محمود الكشغرى لا يشير إلى شىء من هذا ولا يذكر (ياغما) إلا بوصفهم قوما كانوا يعيشون فى أيامه شمالا فى وادى نهر إيله [Ili] ويقول الكشغرى أن شعبى (توخسى) و (بچيكيل) وشعوبا أخرى كانت تعيش كذلك فى وادى نهر إيله ، ويتبين من مخطوطة تومانسكى ومن كتاب الكرديزى أن هذه الشعوب كانت تسكن إلى الجنوب؛ فأولها ,وهو شعب توخسى كان يسكن شمال حوض نهر چو ، وثانيها ,وهو شعب جيكيل كان يسكن على الساحل الشمالى لبحيرة إيصيغ ، وفى القرن الحادى عشر كان اسم (چيكيل) يطلق على عدة أقوام تركية بعد أن كان قد نُسى . وفى عهد ملكشاه السلچوقى كان هذا الاسم يطلق حسب بعض الروايات على جيش القراخانيين إبان غزو هذا السلطان لبلاد ماوراء النهر .

ويروى الكاشغرى أن الغز كانوا يطلقون كلمة (چيكيل) على أقوام الترك المنتشرة من نهر جيحون إلى الصين ، وكان يمكن أن يستنتج من هذا أن للأتراك الجيكيل وضعاً سياسياً هاماً فى آسيا الوسطى، وأن القراخانيين ينتمون إليهم، ولكنا لا نجد لدى محمود الكشغرى ما يثبت هذا الفرض . ويوضح الكشغرى أهمية كلمة (چيكيل) بالنسبة للغز بأن مدينة (چيكيل) المجاورة لمدينة (أوليا أتا) الحالية والتى يسكنها فرع من فروع چيكيل لها حدود مشتركة مع الغز ، وبأن هؤلاء الغز قد وقفوا مبكراً على أسباب الحضارة بسبب وقوع هذه المدينة إلى أقصى الغرب من المدن التركية .وكان فرعان آخران من الچيكيل يعيشان فى قريتين تقعان إلى جانب كاشغر وإلى جوار مدينة (قوباس) الواقعة فى وادى نهر إيله . وقد اشتهرت هذه المدينة فى عهد المغول لأنها كانت عاصمة لچغتاى بن جنكيزخان ولبعض خلفائه ،

ويكتفى محمود الكشغرى فى حديثه عن القارلوق بأن يقول إنهم بدو وإنهم كانوا يسمون — مثل الغز — بالتركان .

وأما فى مخطوطة تومانسكى وكتاب الكرديزى فيذكر أن القارلوق (ويسميهم المؤلفون الفرس خلّخ) قوم يعيشون على حدود البلاد الإسلامية، قريباً من مدينة طراز من ناحيـــة الشرق . وكان بعض مدن تركستان الصينية تابعا كذلك للقارلوق ومن بين هذه المدن مدينة پنچول Pentchoul المسماة بالصينية (وين— صو) والواقعة إلى جوار (اوچ طورفان) Utch Tourfans الحالية وتقول مخطوطة تومانسكى إن هذه المدينة داخلة فى بلاد القارلوق ولكن حاكمها يخضع للتغزغز ، ويقال أيضاً إن القيرغيز استولوا عليها فيما بعد ، وتقول نفس المخطوطة إن مدينة كاشغر كانت على حدود بلاد القيرغيز والقارلوق والتغزغز .

وهذا الذى تقوله مخطوطة تومانسكى جدير بالتدقيق فيه يمكن القول بأن هجرة القيرغيز إلى الجنوب أى إلى الأماكن التى يسكنونها الآن لم تكن بعد القرن العاشر ، ولكن لا الكرديزى ولا الكشغرى ولاغيرهما من المراجع يذكر شيئاً عن هذا الموضوع .

وقد ذكر الكشغرى أن جيكيل وياغما نقلوا مساكنهم نحو الشمال، ولم يقل مثل ذلك عن القارلوق ، ومع هذا فإننا نرى فى عهد جنكيزخان بلاداً للقارلوق فى شمال نهر إيله .

والخلاصة أن محمود الكشغرى يذكر ثلاثة الأقوام التى يمكن أن نفرض انتماء أسرة القراخانيين إلى أحدها ، ولكنه لا يبين أى هذه الأقوام كان أقرب قرابة لهذه الأسرة . وأما قول الكشغرى إن القارلوق كانوا يسمون مثل الغز تركمان فقول يحتاج إلى تدقيق ؛فإن كلمة تركمان (وقد وردت لأول مرة فى كتب القرن العاشر الميلادى) مازالت مجهولة الأصـــل والمنشأ ، وعلى أى حال ،

فلا يوثق بقول الكشغرى إن أصلها هو الكلمة الفارسية (ترك مانند) أى أشباه الترك .

وكل ما يمكن قوله هو أن سمات التركمان مخالفة لسمات سائر الترك ومشابهة لسمات الإيرانيين .

وقد تأثر القارلوق بالإيرانيين أكثر مما تأثر بهم الغز وكانوا — إلى أن قبلوا الإسلام — أكثر اتصالا بالمدنية الإسلامية من غيرهم من الترك .

وفى القرن الثانى عشر كان الحاكم القراخانى لمدينة بالاساغون الواقعة فى (يدى صو) يسمى (توركمن) ويمكن أن يكون ذلك دليلا على أن هذه الأسرة كانت تنتمى إلى قبيلة قارلوق .

وكانت مدينة (بالاساغون) مدينة إسلامية منذ سنة ٩٤٠ وذلك حسب رواية لنظام الملك وهو وزير إيرانى معاصر لمحمود الكشغرى ، وقد أعلن المسلمون الجهاد حين سقطت هذه المدينة فى أيدى الكفار ، ويحتمل أن يكون القارلوق قد دخلو فى الإسلام قبل (ياغما)، وأن خانات الياغما اعتنقوا الإسلام بعد استيلائهم على بلاد القارلوق — التى كانت تشمل نهر وادى جو — حيث توجد فيما يظن مدينة بالاساغون ، ولكن كل هذا لايعدو أن يكون فروضاً لاتؤيدها الأسانيد .

ويعد ساتوق بغراخان وهو أول من أسلم من خانات الترك حاكما لكشغر، وقبره فى قرية (آرتيش) شمال كاشغر [وفى المصادر القديمة آرتوج] وقد توفى هذا الخان — بحسب أقدم الروايات عن حياته — فى ٣٤٤/٩٥٥—٩٥٦ وهو تاريخ لايتفق مع الرواية الخاصة بدخول قوم من الترك فى الإسلام فى سنة ٩٦٠ ويحتمل أن تكون هذه الرواية الأخيرة قد أخذت من كتاب ثابت بن سنان مؤرخ بغداد ، الذى حرر كتابه فى ذلك التاريخ (سنة ٩٦٠) ويجب أن يكون

التاريخ الذى يذكره أولى بالثقة من التاريخ المذكور فى حكاية إسلام ساتوق بغراخان حيث يوجد عدم التوافق التاريخى .

وفى نفس القرن العاشر أسلم قسم من الغز ، وهو القسم المقيم عند مصب نهر سيرداريا ، وافتتح خان الغز عهده بالإسلام بأن حرر المدن الإسلامية التى كانت تدفع الجزية للكفار حتى ذلك الوقت ، وقد قوبل دخول قومين من الترك فى الإسلام وهما القراخانيون والغز بوصفه نصراً للإسلام ، وهكذا صار للولايات الإسلامية الواقعة على الحدود جيران مسلمون فى الشمال والشرق ، وظُن أن المسلمين وجدوا حلفاء ينضمون إليهم فى صراعهم ضد غير المسلمين ، ولكن العكس هو الذى حدث ؛ فإن هذين القومين اللذين أسلما وجها أسلحتهما ضد الولايات التى جاءهم منها الإسلام وسنبين أسباب ذلك ونتائجه فى المحاضرة القادمة .

المحاضرة الخامسة

آسيا الوسطى فى
القرن الحادى عشر

لم يصلنا من المؤرخين المسلمين خبر واحد جدير بالثقة عن إسلام (بغراخان) خان كاشغر ، ولكننا نرى فى كتب التراجم اسم فقيه عاش بسرايه حوالى سنة ٩٦٠ وهو الفقيه (كلماتى) وفى ذلك التاريخ دخل كثير من الترك فى الإسلام كما تروى تواريخ بغداد ، وفى رواية قديمة بإحدى تراجم بغراخان أنه أسلم بناء على أمر نزل عليه من السماء أثناء النوم . ولم تتحدث هذه الرواية عن أى مرشد من البشر ، ولكن رواية أخرى قد تحدثت عنه ، ولم يكن المرشد حسب هذه الرواية الأخيرة فقيهاً بل كان أميراً سامانياً فر والتجأ لدى خاقان الترك ، ويضاف إلى ذلك جملة أسماء خيالية وإن تكن مأخوذة عن مؤرخ كاشغرى عاش فى القرن الحادى عشر ولم يصل إلينا أثره . ومما يلفت النظر فى هذه الرواية نظرة الخاقان الخاصة إلى أموال المسلمين وثروتهم ودينهم فقد أعجب أولا ببضائع التجار المسلمين وخاصة المنسوجات والحلوى ثم عنى بعد ذلك بعبادة المسلمين وبدأ يدرس الإسلام .

ولقد رأينا فيما مضى أن المدينة التى أقام فيها الخان الذى اعتنق الإسلام وهو (ساتوق بغراخان) هى مدينة كاشغر وقد توطن حفيده بغراخان هارون ابن موسى فى بالاساغون ومن هناك حاول فتح ماوراء النهر ، وبعد ذلك كانت مدينتا كاشغر وبالاساغون تذكران معاً بوصفهما مدينتين تحت حكم أسرة القراخانيين غالباً ، ومن اللافت أن مدينة بالاساغون — بصرف النظر عن أهميتها فى عهد القراخانيين — لم تذكر فى الكتب الإسلا

إلا نادرا . ولا يوجد طريق واحد يمكننا من تعيين موقع بالاساغون الجغرافى ، ولم يذكر هذه المدينة من بين جغرافيي القرن العاشر إلا المقدسى . وأما مخطوطة (تومانسكى) وكتاب الكرديزى فلم يذكرا اسمها ، وربما كان لها اسم آخر قديم كانت تذكر به فى أوصاف المسالك عند جغرافيي القرنين التاسع والعاشر .

وتذكر مدينة (صو — ياب) فى المصادر العربية والصينية بوصفها كبرى المدن بحوض نهر چو ، ولا يذكر محمود الكشغرى هذا الاسم ، ولكنه يذكر قلعة قريبة من بالاساغون اسمها (شو) بناها ملك اسمه (شو) ويقال إنه كان معاصراً للإسكندر الأكبر . ويقال أيضاً إن ذلك كان قبل أن توجد مدن اسفيجاب = (سيرام) أو طراز أو بالاساغون ومن المعلوم أن حرف ال (چ) ينطق (ش) عند القيرغيز فإذا أرادوا أن يقولو (چو) قالوا (شو) وقد سمع رادلوف اسم هذا النهر هكذا : (شو) ومن المحتمل أن الترك الذين كانوا يعيشون بحوض ذلك النهر كانوا ينطقون الكلمة مثل نطق القيرغيز .

وفى الأزمنة الأخيرة لم تكن كلة (چو) تطلق على النهر وحده بل كانت تطلق كذلك على خرائب المدن التى تقع فى واديه والتى لم يبق منها إلا برج (بورانا) .

ويحتمل أن تكون كلمة (بورانا) تحريفاً للكلمة العربية (منارة) ، وذكر محمود الكشغرى فيما بعد ممر زانبى الواقع بين قوچقار باشى . (وقد كتبت فى النسخة المطبوعة قچنكار وترجمت إلى العربية بكلمة الكبش) وبين بالاساغون ، وكانت المصادر الفارسية أول المصادر التى ذكرت كلة (قوچقار باش) بوصفها اسم مدينة وكان يبحث عنها أول الأمر

فى شرقى (طالاس) ولـكن من المحتمل أن تـكون هذه المدينة واقعة فى المجرى الأعلى لنهر قوچقار وهو عبارة عن المجرى الأعلى لنهر جو . أما ممر زانبى الذى يلفت النظر بأن اسمه غير تركى فليس إلا الممر المعروف باسم (شمسى) الذى نسج حوله الأتراك المحليون كثيراً من الأساطير .

ولم يحدد بعد أصل كلمة بالاساغون ، وقد كان يظن أن اسم المدينة عبارة عن الـكلمة المغوليه بالغاسون بمعنى (المدينة) وقد قل عدد أنصار هذه الفـكرة .

ويذكر محمود الـكشغرى أن كلمة (آتاساغون) بمعنى الطبيب وهى مركبة من كلمة (آتا) بمعنى (أب) بالتركية والآن هل يمـكن أن تـكون كلمة بالاساغون مركبة من كلمة (بالا) بمعنى (الطفل) ؟ وإذا كانت كذلك فماذا يكون معناها ؟ هذه أيضاً مشكلة ، ويسمى الترك مدينة بالاساغون أحياناً (قوزاولوش) وكلمة (أولوش) بمعنى القرية أو المدينة ، وأحيانا (قوزاوردو) وإلى جانب بالاساغون يذكر المقدسى وهو من جغرافيي القرن العاشر مدينة أخرى اسمها (اوردو) وكانت عاصمة لحاكم التركمان فى تلك النواحى . ولا يوضح محمود الـكشغرى كلمة (قوز) الداخلة فى كل (قوز أوردو) .

ومدينة بالاساغون إحدى المدن التى بناها الصغد ولم يكونوا حتى زمان محمود الـكشغرى قد تتركوا تماماً ، وكان أهالى اسفيجاب وطاراز وبالاساغون يتـكلمون الصغديه والتركية .

وكان الصغد فى تلك المناطق يسمون — كما ورد بنقوش أورخون — (صوغداق) ويرى المؤلف أن الشعب الصغدى الذى نشأ بين بخارى وسمرقند يسمى صوغداق ، وكان يتخلق بأخلاق الترك ويتزيى بأزيائهم .

وكان المـكان الواقع بين اسفيجاب (وفى رواية طاراز) وبين بالاساغون يسمّى (آرغو) وهو اسم لم نجده فى أى مصدر آخر ، ويقول الـكشغرى إن كلمة

(آرغو) تطلق على الممر بين الجبلين . ومن الظاهر أن تلك المنطقة سميت آرغو لوقوعها بين سلسلة جبال (آلكساندروفسكى) = (جو — طالاس) وسلسلة جبال (جو — ايله) ولا يذكر هل كان الصغد يوجدون فى شرق بالاساغون أولا يوجدون ، ومهما يكن فقد كان صغد بلاد آرغو مسلمين فى زمان الكشغرى ، ولا ندرى هل أسلم هؤلاء قبل الترك أو بعدهم ، ولا نعرف كيف ظهر أثرهم على الترك من ناحية اللسان والمظهر قبل أن يصبحوا هم أنفسهم تركا .

ونستطيع أن نطرح هذه الأسئلة نفسها بخصوص الشعب الذى كان يسكن تركستان الشرقية قبل الترك ، وبخصوص السكان المتحضرين من غير الأتراك بذلك الإقليم ، وقد استطعنا أن نعرف من محمود الكشغرى وحده أن هؤلاء السكان كانوا يعتبرون فى زمانه مستقلين وكانوا يسمون كنجاك ، وهذا اسم لا يوجد فى أى مصدر آخر ، وكانوا فى زمانه قد تتركوا ولكنهم كانوا يحتفظون ببقايا لغتهم مع بعض فروق فى النطق فكانت لهم لذلك خصائص فى النطق ، وكانوا إلى هذا يستعملون مجموعة من ألفاظ لغتهم القديمة .

الاقاليم السامانية القديمة :

وكان الترك الزاحفون فى نهاية القرن العاشر لفتح بلاد السامانيين (الواقعة على حدود بلاد الايرانيين المسلمين) ينطلقون من بالاساغون لامن كشغر (أى أن كاشغر لم تكن قد أصبحت مركزاً لأغلبية الأتراك) ويُروى أن أول مدينة فتحها (بوغراخان هارون) حفيد ساتوق بغراخان هى مدينة اسفيجاب وكانت بها من غير شك مستعمرة صغيرة تركية أو إمارة صغيرة تحكمها أسرة تركية .

وفى سنة ٩٢٢ قام بغراخان هارون بأولى غزواته لبخارى وسمرقند ولكن الأتراك اضطروا — رغم نجاحهم — إلى التراجع بعد مدة قصيرة إلى بالاساغون ، وفى نفس السنة مات بغراخان . ولكن بعد بضع سنين انتقلت كل المناطق

الواقعة شمال زرافشان من أيدى السامانيين إلى أيدى القراخانيين ، وذلك بموجب معاهدة . وفى ٩٩٩ احتل القراخانيون سمرقند وبخارى من جديد . ومع أن آخر أمراء السامانيين (فى أوائل القرن الحادى عشر) . حاول بعث حكم الأسرة السامانية ، فإنه فشل ولم يستطع أن يقوّض دولة الترك التى استقرت فى بلاد ماوراء النهر ، ولم يفلح السامانيون فى دفع الجماهير بإيران إلى الذود عن الدولة الإيرانية ضد العدو الخارجى حتى لقد أعلن بعض العلماء المسلمين أن الحرب لاتكون فرضاً إلا إذا أراد الكفار الاستيلاء على بلد إسلامى وكانوا يقولون أيضاً إن من العبث الظن بأن أحوال الأهالى ستكون تحت حكم القراخانيين —وهم مسلمون — أسوأ منها تحت حكم السامانيين ، ولذلك فلا داعى لأن يريق المسلمون دماءهم .

ولم يكن من الممكن تنظيم مقاومة جماعية بين الإيرانيين والأتراك ببلاد ماوراء النهر ، ولم تكن أواسط آسيا (الإيرانية) قد حُكمت قبل الاسلام بيد ملك قوى بل كانت السلطة كلهافى أيدى أصحاب الأراضى من الطبقة الأستقراطية وكانت البلاد تنقسم إلى عدة إمارات يحكمها أصحاب الأراضى هؤلاء وكان كل واحد منهم يسمى (دهقان) وكان بعض هؤلاء الأمراء يفقد الحكم بعض الوقت وكانت طبقة الدهاقين هذه الايرانية تؤثر حضارياً على الترك فى بعض الأحيان ، حتى لقد كان بعضهم يحمل ألقابا تركية . وفى العهد الإسلامى بدأت النزعة لتكوين طبقة أرستقراطية تضعف فى إيران وفيما وراء النهر وكان هذا الضعف يمضى عكسيا مع رقى حياة سكان المدن ، ومع تقوى السلطات المونارشية ومع التمركز البيروقراطى .

وكما حلت الفارسية محل اللهجات المحلية ، فكذلك تغلغلت نظم الحكم الساسانية فى آسيا الوسطى ولذلك كان السامانيون ينسبون أنفسهم لأسرة

الساسانيين . وأيقظت نزعة الاستبداد عند السامانيين فكرة التمرد عند الطبقة الأرستقراطية المحلية .

وآية هذا أن إحدى الروايات تقول أن بغراخان جاء إلى بلاد ما وراء النهر استجابة لدعوة الدهاقنة المحليين، ولدينا أدلة على أن الدهاقين قد استفادوا بعد أن فتح الترك تلك البلاد . ويُفهم من قول المقدسى أن هؤلاء الدهاقين كانوا يحتفظون فى أواخر القرن العاشر بميزاتهم الاقتصادية فى إيلاق الواقعة فى حوض نهر (آنكرن) فى جنوب طاشقند ، ولكن لم تكن لهم أهمية سياسية، وقد رؤيت عملة مسكوكة — فى عهد القاراخانيين — باسم دهقان إيلاق وذلك يدل على أن حقوقهم السياسية كانت قد بعثت .

ولم يُقم القراخانيون (مع استيلائهم على بلاد ما وراء النهر) فى العواصم القديمة لتلك البلاد ، لا فى بخارا عاصمة السامانيين ولا فى سمرقند ولكن اتخذوا من مدينة (اوزكندى) — وهى إحدى مدن الحدود القليلة الأهمية الواقعة إلى الشرق من فرغانة — مركزاً لهم ، ومن الواضح أنهم كانوا يعتبرون هذه المدينة المتاخمة لحدود بلادهم القديمة آمن وأقل خطراً من البلاد الواقعة فى قلب البلاد ، والواقع أنه بعد بضع سنين من فتح تلك البلاد ظهرت علامات حركة شعبية موالية للسامانيين . وعلى الرغم من أن هذه المدينة كانت موجودة بتلك البلاد قبل أن يفتحها الترك فقد كان اسمها تركيا وهو (أوزكنت) وقد فسرت هذه الكلمة اعتباطا بأن معناها (مدينتنا) وقد سميت عاصمة الجزء الشمالى من بلاد ماوراء النهر — حيث كان العنصر التركى أكبر أهمية منه فى الجنوب — باسم تركى هو (بينكه ت) ولكن هذه الكلمة : بينكه ت (بينكت) استبدلت منذ القرن الحادى عشر كما يحدثنا البيرونى بكلمة (تاشكه نت) بمعنى (طاش + شهر) أى المدينة الحجرية وقد حُوول تعليل استعمال كلمة طاش أى (الحجر) مع أن الحجر لا يكاد يوجد بتلك المنطقة ولم تنجح هذه المحاولات .

ويذكر محمود الكشغرى أن الشعب هناك يختصر هذه الكلمة وينطقها (تَرْ كَنْ) ونرى عند الكشغرى اشتقاقا شعبياً لكلمة سمرقند أيضاً فقد قيل إن أصلها يرجع إلى (سه ميز كنت) أى المدينة الغنية .

وإذا كان القراخانيون لم يقيموا فى بخارا وسمرقند فذلك لا يدل على أنهم تخلوا عن فتح البلاد الغربية التى أمدتهم بالدين وبالثروة المادية . فقد كان التقدم نحو الغرب أجدى من الحرب مع غير المسلمين من الترك المقيمين فى الشمال وفى الشرق ، ومع أنه كان بين المسلمين من ينتظر وصول الترك ، ويرى فيهم حلفاء وأنصارا ، فإن العنصر الدينى لم يستطع أن يغير اتجاه الفتوحات التركية . ولما كان الأتراك حديثى العهد بالإسلام فقد كانوا أخلص من الحكام المسلمين فى ولايات غرب آسيا ، حتى إن رجال الدين فى القرن العاشر كانوا ينتظرون ظهور الفاتحين المسلمين السنيّين فى الشرق ، ليجهزوا على حكم البويهيين الشيعة الذين استبدوا بكل الأمور فى بغداد . وكان مثل الأتراك فى المشرق كمثل البربر فى المغرب ؛ فكان الأتراك يدافعون عن رجال الدين فى البلاد التى يصطدم فيها هؤلاء الرجال بالحكومة ، ويروى محمود الكشغرى حديثاً قدسياً معناه : إن لى فى الشرق جنوداً يسمون الترك فإذا غضبت على قوم سلطتهم عليهم .

إيران وتوران :

وامتاز القراخانيون بأنهم حكام مسلمون متقون فلم يشرب منهم أحد الخمر وهكذا كانوا مختلفين عن الغزنويين الذين ورثوا ملك السامانيين فى حكم البلاد الواقعة جنوب نهر جيحون ، والذين لم يكونوا — مع أن أصلهم تركى — على صلة بحركات الشعوب التركية الأخرى .

ويعدّ محمود الغزنوى صاحب دين ، وقد أعلن الجهاد فى بلاد الهند . وتعقب الرافضة فى بلاده ، ولكنه فى حياته الخاصة لم يكن يتحرج من تعاطى المحرمات .

ولم يكن فى نية القراخانيين أن يقفوا عند آموداريا ، بل لقد ساقوا الجنود إلى بلاد محمود الغزنوى . ويروى مؤرخ الغزنوى بهذه المناسبة حديثا نبويا عن الترك وصفوا فيه بأنهم ضيقو العيون ، فطس الأنوف ! وهذا الحديث دليل على خطأ القول بأن الترك لا ينتمون فى الأصل إلى المغول .

ومن المحتمل أن تكون الحروب ضد الترك قد نُظر إليها فى داخل إيران من ناحية التقاليد القومية الإيرانية .

وفى أثناء الحروب ضد القراخانيين ظهرت شاهنامة الفردوسى وكانت قد ألفت فى عهد السامانيين ، ولكن اشتهرت فى عهد محمو الغزنوى ، وفى الشاهنامة كثير عن الصراع بين إيران وتوران (أى بلاد الترك) .

وكانت كلمة توران تطلق منذ ظهور الترك أى منذ القرن السادس الميلادى على تركستان (أى بلاد الترك) وعلى الرغم من أن الأبطال التورانيين الذين اشتركوا فى ذلك الصراع كانت أسماؤهم إيرانية فقد صوروا بوصفهم أبطالا أتراكا .

ولم يتأثر القراخانيون بالإسلام فحسب بل تأثروا أيضاً بالملاحم الإيرانية ، ولذلك كان من السهل أن تطبَّق عليهم التقاليد التورانية القديمة التى لا تمت للأتراك بصلة . وبسبب تأثرهم بالملاحم الايرانية نسبوا أنفسهم لبطل توران الأسطورى أفراسياب وتسموا (بآل أفراسياب) وهو تعبير غير تركى ، ونعلم من محمود الكشغرى أن البطل التركى (آلب تونغا) كان (كما ورد فى الأغانى التركية) هو أفراسياب بعينه وقد نقل محمود الكشغرى بعض هذه الأغانى وأورد ترجمتها العربية كعادته .

ووضع فى الترجمة العربية كلمة (أفراسياب) فى مكان كلمة (آلب تونغا)

فى النص التركى . وتنسب الروايات الفارسية الخاصة بآفراسياب كثيراً من بطولاته إلى أماكن مختلفة بشرق تركستان ، فعاصمة آفراسياب مثلا هى مدينة كاشغر .

وكان ينسب إلى آفراسياب تأسيس مدينة (بارجوق) وهى عبارة عن مدينة (مارال باشى) الحالية . ويروى أن (بيزن) = (بيژن) الذى تزوج أخت أفراسياب سراً — حسب القصة الفارسية — والذى ألقى من أجل ذلك فى بئر بأمر آفراسياب ثم أنقذه رستم ، يقال إن هذا الشخص قد سجن فى (بارچوق) . وقد أدخل (الفردوسى) وسلفه (دقيقى) وهو من رجال العهد السامانى خصائص الأتراك المعاصرين لهم فى حكاياتهم عن التورانيين الأسطوريين وهذا أمر طبيعى ، وإلى تلك الجهة يرجع أسماء بعض المدن وبعض أقوام الترك كما يرجع إليها أيضاً الخط التركى المعروف باسم (پيغو) . وكلمة (پيغو) فى الخط المسمى الآن (خط پيغوى) عبارة عن تحريف لكلمة (يابغو) المذكورة فى نقوش أورخون على أنها اسم منصب تركى ، وقد كان حاكم القارلوق يحمل هذا الاسم .

ولم تكن الحروب ضد الغزنويين مفيدة للقراخانيين ؛ فقد كانت خسائرهم فادحة فى كل هجماتهم التى باءت جميعها بالفشل . واستولى محمود على بعض الولايات فى شمال جيحون فقد كان من آماله أن يعترف به حاكما على الشرق وألا يتصل القراخانيون بالخليفة إلا بواسطته . ومع هذا فقد كان محمود يعتبر القراخانيين فى اتصالاته بهم مساوين له . ويدل على ذلك ما يرويه الكرديزى عن مقابلة محمود الغزنوى فى جنوبى سمرقند مع قدرخان يوسف ابن بغراخان ملك كشغر سنة ١٠٢٥ .

تركستان الشرقية

وتتحدث المصادر التاريخية عن أحد فتوح القراخانيين فى شرقى تركستان ، وهو فتح ختن الذى قام به قدرخان يوسف الذى أشير إليه آنفاً ، والمتوفى سنة ١٠٣٢ .

ولم يرَ الاسلام حسب آخر معلوماتنا يُنشر فى تركستان بقوة السلاح إلا فى هذه الموقعة ، ذلك أن الأتراك المسلمين فتحوا مدينةً كانت البوذية قد تطورت بها وتكاملت . وفى إحدى روايات الكرديزى عن ختن قبل هذا الفتح إشارة إلى أنه كانت بها كنيسة للنصارى وبعض المقابر للمسلمين دلالة على أن المسلمين كانوا هناك قبل الفتح مع وجود البوذية .

ومما يلفت النظر أن حكام الأتراك الكفار كانوا — مثلهم كمثل القراخانيين المسلمين — يتصلون بمحمود الغزنوى فيروى الكرديزى أن خانين تركيين أرسلا السفراء فى سنة ١٠٢٦ هـ يطلبان الإصهار إلى الأسرة الغزنوية (ومع أن ألقاب هذين الخانين مذكورة فى مخطوطة الكرديزى الوحيدة الموجودة بكمبردج ، والتى نقلت عنها نسخة أكسفورد فإن هذه لم يمكن قراءتها) .

وأجاب محمود الغزنوى : إن المسلمين لا يزوجون بناتهم للمشركين فإذا أسلم الخانان قبلنا رغبتهما .

فهل كان هذان الخانان منسوبين إلى عائلة القراخانيين ، أى هل كان من القراخانيين من لم يقبل الإسلام بعد ؟ وأين كانت حكومة كل منهما ! ؟ لا تذكر المخطوطة شيئاً عن هذا مع الأسف .

والمؤلف الوحيد الذى يذكر هذه السفارة بعد الكرديزى هو جمال الدين ابن المهنا الذى كتب فى القرن الرابع عشر قاموساً فارسياً تركياً مغولياً ؛ ولكن ليس بكتابه تفصيلات عن هذا الموضوع ، وبين سنتى ١٩٠٠ ، ١٩٠٣ نشر المستشرق الروسى ميليورانسكى القسمين الأخيرين من هذا الكتاب مع ترجمتهما الروسية وذلك مع بحث لغوى فى مقدمة الكتاب .

وبين سنتى ١٣٣٠ ، ١٣٤٠ نشر كليسلى رفعت أفندى الكتاب كاملا ، وحصل هذا الناشر التركى على معلومات لم تكن بين يدى الناشر الروسى فاستطاع أن يحدد اسم

المؤلف. ولكن النقط التي تهمنا مشطوبة مع الأسف في النشرة التركية ولانستطيع قراءتها إلا في النسخة التي نشرها الرومي .

ويذكر ابن المهنا أثناء حديثه عن تقويم (الاثنى عشر حيوانا) نقلا عن (طبائع الحيوان) لشرف الزمان المروزى (وهو كتاب لم يصلنا) أن رسالة وردت على محمود الغزنوى من صاحب الصين وصاحب الترك وتاريخها الشهر الخامس من عام الفارة ، (وتذكر بعد ذلك أسماء السنوات الأخرى : سنة الفهد Parse ، وسنة النمر أو سنة الأسد (صلان يلى) ولم يستطيع ميليوراسكى أن يفهم الكلمة الأخيرة : (صلان يلى) ، ومعنى هذا أنه لاتوجد معلومات عن سفارة خانات الترك المجوس فى هذا المصدر الجديد ، بل إنه يضيف إلى الموضوع مشكلة تاريخية فقط ، وتاريخ ورود السفارة عند الگرديزى هو سنة (٤١٧) = (١٠٢٦) وعند الطبيب المروزى هو سنة (٤١٨ = ١٠٢٧) فأما عام الفارة فيصادف إما ١٠٢٤ و إما ١٠٣٦ .

وينفرد محمود الكشغرى بإمدادنا بالمعلومات عن حدود بلاد المسلمين فى شرق تركستان زمان القراخانيين .

ومعلوم أن المدن المتحضرة فى شرق تركستان قد خططت بمحاذاة طريقين كبيرين الأول شمالى يؤدى إلى كوچه ن Koutcha والآخر جنوبى يؤدى إلى لوب نور Lob—Nor على مصب نهر تاريم مارا بختن . ويسمى تاريم عند محمود الكشغرى (اوسمى تاريم) ويقول فى تعريفه إنه نهر ببلاد الإسلام يصب فى مملكة الأويغور حيث يضيع فى الرمال ، وفى القرن الحادى عشر لم يكن الإسلام قد وصل إلى طورفان ولوب نور وكانت حدوده الشمالية مدينتى (كوچا) و (بوگور) ومن الجنوب مدينة (چرچه ن) ولا نعلم أكان يوجد خوانين غير خان كاشغر فى الأراضى الواقعة بين هذه البلاد وكاشغر أم لا . والأرجح أن البلاد الواقعة إلى الشرق كانت تابعة لخان الأويغور الملقب (كول بيلكا خان)

ولكن تذكر معه عبارة (كان يسمى) دلالة على أن هذا اللقب يرجع إلى حقبة مضت .

ولايذكر المؤلف (أى محمود الكشغرى) اللقب الذى كان يحمله الخان فى عهده ، ونصادف فى اللقب الذى كان يحمله أمراء القارلوق وهو (كول إيركين Kûl-erkin) نفس كلمة (كول) الموجودة فى اسم (كول تكين) بطل نقوش أورخون . ولكن المؤلف لايعرف المعنى القديم لكلمة (كول) فقرّبها من كلمة (كول) بمعنى بحيرة واضطر لذلك إلى أن يفسر اللقب تفسيرا متكلفا فذهب إلى أن (كول) معناها أن علم الخان كان واسعا كالبحر ، ويذكر الكرديزى هذا اللقب بالراء (كورتكين) وعلى كل حال فإن (كور) و (كول) صورتان لكلمة واحدة نشأتا مما يحدث عادة من أن تنقلب الراء لاما أو العكس ، ومع أن محمود الكشغرى يعرف المعنى القديم لكلمة (كور) ويفسر كلمة (كور أر) بمعنى (الرجل الثابت) فإنه لم يفطن إلى أن كلمة (كول) فى اللقبين (كول بيلكا) و (كول ايركين) هى بعينها كلمة (كور) محرفة .

ونستطيع أن نستنتج من إحدى إشاراته أن لديه رواية عن فتح ختن ، ذلك أنه أورد لقب (جنكشى). وفى رواية أن المسلمين فتحوا ختن بسبب أمير يحمل هذا اللقب .

وقد كان بعض أولاد جنكيز يحمل هذا اللقب فى عهد المغول ، وكثير من الأشعار التى أوردها الكشغرى فى كتابة له علاقة بما كان من حروب بين المسلمين والأويغور ، ويصوّر الأويغريون فى هذه الاشعار مرتبطين بالأصنام البوذية التى يسمى واحدها (بورخان) ، وبالبوذية ويذكر هذا (البورخان) دائما مع اسم راهب بوذى هو (تويين) Toin ومعلوم أن جزءا من رهبان البوذية يسمون

حتى الآن « تو ين » و يقولون إن أصل هذه الكلمة صينى ، ولا بد أن يكون هذا الاسم قد انتقل هو وكلمة نوم Nom التى تطلق على كتبهم المقدسة من الأويغور إلى المغول ، وذلك لأنه مذكور منذ القرن الثالث عشر فى كتاب الجوينى . ويقول محمود الكشغرى أن كلمة نوم Nom تطلق على الكتب الدينية جميعها ، ومنها كتب الدين الإسلامى . ولا يذكر الكشغرى شيئاً يدل على وجود المانوية أو المسيحية عند الأويغور ، ولكن يستنتج من ذكر كلمة (به جه ك) وجود بعض المسيحيين ، ذلك بأن هذه الكلمة كانت تطلق على (صوم النصارى) ، ومما يلفت النظر استعمال هذه الكلمة فى النصوص المانوية بمعنى الصوم أيضاً .

ثم أطلق القراخانيون المسلمون كلمة (تات) على من ببلادهم من الإيرانيين المسلمين ومن الأويغور المشركين وهذا أيضاً لافت ! ويظل أصل كلمة (تات) موضع سؤال . ولهذه الكلمة الآن مدلول أتنوغرافى ؛ فهى تطلق فى قافقاسيا على اليهود الذين يتكلمون لغة مركبة من الإيرانية والتركية وهى تستعمل أيضا عند التركمان فى آسيا الوسطى ، فهم يطلقونها على من تحولوا إلى حياة الإقامة فى الحضر ومن جملتهم أهل خيوه ، ولا بد أنها كانت تستعمل بنفس المعنى فى القرن الحادى عشر وإلا لصعب تعليل إطلاقها على الإيرانيين وعلى الأتراك الأويغور المتحضرين .

ولدى الكشغرى معلومات صحيحة كثيرة عن مدن الأويغور ، وقد ذكرت مدينة (قوچو) فى نقوش أورخون ، وفى النصوص الأويغورية وهى عبارة عن (قاراخوجا) الحالية ، بالقرب من طورفان حيث توجد خرائب (ايدى قوت) أى مدينة (ايدى قوت) حاكم الأويغور . وكانت هذه المدينة عاصمة الجزء الجنوبى من بلاد الأويغور .

وعند الكشغرى أن كلمة (قوچو) أو (قوجو) أو (قجو) تستعمل اسما لمدينة كما تستعمل كذلك اسما لمنطقة بأكملها ، ويذكر بعد ذلك أسماء ثلاث مدن هى (سوطى) و (جانبالق) و (ياكى بالق) .

وفى كتاب الكشغرى دليل على أن الأويغور بعد ثلاثمائة سنة من اعتناق المانوية لم يفقدوا روحهم العسكرى ، وذلك أن الكشغرى يقرر أن الأويغور كانوا أمهر بالنسبة لغيرهم من الكفار فى الرمى بالسهام ، ونعرف من الكشغرى الأسماء التى كان يطلقها الأويغور على المسلمين ، فقد كانوا يستعملون كلمة (چوماق) بمعنى (مسلم) .

ومعلوم أن هذه الكلمة (چوماق) تطلق فى جنوب روسيا على صغار التجار الذين يتجولون فى القرى ، يحملون بضائعهم وأمتعتهم على عربات .

ولم يعرف أصل هذه الكلمة حتى الآن ، ولكن يحكم — من جرسها — بأنها تركية ، والغالب أن المسلمين كانوا يقومون فى مناطق الأويغور (كما كانوا يقومون فى غيرها) بأهم الأعمال التجارية .

والبيانات التى يعطيها المؤلف عن الأقوام التى تقطن فى الجزء الشمالى من شرق تركستان قليلة التفصيلات ، ولقد رأينا من قبل كيف يمكن استناداً إلى كتاب الكشغرى أن نعين حدود انتشار الإسلام فى الشرق ، ولكن الروايات الخاصة بإسلام الترك فى الشمال ، والشمال الشرقى يعوزها الوضوح . ويبدو أن جغرافيى القرن العاشر لم يعرفوا جيداً إلا الجزء الجنوبى من ولاية (يدى صو) ويُذكر نهر (إيله) فى مخطوطة تومانسكى ، ولكن الأمر يختلط على المؤلف فيقول إن هذا النهر يصب فى بحيرة إيصيغ . ذلك ، بينما يهتم محمود الكشغرى بنهر إيله ويربط بينه وبين ظهور تقويم الاثنى عشر حيوانا المستعمل عند الترك فيروى أسطورة خلاصتها أن ملك الترك خرج للصيد فجرت الحيوانات التى تبعها وألقت بنفسها فى نهر (ايله) وعبرته بالترتيب ، وكان هذا الترتيب فيما بعد هو ترتيب الحيوانات فى ذلك التقويم .

محمود الكشغرى :

وحرر محمود الكشغرى كتابه فى بغداد ، ومع أنه يحدد تاريخ شروعه فى الكتابة بالمحرم سنة ٤٦٦ = (سبتمبر سنة ١٠٧٤) فقد شُكَّ فى هذا التاريخ لسببين : الأول أن محمود الكشغرى يذكر الخليفة المقتدى الذى اعتلى العرش فى سنة ٤٦٧ = (١٠٧٥) ، والثانى ذكره عام الثعبان (ييلان يلى) الذى يوافق سنة ١٠٧٧ ومذكور فى آخر الكتاب قيد آخر يُشيرُ إلى أنه قد بُدىء فى تأليفه فى جمادى الأولى سنة ٤٦٤ = (١٠٧٢ يناير — فبراير) وأنه قد صُحح وعُدّل ونسخ أربع مرات فانتُهِى منه فى جمادى الآخره سنة ٤٦٦ أى فى فبراير سنة ١٠٧٤ وهكذا يكون الفراغ من هذا الكتاب سابقاً على جلوس الخليفة المقتدى الذى قدِّم له الكتاب .

ومما يزيد حل هذه المتناقضات صعوبة ماذكره ناسخ هذه المخطوطة (وهى جيدة وقديمة) فقد ذكر تاريخاً محدداً هو يوم الاثنين ٢٧ شوال = (أغسطس سنة ١٠٦٦) ، وذكر أنها منقولة عن النسخة التى كتبها المؤلف بيده . ومع هذا فإنا لا نشك فى أن المؤلف قد حرر هذا الكتاب فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر .

ولا يذكر المؤلف سبب هجرته إلى بغداد ، ولكننا نعلم مما ذكر من البيانات أنه طاف بصحارى الترك ، وأنه كان من أكثر الناس معرفة بلغاتهم ؛ فقد كان يعرف التركية والتركمانية والغزية والچكلية والنعمائية والقرقزية .

ولا تدل عبارة الكشغرى على أىّ اللغتين كانت لغته الأصلية آلعربية أم التركية . فالكتاب يدل على علم كامل باللغة العربية وإن كانت به بعض النقط التى تدل على أن أصله تركى ، وهو يذكر نفسه أحيانا بضمير الغائب ، وأحيانا يكتفى بذكر اسم (محمود) مع إضافة عبارة مؤلف هذا الكتاب ، ويبدو ألا داعى للشك فى أن المراد (بمحمود) إذا ذكر فى الكتاب هو المؤلف نفسه . ولا شك

أنه يتحدث عن نفسه فى هذه العبارة : (ونشأ أبو محمود فى مدينة بارسغان أو بارسخان بجوار (بحيرة ايسيق) وقد حدد فيما قبل مكان بارسغان أو بارسخان .
وينقل الـكرديزى أسطورة تقول إن الاسكندر أثناء حملته على الصين أسكن العساكر الإيرانيين الذين أخذهم من إيران ، بذلك المـكان ، ومع أنه وعدهم بإعادتهم إلى إيران بعد عودته من الصين فإنه لم يستطع الوفاء بوعده لأنه رجع بطريق الهند ويقول الـكرديزى أن كلمة بارسخان معناها (أمير الفرس) وأنها مكونة من الـكلمتين (پارس) و (خان) .

وينقل الـكشغرى وجهين آخرين لتسمية المـكان أحدهما أن (بارسخان) اسم لابن آفراسياب ، والثانى أن هذه الـكلمة اسم لسايس ملك الأويغور . وهذا الوجه الثانى مهم إذ يمكن أن يستنتج منه أن حكم الأويغور قد امتد فى وقت ما إلى الغرب حتى بحيرة ايسيق ، وأن عهدهم لم يكن قد نُسى تماما فى القرن الحادى عشر .

ولـكن يمكن القول — استناداً إلى موضع آخر من كتاب الـكشغرى — بأنه لم يكن ينتمى فقط إلى الترك بل كان من أسرة القراخانيين ، فهو يقول فى صحيفة ١٠٢ من كتابه « قال محمود صاحب الـكتاب : ولهذا المعنى كان آباؤنا الأمراء يُسمّون (خمير) لأن الغزية ماقدروا أن يقولوا (أمير) فقلبوا الألف خاء فقالوا خمير » ثم يقول « وأبونا هوالذى فتح ديار الترك من أولاد السامانية » ولـكن هذه العبارة غير صادرة من المؤلف بل يرويها نقلا عن آخر ذكره قبل ذلك وهو نظام الدين اسرافيل طغان تـكين بن محمد جقرطنقاخان عن أبيه . ويحتمل أن تـكون هذه العبارة خاصة بنظام الدين هذا ، ويذكر المؤلف بعد ذلك أنه كان بصحبته أمير اسمه (قمق) .

الحدود الشمالية :

ويغلب أن تكون قبائل توخسى وياغما وچيكيل ، التى تقطن وادى نهر (إيله) مسلمة وهكذا تكون المواقع الأولى للمسلمين واقعة شمال نهر (إيله) وفى نطاق بحيرة بالخاش ، وتذكر بحيرة بالخاش باسم (تريك كول) .

وتدل هذه الكلمة فى لغة الغز على الوفرة والغزارة ، ومعنى هذا أن البحيرة سميت كذلك لأنها أكبر البحيرات فى المنطقة ؛ ولا يذكر أن نهر إيله يصب فى بحيرة بالخاش ، وبالقرب من البحيرة توجد مدينة (ايكى أوكوز) أى (النهران) ويقال إنها سميت كذلك لوقوعها بين نهرى (ايله) ويافنچ Yafintch ولكن نهر يافنچ يقع بحسب الخريطة (الملحقة بكتاب محمود الكشغرى) جنوب نهر إيله ، وتقع إيكى (أوكوز) شمال نهر إيله ، وفى سنة ١٢٥٣ مر الرحالة النصرانى روبرق بمدينة Equius أثناء رحلته شمال نهر إيله ، ويحتمل أن تكون هذه المدينة هى مدينة إيكى أوكوز كتبها روبرق بحسب النطق اللاتينى .

وإلى جانب مدينة (ايكى أوكوز) تقع مدينة (قاملا نچو) والظاهر أنه يجب البحث عن مدينة (كومى — تالاس) فى نفس هذا المكان ، أى فى حدود البلاد الإسلامية . ومع أن هذه المدينة تقع على خريطة الكشغرى فى شمال نهر (إيله) فإنه يذكر فى مكان آخر أنها تقع على حدود بلاد الأويغور ، ويحتمل كثيراً أن تكون واقعة شمال نهر إيله قريباً من مدينة ايكى أوكوز .

وأبعد من ذلك نحو الشمال كان يجرى نهر (يامار) ويحتمل كثيراً أن يكون هذا النهر هو نهر (ئه ميل) الذى يجرى حيث تقع حاليا مدينة (چوكوچاك) . ويقال إن قبيلة ياباقو تعيش هناك وإذا كانت كلمة (ياباقو) اسما لنهر يجرى فى فرغانة إلى جوار (اوزكند) ، فإن ذلك حتما من باب التصادف .

وقد تحدث محمود الكشغرى فى كتابه عن موقعة حربية واحدة بين المسلمين والكفار، وترتبط هذه الحادثة باسم (ياباقو) وكان عدد عساكر المسلمين فى تلك الواقعة أربعين ألفا تحت قيادة (أرسلان تكين) وعدد الكفار سبعمائة ألف بقيادة (بوكه بودراچ Bugué—Boudratch) وانتهت بالنصر للمسلمين .

وقد عبر المسلمون أثناء انطلاقهم إلى تلك الموقعة نهر (إيله) فنهر (يامار) (نه ميـل) واشترك (الأتراك الباسمل) ضد المسلمين فى هذه الموقعة .

وتحدث محمود الكشغرى نفسه مع واحد ممن اشتركوا فى هذه الحرب ، أى أننا نستطيع أن نستنتج أن الموقعة كانت فى وقت قريب من وقت تأليف الكتاب .

ومهما يكن فقد كثرت الأساطير عن هذه المعركة ، ومن ذلك مثلا عدد الكفار الذين اشتركوا فيها ، فهو عدد أسطورى إذ أن ظروف الحياة البدوية تجعل من المستحيل أن يتكون جيش من سبعمائة ألف . ولكننا نصادف أمثال هذه الأرقام الخيالية كثيراً فى الحديث عن حروب البدو ، ومن بينها حروب جينكيز خان .

ويذكر محمود الكشغرى (ياباقو) بين الأقوام الغير خالصة التركية ولكنه يذكر أيضاً أن هذه الأقوام كانت تعرف اللغة التركية إلى جانب لغاتهم ، ثم يُدخل الكشغرى (الباسمل) كذلك فى جملة هذه الأقوام ومذكور فى نقوش أورخون أن (باسميل) هؤلاء كانوا يعيشون إلى جوار مدينة (بش باليق) فى المكان الذى سكنه الأويغور فيما بعد بشرقى تركستان . وقد وردت كلمة باسمل فى النسخة المطبوعة من ديوان لغات الترك بالياء (يسمل) والظن أن هذا الخطأ غير موجود فى النسخة الأصلية لمحمود الكشغرى ، ففى ص ٣٣٩ من الجزء الأول حيث رتبت بعض الأسماء ترتيباً أبجدياً أدرجت

كلمة بسمل مع الـكلمات المبدوءة بالباء ، وقد وردت قبلها كلمة (بسبل) و بعدها كلمة (بشغل) .

المغول والصين :

ومن بين الأقوام التى ذكرت بوصفها غير تركية خالصة ، قوم التتار ومن المعروف أن المغول كانوا يسمون أنفسهم فيما بعد بهذا الأسم الوارد فى نقوش أورخون ، و بعض الأقوام التى يذكرها الـكشغرى على أنها لم تـكن خالصة التركية كانت مغولية ، ومن بين هذه الأقوام قوم ياباقو . فإذا صح ذلك كان معناه أن بعض المغول اتجهوا منذ زمان المؤلف إلى الغرب حتى وصلوا إلى مناطق يسكن الترك فى جميع نواحيها .

وكما كان القيرغيز القاطنون فى الحوض الأعلى لنهر ينسى يذكرون من قديم بوصفهم من الترك الخاص ، فقد كانوا يذكرون بنفس هذه الصفة فى زمان محمود الـكشغرى ، وتؤكد نصوص الـكشغرى أن المغول طردوا الترك من منغوليا ، و بحسب رواية الـكشغرى تقع جبال (أوتوكهن) التى كانت المعسكر الرئيسى لخان الترك أثناء كتابة نقوش أورخون ، فى صحراء التتار قرب بلاد الأويغور ، وآخر الأقوام التركيةالتى حكمت بمنغوليا كما تروى المصادر الصينية هم القرغيز الذين طردوا الأويغور سنة ٨٤٠ ، والظاهر أن طرد الترك من منغوليا مرتبط بالقوة التى وصل إليها قوم من المغول فى بداية القرن العاشر ، وهم الخطاى ، وقد أقام هؤلاء الخطاى دولة قوية فى شمال الصين سموها باسم (خطاى) ومع أن الأوربيين لا يستعملون هذه الـكلمة فإن المغول والروس و بعض المسلمين ما زالوا يستعملونها مرادفة لـكلمة الصين ، و بعد أن نزح الترك إلى الغرب ، أخذوا عن العرب كلمة الصين (لما كانت چ الفارسية تتحول غالباً إلى صاد) فى العربية ، فقد نطق العرب (صين) بدلا من (چين) وحمل الأتراك معهم من الشرق اسم تابغاچ [Tabghatch] وهو اسم وارد بنقوش أورخون ، واستعملوا كلمة (الصين) للدلالة على

شمال الصين وكلمة (ما صين) للدلالة على جنوبها ، وكانت هاتان العبارتان تستعملان فى أيام محمود الكشغرى ولكنهم قصروا كلمة (تابغاج) (تاوغاج عند الكشغرى) للدلالة على (جنوب الصين) الذى كان لا يزال تحت حكم أسرة صينية قومية (هى أسرة سونج — صن Song Sun) .

و بالإضافة إلى (تاوغاج) أو (ما صين) استعملت كلمة (يوقارى صين) . وسميت الصين أو الصين الوسطى باسم الأسرة الحاكمة هناك وهى (خيتاى) ، وكانت كاشغر عبارة عن جنوب الصين .

ولا بد أن كلمة (تاوغاج) كانت تستعمل فى معان أخرى ، وقد كانت كل آثار الحضارة القديمة فى آسيا الوسطى تنسب (فى زمان محمود الكشغرى كما هو الحال فى العصور المتأخرة) إلى الصين .

و يرى محمود الكشغرى أن كلمة (تاوغاج) بمعنى الكلمة العربية (عادى) نسبة إلى عاد « و يقال لكل شىء من المصنوعات إذا كان قديماً عظيما (تقغاج اذى) كما يقال فى العربية شىء عادى » (٣٧٨ر I) وعلى هذا النحو يفسر محمود الكشغرى لقب (تقغاج خان) الذى يستعمله القراخانيون فيقول إنه معناه (عظيم الملك وقديمه) ولا بد أن يكون هذا التفسير خطأ فإن هذا اللقب من مخلفات الاتصالات القديمة بين الترك والصين ، وهو يدل فى أكبر الظن على أن الترك كانوا يتخذون من الدولة الصينية مثلا أعلى ، وكان نفس هذا اللقب يضرب على السكة القراخانية مترجماً للعربية (ملك الصين) . و يذكر محمود الكشغرى كذلك التانكوت Tangout الذين فتحوا فى سنة ١٠٢٠ (غانجزاو) Kan-Tcheou وهى بلاد الأو يغور .

و كانت توجد بين الصين و بلاد التانكوت مدينة تحمل اسما تركياً عجيباً هو (قاتون سيتى) (قادنيك صورتى) أى (صورة المرأة) ولم يوضح هذا الاسم

ولم يُعرف هل تنسب المدينة إلى صورة خاصة أم هل تنسب إلى تمثال، ولكن الكشغرى يذكر حرباً قامت بين تانكوت و بين أهالى قاتون سبتى وانتهت غالباً بهزيمة التانكوت .

وتدل المعلومات القصيرة التى يذكرها عن المدن المختلفة على أنه كان يملك كتباً تاريخية كثيرة لا توجد الآن بين أيدينا . ولو وجدت لكانت كبيرة القيمة ، فهو يذكر مثلا مدينة « صيغون صامور » ويروى أن بغراخان قد مات بتلك المدينة مسموما ، ولكن لا يذكر أى بغراخان ؟ ثم يتحدث عن مدينة (اينج كنْد) وهى من مدن أصحاب المقنع ، ولكنها كانت خربة ، وربما كان خرابها على أيدى عساكر العرب وهى تستأصل أتباع المقنع ، ولكن المراجع التى تتحدث عن مذهب المقنع ، وعن اتفاقه مع الترك ، وعن حروبه ضد عساكر الخليفة لا تذكر اسم هذه المدينة ، وفى ثنايا المواد اللغوية التى جمعها محمود الكشغرى توجد نماذج للأدب الشعبى ولأدب الصنعة ، كما توجد كثير من التعبيرات المدنية ، وتدل هذه النماذج وتلك التعبيرات على أن الترك فى القرن الحادى عشر لم يكونوا قد تأثروا تماما بالمدنية الإسلامية وبخاصة الإيرانية ، وتدل أيضاً على مدى تطوّر حياة الترك المادية والمعنوية قبل أن تضمحل تقاليدهم القومية . ولا يمكن أن نتناول كل هذه الموضوعات فى محاضراتنا ، ولكن بعد أن أشرنا إلى ما أورده محمود الكشغرى من معلومات عن الغز وسائر أتراك الغرب ، فسنحاول فى المحاضرات القادمة توضيح بعض هذه المعلومات ، وإننا نحتاج إلى إلقاء نظرة عامة على الغز وسائر أتراك الغرب .

المحاضرة السادسة

يرجع ظهور الترك فى البلاد الواقعة جنوب نهر جيحون إلى زمن أبعد من استيلائهم العسكرى على تلك البلاد فى القرن العاشر ، ويحتمل أن تكون ذرارى هؤلاء الترك مازالت تحيا بهذه البلاد حتى الآن ، وفى القرن السابع التقى غزاة العرب فى بدخشان بالأتراك (القارلوق) ويعيش الآن فى بدخشان فرع من الأوزبك هو فرع القارلوق ، ويمكن أن نستنتج من هذا أن الأوزبك حينما غزوا بدخشان فى القرن السادس عشر ، اندمج فيهم الأتراك الذين كانوا يعيشون هناك ، ولا يذكر جغرافيو العرب من الترك المقيمين جنوب جيحون — وذلك عدا الأشخاص والفرق التى كانت تكون حرس الخلفاء والأمراء — إلا (الخالاچ) . وهؤلاء الخالاچ يعيشون حتى الآن بين الأتراك القاطنين إيران ويسميهم الأتراك (قالاچ) .

ويذكر الكشغرى أن أصل هذه الكلمه فعلا أمر هما (قال) و (آچ) من المصدرين (قالمق) و (أچمق) وهذا الاشتقاق الشعبي موجود كذلك فى كتاب رشيد الدين . وينسب الكشغرى (الخالاچ) أو (القالاچ) إلى الغز ، ويذكر اثنين وعشرين قبيلة من قبائل الغز على حين يذكر رشيد الدين أربعاوعشرين ، ولكنه يذكر أنهم كانوا يتكونون من ٢٤ قبيلة ثم انفصلت قبيلتان .

ومع أن محمود الكشغرى يقول إن قسما من الخالاچ فقد لغته وذاب فى الشعب الأفغانى وأن القبيلة الأفغانية (كيلزاى — غلجائى) من سلالة هذا القسم من الخالاچ ، فقد وردت الاعتراضات على هذا القول وخاصة من ناحية صوتيات اللغة الأفغانية ، وفى الهند — حيث لعب الخالاچ فى وقت ما دوراً سياسياً هاماً — تغير اسمهم فأصبح (خيلج) وما زال بعض (الخالاچ) بإيران يتكلمون اللغة التركية ، ويحتمل أن يرجع ذلك إلى التحاقهم بالغز وهم أكثر منهم نفرا .

ولا وجه للمشابهة بين النشاط الحربى للغز و بين النشاط الحربى للقراخانيين ، فقد كانت للقراخانيين قبل استيلائهم على بلاد السامانيين دولة ضموا إليها كل البلاد التى فتحوها . أما الغز فقد خرجوا من ديارهم ليؤسسوا لأنفسهم دولة فى البلاد التى يفتحونها، ومن هذه البلاد أخذوا يزحفون رويدا رويدا على موطنهم الأصلى ليستردوه بالفتح .

السلاجقة :

وكما لم يكن للقارلوق خان فكذلك لم يكن للغز ، ولكن رئيس الأسرة الغزية التى حكمت مؤخراً فى إيران كان يسمى (كما يذكر محمود الكشغرى ومصادر أخرى) باسم (سوباشى) أى قائد الجيش . وقد نطق العلماء الأوربيون اسم هذا القائد هكذا (سه لچوق) (Seldjuk) وهو تلفظ يطابق الإملاء العربى ولكنه يجافى قوانين الصوتيات فى اللغة التركية وقد احتفظ به العلماء الأوربيون ، والآن يحاول بعض العلماء بصوتيات اللغة التركية تصحيح هذا النطق فهم يكتبونه أحيانا (سالچوق) أو (سالچيق) ولكن النطق الصحيح لهذه الكلمة كما يتضح من النصوص التركية هو (سالچوك) Seltchuük ، ذلك أننا نجد هذا التلفظ الأخير فى كتاب محمود الكشغرى وفى كتاب (ددهقورقورد) وهو قصة بطولية قديمة ، وفى مصادر أخرى من بينها منظومة مجهول صاحبها كتبت سنة ٩٥٠ فى عهد السلطان سليمان وتوجد هذه المنظومة مخطوطة بتاريخ سنة ٩٥٤ فى مكتبة جامعة استانبول بين كتب خالص افندى ورقمها ٧٣٤٠ .

وأما عن نشاط سلچوق هذا فإنا نعلم أنه أسلم وخلص سكان الوادى الأدنى لنهر سيحون من الجزية التى كانوا يدفعونها للغز .

وكان يمكن أن نستنتج من هذا أن العلاقات كانت وثيقة بين المسلمين الذين يسكنون حوض سيحون وبين ذرية سلچوق ، ولكنا نجد فى مدينة (جند) ، فى القرن الحادى عشر ، حاكما يحمل اسما إسلاميا هو (شاه ملك)

يقال إن عداوته لأبناء سلجوق كانت مريرة وقديمة . ومن المعلوم أن الغز أقاموا بمنغوليا فى القرن السادس دولة بدوية كبرى لم ير مثلها من قبل (ولم يفقها سعة فيما بعد إلا دولة المغول) . وحتى بعد سقوط هذه الدولة استطاعوا غير مرة أن يتخلصوا من سيادة الصينيين وأن يحيوا دولتهم من جديد، ولكنهم بعد أن هاجروا إلى الغرب فقدوا أسس تشكيلات الدولة التى أقاموها فى منغوليا ، ويمكن القول بأن هؤلاء الغز — حتى وهم فى الشرق — لم يكونوا يعلمون شيئا عن أسس نظم الدولة ، ولكن الخان كان يفرضها عليهم بالقوة، وقد كان الخان (ويسمى فى نقوش أورخون خاقان) إذا ذكر الطقوز أوغوز أو الغز فقط، ذكرهم بوصفهم أعداء وأصحاب فتن أكثر مما ذكرهم بوصفهم شعبه ، وفى الصحارى الواقعة شرق بحر قزوين لم يستطع الغز ولا ذراريهم وهم التركمان أن يحققوا الوحدة السياسية بل كانت الحروب مستمرة بينهم ، وقد قامت بعض بطون الغز — كل على حدة — بفتوحات واسعة وبهجرات إلى بلاد بعيدة ، ولكن لم تكن من بين هذه الحركات جميعها حركة واحدة يمكن وصفها بالشمول وبأنها حركة متحدة .

ومن العجيب أن هؤلاء الغز الذين لم يستطيعوا فى أى وقت الوصول إلى الوحدة قد وفقوا فى تأسيس أقوى الدول التركية وأطولها عمراً ، ومن بينها تركيا الحالية .

البچنك :

وأقدم هجرة عرفها التاريخ للأتراك الغز فى اتجاه الغرب ، بعد انتهاء الدولة التركية التى حكمت من القرن السادس إلى القرن الثامن هى هجرة البچنك فى نهاية القرن التاسع ، وقد ذكر الإمبراطور البيزنطى قسطنطين بورفيروجينيت Constantin Porphyrogénéte أن هذه الهجرة سبقت عهده بخمسين سنة ، ومن المعروف أنه كتب ذلك فى منتصف القرن العاشر . ويدرج رشيد الدين ومحمود الكشغرى البچنك بين فروع الغز ، وقد ورد اسم البچنك فى كتب

الحوليات الروسية بصورة (به جه نه ك) ولم يكن نطقه على هذا النحو مأخوذا من النطق اليونانى لأن اليونانَ يكتبون الـكلمة بصورة أخرى هى Patzinak (باتزيناك) والغالب أن الروس كتبوا هذا الاسم طبقا للنطق الذى سمعوه هم أنفسهم ، وقد ظُنَّ فى أول الأمر أن هذه الـكلمة هى كلمة (باجاناك) التى ترد أحيانا بمعنى (باجانا ق) أى زوج الأخت ولـكن تبيّن ألاّ أصل لهذه الصيغة لأن الـكلمة التى ضبطها محمود الـكشغرى بوضوح هى (به چه نه ك) .

ولا بد أن يكون البچنك قد انفصلوا قبل سائر بطون الغز حتى إن الجغرافيين العرب فى القرن التاسع ، أى قبل هجرة البچنك كانوا يذكرونهم على أنهم شعب مستقل ، وكانوا فى ذلك الوقت يعيشون بمحاذاة نهر (يايبق) أى أنهم كانوا جيران الخزر من الشرق ، وفى سنة ٩٢٢ وجـد ابن فضلان فى تلك الجهات بقية منهم .

فأما جمهرتهم الـكثيفة فقد هاجرت وتوطنت فى جنوب روسيا مارة ببلاد الخزر ، ومن جنوب روسيا بدأوا يهددون كييف ، وذلك فى عهد (اسڤاتوسلاڤ) Sviatoslav ، ويكثر فى كتب الحوليات الروسية ذكر غارات البجنك على الروس ، وذكر الصراع بين الأمراء الروس (كناز) و بين البجنك .

وقد نقل قسطنطين پورفيروجينيت كثيرا من الأخبار الخاصة بهم ، كما أنه عدّد فروع البچنك .

وقبيل القرن الحادى عشر ، أى بعد سقوط دولة الخزر ، قام الغز بهجرة جديدة فعبروا نهر « ايدل » = الڤلجا ، ووصلوا إلى جنوب روسيا الحالى ، وفى هذه المرة ذكرتهم المصادر البيزنطية باسمهم المتداول على ألسنة الشعب وهو « أوز Ouzoi . أو Ouz »

وأما فى المصادر الروسية فقد ذكروا باسم Tork ، ولم ينضم هؤلاء

الغز إلى اخوانهم الأقربين وهم البچنك ، بل بدأوا يحاربونهم ، فاضطر البچنك إلى الهجرة إلى شبه جزيرة البلقان وتتبعهم الغز هناك ، وكان ذلك فى نفس الوقت الذى تعرضت فيه الممتلكات البيزنطية بالأناضول لغزوات فريق آخر من الغز جاءوا مع السلاجقة .

ولأول مرة تعرضت المناطق البيزنطية فى الأناضول وفى شبه جزيرة البلقان لغزوات أقوام من الغز جاءوا من طرق مختلفة ، ولا علم لأحدهم بالآخر ، ولحسن حظ البيزنطيين فإن هذه العناصر التركية لم تتحد ، وبسبب ذلك بدأ إمبراطور بيزنطة يحس الاطمئنان فى أواخر القرن الحادى عشر وهو الوقت الذى بدأت فيه الحروب الصليبية ، وندم على طلبه من الغرب أن يعينه ضد الأتراك المحدقين به من جميع الجهات إذ لم تكن به وقتئذ حاجة إلى هذا العون .

المسيحية عند الغز :

ولم يكن الغز المشتركون فى هذه الحركات على علاقة بالدين الإسلامى ولا بالمدنية الإسلامية . وفى رواية بكتاب عربى عاش مؤلفه فى القرن الثالث عشر « ولا شك أن هذه الرواية ترجع إلى أبعد من هذا القرن » إنه كان ثمة مسيحيون بين الغز ، وقد عرف الغز الإسلام والمسيحية بواسطة خوارزم وهى البلاد المتمدينة التى كانت بينها وبين الغز علاقات تجارية وثيقة ، وقد ذكر البيرونى وهو من علماء خوارزم فى القرن الحادى عشر ، أنه كان بين الخوارزميين مسيحيون ، والعجيب أن هؤلاء المسيحيين لم يكونوا نساطرة مثل المسيحيين بإيران وتركستان ولكن كانوا على الديانة الأرثوذكسية ، ويفهم من هذا أن الغز كانوا على نفس هذه الديانة .

السلاجقة فى هضبة إيران :

وبعد أن تأسست المستعمرات الإسلامية على ضفاف نهر سيحون حيث يقيم رؤساء الغز ، تغلبت المدنية الإسلامية فى تلك الجهات — كما هو الحال فى

جهات أخرى — على غيرها من المدنيات ، وعدا ذلك فقد دخل قسم من التركمان فى خدمة السامانيين ، وتعهدوا — فى مقابل المراعى التى أعطيت لهم — أن يدافعوا عن حدود ممتلكات السامانيين ضد اخوانهم التركمان الذين لم يدخلوا فى الإسلام .

وفى ذلك الوقت كان بعض الترك القاطنين على حدود دولة السامانيين متصلين بالمدينة الإسلامية ، وكان الفارابى فيلسوف العرب المشهور فى القرن العاشر واحداً من هؤلاء ، فهو تركى النشأة ، وفى أثناء الصراع بين السامانيين والقراخانيين ، كان الغز ينضمون أحيانا إلى هؤلاء ، وأحيانا إلى أولئك ؛ وفى بداية القرن الحادى عشر دخلوا فى بلاد محمود الغزنوى ، وهنا يلاحظ مؤرخو إيران الفرقَ الكبيرَ بين الغز الذين دخلوا قبل ذلك إيران مبعثرين متفرقين ؛ رُعاةً لا نظام ولا تشكيلات و بين أحفاد سلجوق الذين كانوا يلقبون بالأمير والفاتح والذين كانت قواتهم متفوقة نظاماً وتشكيلا ، وقد كانت ولايات الغزنويين وغيرهم تضار اقتصاديا من غارات السلب التى يقوم بها الغز الأول ، ولكن هذه الغارات على اتساع مساحتها فى بعض الأحيان ، ما كانت لتحدث أى تبدل سياسى ذلك أن البدو ينتقلون من مكان إلى آخر دون أن يتركوا حاميات عسكرية ، ولا يعمرون المدن التى تخرب ، ولا يجشمون أنفسهم إزالة الدول القائمة ليقيموا على أنقاضها دولا لهم .

ومن جهة أخرى فإن أحفاد سلجوق — بعد أن أحرزوا انتصارهم الأول فى خراسان حيث كان يحكم مسعود بن محمود الغزنوى — بدأوا يضفون على أنفسهم حقوق الحكم ، فأمروا بأن يدعى لهم فى الخطبة ، وسكوا العملة باسمهم ، ولكنهم مع ذلك لم يحاولوا فى أول الأمر توحيد السلطة فيما بينهم .

وكما أقام الإمبراطورية التركية فى القرن السادس أخوان ، فكذلك أقام

دولة السلاجقة فى القرن الحادى عشر أخوان هما حفيدا [١] سلجوق ، كان أحدهما يُذكر فى الخطبة بنيسابور وباسمه تسك العملة ، وكان يدعى للآخر فى مساجد مرو ، وتسك العملة باسمه . ثم بدأ السلاجقة يأخذون عن الإيرانيين قواعد المركزية ، وتوحيد أداة الحكم ، ولم يأخذوا ذلك دفعة واحدة ولكن أخذوه شيئاً فشيئا ، ومن اللافت أن الأتراك السلاجقة الغزاة استعملوا لأول مرة فى خراسان اللقب الإيرانى القديم « شاهنشاه » وذلك على العملة التى سكوها باسمهم ، وهو لقب لم يستعمله السامانيون ولا الغزنويون بصفة رسمية ، فقد كانوا جميعا يريدون أن يظلوا (أمراء مسلمين) سنيين تابعين للخليفة ، يباعدون بين أنفسهم وبين شبهة الميل إلى إحيــاء التقاليد ، والنظم الإيرانية قبل الإسلام ، ولم يستعمل لقب شاهنشاه إلا آل بوية وهم شيعة حكموا بغداد وغرب إيران .

أما السلاجقة فإنه بتقدمهم نحو الغرب تركوا لقب « شاهنشاه » واتخذوا بدله لقب « سلطان الإسلام » .

وفى عهدهم صار لــكلمة « سلطان » معنى معين لم يكن لها من قبل إذبدأت فى عهدهم تطلق على الحاكم المسيطر المستقل على حين كـانت كلمتا « ملك » و « شاه » تطلقان على الحــكام التابعين ، وحكام الأقاليم . وكان العالم الإسلامىّ يعتبر كُلاًّ عليه رئيس دينى هو الخليفة ، ومن بعده «سلطان الإسلام» وهو يُولىَّ السلطة الزمنية من قبل الخليفة ، ومن العجيب أن الغز الذين وفدوا على إيران قبل أبناء جلدتهم من السلاجقة لم يتجاوبوا مع هؤلاء وهم يجاهدون لإقامة دولتهم بل رفضوا بصورة قاطعة أن يعترفوا بهم ، ولم يدخلوا فى الطاعة إلا قهرا وباستعمال القوة .

(١) راجع تاريخ البيهقى ، الترجمة العربية ، حيث فصلت هذه الفترة .

وكانت علاقة الحكام بالشعب الذى ينتمون إليه أكثر تعقدا فى البلاد الخاضعة للسلاجقة منها فى بلاد القراخانيين ، فقد كان القراخانيون يسمون أنفسهم (الترك) ، و (أبناء آفراسياب) ولم يكن لأى شعب من الشعوب التركية امتياز خاص فى دولتهم .

وليس بين المصادر التاريخية مصدر واحد يدلنا على الشعب الذى ينتمى إليه القراخانيون ، وأما السلاجقة فقد اتخذوا لأنفسهم فى أول الأمر لقب (شاهنشاه) ثم لقب (سلطان الإسلام) وكما اخترعت أسطورة تنسب القراخانيين إلى آفرسياب فقد أخترعت أخرى تنسب إليه السلاجقة ، وصدّق السلاجقة هذه الأسطورة ، ومع هذا فقد كانوا يعتبرون أنفسهم من الغز أو من التركمان ، بل ذهبوا إلى أنهم ينتسبون إلى إحدى قبائل الغز الأربعة والعشرين وهى قبيلة (قنق) (ويرسمها محمود الكشغرى «قينيق» وتوشك أسماء هذه القبائل كما ذكرها محمود الكشغرى أن تكون هى بعينها الأسماء التى ذكرها رشيد الدين ، وذلك مع فرق بسيط ، وهو أن الكشغرى ذكر هذه الأسماء بصيغها القديمة ، فمثلا قبيلة (قابى) وهى القبيلة التى ينتمى إليها العثمانيون ، ترد فى كتاب الكشغرى بصيغة قَيِخ وكذلك قبيلة (يا زر) فإنها تذكر بصيغة (يازغر) وقد حاول ماركارت مستندا إلى البيرونى وإلى غيره أن يوحّد بين اسم قبيلة (قابى) التى يرجع إليها العثمانيون وبين شعب (قاى) الذى يسكن أقاصى الشرق ، وأوجد نتيجةً لذلك نظرية جديدة ، خلاصتها أن العثمانيين ينتمون إلى عائلة المغول ، وقد جُرّح هذا الرأى بما أثبت فى كتب الدراسات التركية الحديثة ، وكذلك بالمعلومات التى أوردها محمود الكشغرى .

والواقع أن الكشغرى يدرج قبيلة « قاى » بين الأقوام غير خالصة التركية ، ولكن لا علاقة البتة بين قبيلة « قاى » هذه وبين القبيلة الغزية « قَيِخ » التى ينتمى إليها العثمانيون ، ولم يحتفظ الغز بأى رواية خاصة بتكوينهم حكومة فى منغوليا فيما مضى .

وكان يظن فى الأساطير التركية أن موطن جد الأتراك وهو (ترك) مكان قريب من بحيرة (ايسيق كول) ولكن أساطير الغز لم تذع فى المناطق الواقعة إلى الشرق من هذه البحيرة ، على حين حمل الغز الذين عبروا نهر سيحون إلى ضفته الغربية الأساطير الخاصة بـ (قورقود) أبى الشعب وشاعر القومية وفيلسوفها ، والمحافظ على الحكميات الشعبية . وما زال قبر (قورقود) معروفا فى حوض نهر سيحون ، وما زالت الأساطير المتعلقة بقورقود شائعة بين التركمان ، وكانت فى العصور الوسطى (أيام العثمانيين) ذائعة فى الأناضول وظلت منتشرة بين أتراك أذربيجان حتى القرن السابع عشر ، وفى القرن العاشر كان اسم (قورقود) معروفا لدى البچنك ، ويدفعنا كل هذا إلى الظن بأن أسطورة (قورقود) وصلت إرثا — إلى الغز من عهد ما قبل الاسلام ، وأنهم حملوها معهم نحو الغرب .

ولئن كان الغز من ناحية المدنية أقل منزلة من الأتراك القراخانيين فإنهم كانوا أكثر محافظة على خصائص الحياة القومية للترك ، فقد كان قادة الغز مختلطين بالشعب يشتركون فى الجهاد والانتصارات ، ولا يمتاز زيهم العسكرى كثيرا عن زىّ الجنود العاديين ، وقد وجد تصويرٌ لحفل زواج طغرل بك حفيد سلجوق من بنت الخليفة وذلك فى كتاب باللغة السريانية كتبه أبو الفرج ، وهو من مؤلفى القرن الثالث عشر ، وقد وصَفَ فى جملة ماوصف رقصة يؤديها الأتراك كانوا أثناء أدائها يقومون ويقعدون ، وهذه الرقصة هى من غير شك الرقصة المعروفة عند الروس باسم Pliaskav Prisiadkpou ، ولا بد أن الروس أخذوا هذه الرقصة عن الترك ، ومع أن المسيحية كانت قد تسربت إلى الغز قبل الإسلام ، فالظاهر أنه لم تكن لهم — قبل الأبجدية العربية — كتابة أخرى ؛ على حين كانت دولة القراخانيين فى ذلك الوقت تستعمل الأبجدية الأويغوريه ، ثم أخذت حروفها

تتلاشى تدريجياً إلى أن حلت محلها الحروف العربية ، وتوجد للقراخانيين عملة عليها نقوش أويغورية .

وقد كان الخانات — مثلهم كمثل المغول — يضربون أسماءهم على العملة بالحروف الأويغورية،وذلك بعد أن صارت هذه الأسماء عربية إسلامية . ويمكن أن نعلل الفرق بين الرسم الإملائى عند أتراك آسيا الوسطى وأتراك آسيا الغربية — وهو الفرق الذى لاحظه علماء ليننجراد — بأن الغز لم يكونوا على علم بالأبجدية الأويغورية ، وقد كان من عادة أتراك آسيا الوسطى وهم يستعملون الأبجدية الأويغورية — أن يثبتوا الحركات الطويلة فلما استعملوا الأبجدية العربية أفادوا كثيراً من استعمال الألف والواو والياء .

أما فى آسيا الغربية ، فتدل الوثائق المكتوبة هناك على أن الضبط باستعمال حروف الحركة لم يكن يستعمل إلا نادراً ،حتى أن نهاية الماضى الشهودى للمفرد الغائب وهى (دى) كانت تكتب أحياناً بحذف الياء ، فتصبح دالا مكسورة فقط — وبسبب غموض هذا الإملاء — فقد احتيج إلى أن تضبط المخطوطات بالشكل ، ويبدو أن عدد المخطوطات التركية المضبوطة بحروف الحركة أكبر كثيرا من عدد المخطوطات العربية والفارسية المضبوطة بالشكل .

سياسة السلاجقة الإسلامية :

وقد كان أحفاد سلجوق بوصفهم (سلاطين الإسلام) أشد دفاعاً عن الإسلام وعن أهل السنة من القراخانيين ؛ بل كانوا كذلك حماة غيورين للمذهب الحنفى ، الذى أخذه الترك عن السامانيين حيث ساد فى دولتهم،وقد اضطهد الشافعية اضطهاداً شديداً فى عهد طغرل بيگ ،وكان من أسباب ذلك أنهم رتبوا علم الكلام بقصد الرد على الرافضة . وفى هذا العلم تتخذ الأدلة العقلية أساساً للحكم على المسائل الدينية، كما أن لعلوم اليونان فيه منزلة عالية ، وهذا كله فى نظر السلاجقة من

قبيل البدع الضارة المخلة بالتعاليم الدينية لأهل السنة ، ويقول البعض أن ألب أرسلان خليفة طغرل بيك فى الحكم ، وقف حركة اضطهاد الشافعية ، واتخذ لنفسه وزيراً شافعياً هو نظام الملك ؛ ولكن نظام الملك نفسه يقرر أن ألب أرسلان كان حنفياً متعصباً ، لا يحب الشافعية أبداً ، وكان يأسف لاحتياجه إلى مساعدة وزير شافعى ، ولم يكن أحفاد سلچوق يكتفون — بوصفهم سلاطين الإسلام — بإعلاء كلمة الدين داخل حدود البلاد الإسلامية ، بل كان عليهم أن يهزموا الأعداء فى الخارج وأن يوسعوا حدود ديار الإسلام ، وكان من الطبيعى أن يؤدوا هذا الواجب بصفة رسمية فى غرب آسيا حيث كان النصر والفتح مرتبطين بالمنافع الاقتصادية ومن هذا القبيل حروبهم مع المسيحيين فى الأناضول ، وفى قافقاسيا وحروبهم مع الشيعة فى سورية ومصر ، وقد انتصر المسلمون فى الصراع مع بيزنطة بعد أن رسخت أقدام الحكم التركى فى بلاد خليفة الإسلام ، وكان هذا النصر ، وثيق الصلة بالحكم التركى ، فقبل ذلك بقليل ، أى فى عهد أسرة البويهين الإيرانية (فى النصف الأخير من القرن العاشر ، والنصف الأول من القرن الحادى عشر) ، استغل البيزنطيون شدة الخلاف بين الشيعة وأهل السنة وفتحوا عدة أماكن فى سورية و بين النهرين ، ولكن بعد أن توطد الحكم التركى فى بلاد الخليفة ، لم يفقد البيزنطيون ممتلكاتهم هذه فحسب ، بل دخل الإسلام فى الأناضول ، وتكونت به دولة إسلامية تركية .

ويكفى أن نذكر الأتراك الذين أرسلهم السلاجقة إلى حدود بلاد الروم لنقف على مدى اهتمامهم بتلك الحروب .

ومع أن سكان الجهات الشرقية من إيران المتاخمة لموطن الغز الأصلى قد حافظوا على هيئتهم الإيتنوغرافية ، فإن سكان القسم الشمالى الغربى من إيران (فى آذربيجان والأناضول) قد تترك لسانهم تماماً ، وفى نفس الوقت ، دخلت غالبية سكان الأناضول فى الإسلام ، ولكننا لا نستطيع الآن دراسة التطور

التدريجى لانتشار الإسلام فى الأناضول ومع هذا فلابد أن يكون انتشار الإسلام فى بلاد تعوّدت على المسيحية ، قد تم ببطء ، ففى النصف الثانى من القرن الثالث عشر ، كانت الجزية — وهى الضريبة التى تحصل من غير المسلمين — أهم مورد للحكومة الإسلامية المحلية ، مما يدل على أن عدد غير المسلمين فى ذلك الوقت كان كبيراً . ومما يزيد هذه المسألة صعوبة أن حركة التترك لم تمض جنباً إلى جنب مع حركة الدخول فى الإسلام ، كما كانت حركة التعرّب من قبل ، فمن الملاحظ أن السكان الذين احتفظوا بدياناتهم اليهودية أو المسيحية فى مصر وسورية ، قد اتخذوا العربية لساناً لهم . أما فى عهد الحكم التركى ، فقد قبل بعض المحتفظين بدينهم اللغة التركية ، ودخل بعض المحتفظين بلسانهم فى الإسلام ، ومن هنا بدأ الإسلام يوائم بين نفسه وبين لغة الأهالى . وفى النصف الثانى من القرن الثالث عشر ، كان سلطان ولد بن جلال الدين الرومى يقرض الشعر باليونانية إلى جانب الفارسية والتركية ، ولأشعاره هذه اليونانية والمكتوبة بالحروف العربية قيمة كبيرة لعلماء اللغة إذ أنها الذكرى الوحيدة للهجة الرومية فى منطقة قونية فى ذلك الوقت .

ولم يكن الإسلام ، ولا اللغة التركية وقتذاك قد أحرزا انتصارات هامة فى قافقاسيا ، ولكن كلمة (آذرى) التى كانت تدل منذ أقدم العصور على لهجة إيرانية خاصة ، أصبحت تدل الآن على اللهجة التركية التى يتكلمها كل أهالى آذر بيجان تقريباً ، ويتجاوز مجال انتشار هذه اللغة فى الشمال والجنوب حدود المنطقة الإيرانية التى ما زالت تحتفظ باسمها : آذر بيجان ، ولكن المعلومات الخاصة بانتشارها فى هذه المنطقة ترجع فقط إلى ما بعد الغزو المغولى ، حتى ليمكن الظن بأنه لولا الموجات التركية التى أتى بها هذا الغزو ما استطاعت اللغة التركية أن تحرز هذا التفوق .

وبعد قليل من انتصار سلاطين السلاجقة فى قافقاسيا انتقلت الأهمية السياسية

إلى يد المسيحيين فأصبح بذلك القرن الثانى عشر كله و بداية القرن الثالث عشر فترة تطور هام لدولة الكرج ، وكان المسلمون المجاورون للبيزنطيين والكرج يتعرضون طوال القرن العاشر و بداية الحادى عشر ، لصنوف من اعتداءات الفريقين، وذلك مع فارق هام ، وهو أن حكام الكرج لم يكونوا كالبيزنطيين يكنون الكراهية للمدينة الإسلامية ، بل كانوا يسكون العملة للبلاد العربية ، بالحروف العربية ولم يكونوا يميزون — كما قال مؤلف عربى — بين رعاياهم من المسلمين والكرج .

ولما كان أحفاد سلجوق يسعون بوصفهم (سلاطين الإسلام) إلى السيطرة على كل بلاد العالم الإسلامى، فلم يكن بد من أن يتجهوا بأنظارهم إلى آسيا الوسطى منشأهم الأصلى الخاضع وقتذاك لحكم القراخانيين . ولذلك فإنه فى الوقت الذى تمت فيه الفتوحات التركية الأولى فى الأناضول كان آلب أرسلان وهو السلطان فى ذلك الوقت يغير غارات موفقة على طول نهر سيحون ، وعلى بلاد القراخانيين ، وفى عهد ابنه وخليفته ملكشاه (١٠٧٢ — ١٠٩٢) بلغت امبراطورية السلاجقة أوج عظمتها ، فسار ملكشاه إلى مدينة (أوزكند) فى فرغانة ، وأخضع لحكمه خان كاشغر ، وهكذا امتد نفوذ (سلطان الإسلام) على آسيا الإسلامية كلها من حدود بلاد الأويغور شرقا إلى البحر المتوسط غربا ، ولئن كان الغزنويون فى الهند وافغانستان قد احتفظوا باستقلالهم ، فقد اضطروا فى عهد ابنه سنجر إلى أن يخطبوا باسمه على المنابر .

وفى آسيا الوسطى — كما فى غيرها — بلغ السلاجقة أهدافهم باستعمال القوة ، وليس لدينا دليل واحد لا على أن الأهالى الأتراك نظروا إليهم بوصفهم حكاما من أنفسهم ، ولا على أن هؤلاء السلاطين ، حاولوا الاعتماد على القومية التركية ، ولئن كان السلاجقة قد جعلوا من القراخانيين تابعين ، فلم يكن من الممكن أن

يجمعوا شمل الأتراك المسلمين جميعهم فى شكل دولة واحدة قوية ، ذلك أنه كانت لا تزال هناك فروق كبيرة بين الغز الذين هاجروا إلى الغرب ، و بين أتراك أسيا الوسطى ، بل إن الغز أنفسهم لم يكونوا رعايا مخلصين لسلاطين السلاجقة ، وقد اضطر سنجر وهو آخر أصحاب القوة من أحفاد سلجوق أن يحارب أمته ، كما كان يفعل خانات الترك فى القرن الثامن ،وقد وقع هذا السلطان أسيراً فى يد الغز ، ولم ينج إلا بالفرار .

القپچاق :

وعدا الأويغور المتحضرين المقيمين فى الشرق والذين لم تشملهم دائرة التأثر بالإسلام ، فقد كان يوجد فى الجهات الشمالية الغربية قوم من البدو لاعلم لهم بالإسلام من حيث هو دين ، وإن لم يكونوا أعداء للمدنية الإسلامية ، وأولئك هم القبجاق وفى القرن الحادى عشر زادت كثافة القبجاق الذين يقطنون حوض نهر إيرتش فانتشروا بسرعة فى أماكن واسعة من تلك الجهات ، ولما لم تكن بالمصادر التاريخية تفصيلات عن التغيرات التى طرأت على الأتراك القاطنين بحوض نهر إيرتيش فليس أمامنا ، لكى نحكم على هذه التغيرات إلا أن ندرس التغيرات التى طرأت على أسمائهم ، ومع أن اسم (إيرتيش) قد ورد غير مرة فى نقوش أورخون فلم ترد كلمة واحدة عن الشعب الذى يعيش هناك ، ولا بد أن تكون سلطة خاقان الغز الغربيين أو (التركش) قد امتدت إلى حوض نهر إيرتش .

ومع أن لكلمة إيرتيش بضع اشتقاقات شعبية فلا شك فى أنها غير تركية ، ويقرر جغرافيو العرب أن قوماً يقال لهم (كيماك) كانوا يعيشون فى حوض نهر إيرتيش ، وأنهم كانوا يشغلون مساحات واسعة تقع شمال الغز ، وتمتد غرباً حتى نهر (القولجا) أو نهر (قاما) وكان (قاما) فى نظرهم هو المجرى الأعلى لنهر ايديل) .

و يتكون شعب الـكيماك ، من عدة قبائل من بينهم القيجاق وأَمَك Emek و يرى ماركارت أن الـكيماك يتـكونون من قبيلتين ، وذهب إلى أن كلمة كيماك تتـكون من كلمتي (ايكى + اعماك) وهو فرض غير موفق .

وأما محمود الـكشغرى فلم يذكر كيماك ، ولـكنه ذكر أن قوم أمَك يقطنون على ضفاف ايرتيش وأنهم جيل من القيبچاق .

وفيما بعـد كان شعب (قانقلى) يذكر دائما مع شعب القيبچاق ، ولـكن محمود الـكشغرى يذكر كلمة (قانقلى) على أنها اسم لأحد عظماء القيبچاق لا على أنها اسم شعب . و يقول أيضا إن كلمة قانقلى معناها (عَرَبة) . و يقرر كتاب المؤرخ الفارسى البيهقى أن القيبچاق كانوا يحفون بحدود البلاد الإسلامية الواقعة فى جنوب بلادهم ، وأنهم كانوا جيرانا للخوارزمين ، وذلك قبل أن يؤلف محمود الـكشغرى كتابه بزمان طويل ، وقد تحدث الـكشغرى عن قوم من الترك يسمون (بولاق) أو (إلـكه بولاق) وقعوا أسارى فى يد القيبچاق ، ثم استطاعوا — بقوة الله — أن يتخلصوا من الأسر ، ولا شك أن هذه الرواية تتعلق بحركات القيچاق نحو الجنوب ، ونعتقد أن محمود الـكشغرى يلمح هاهنا — كما فعل فى مواطن أخرى — إلى حدث تاريخى ليتنا نحصل على معلومات مفصلة عنه . و يحتمل أن يكون زحف الغز فى القرن الحادى عشر نحو الجنوب والغرب ، ناشئا عن ضغط القيبچاق عليهم من الشمال ، وربما فسَّر لنا ذلك مايرويه جغرافيو العرب من توطن الغز فى القرن العاشر بشبه جزيرة مانغشلاق التى لم تـكن مسكونة من قبل،وقد ظل شبه الجزيرة هذا مهداً للتركمان حتى العصور المتأخرة إلى أن اضطروا مؤخراً تحت ضغط القازاق إلى الجلاء عنه

و بعد الثورة الروسية ، ألحقت شبه جزيرة ما نغيشلاق بقازاقستان ، ومما يؤكد التبدلات الاتنوغرافية التى حدثت فى القرن الحادى عشر أن الصحراء

التى كان جغرافيو العرب فى القرن العاشر يسمونها نسبة إلى الغز (صحراء الغز)، نسبت فى القرن الحادى عشر إلى القبچاق فسميت صحراء القبچاق (دشت قبچاق) . وقد احتفظت (دشت قبچاق) باسمها حتى بعد أن فقد القبچاق صفتهم كشعب مستقل ، ومثل ذلك عبارة (بحر الخزر) فقد ظلت تطلق على هذا البحر حتى بعد انقراض الخزر ، وقد بقى اسم (دشت قبچاق) مستعملا فى الكتب العلمية الإسلامية حتى العصور المتأخرة ، وورث القبچاق وشعب قاكلى وهو أوثق الشعوب صلة بهم — الأراضى التى خلفها الغز فى حوض نهر سيحون بعد هجرتهم ، والأراضى التى خلفها البچنك فى جنوب روسيا ، بعد أن ضيق عليهم الغز فاتسعت بذلك بلاد القبچاق اتساعا كثيراً ، وكانت منطقة السهوب الواقعة فى شمال تلك البلاد الشاسعة ، داخلة فى ممالكهم (القبچاق) وخاضعة لهم كما أنها الآن داخله فى قازاقستان ، ولم تحدث بعد ذلك هجرات من الشمال ؛ ومع أن القبچاق كانوا على صلة بالروس و بالأور بيين الغربيين ، فإن هؤلاء جميعاً لم يعرفوا كلمة (قبچاق) فكان الروس يسمونهم (بولووتسى) Polovtsy والأور بيون يسمونهم (قومان) Comans ولم ترد كلمة قومان فى المصادر الإسلامية فيما أعلم إلا عند الأدريسى (الذى حرر كتابه فى أور با فى القرن الثانى عشر) ، وعند من أخذوا عنه .

ومنذ وقت قريب وضع ماركات عن ظهور القبچاق كتاباً تجلى فيه علمه واقتداره ، وقد حاول فى هذا الكتاب أن يثبت أن شعب (قون) — وهو من شعوب الشرق الأقصى ، وذكره بعض المؤلفين المسلمين — جزء من القبچاق وأنه معروف فى أور با الغربية تحت اسم (كونى Cuni) وعلى الرغم مما أورد ماركارت من أدلة فإنى أعتقد أنه لم يوفق لا فى اثبات الهجرة ولا حتى فى إثبات وجود هذا الشعب ، وقد ذكر الكرديزى قوماً يسمون (فورى) ، يعيشون فى نفس المكان الذى يعيش فيه شعب (قون) أى إلى الشرق من

بلاد القيرغيز ، وكان قوم فورى أقل حضارة من القرغيز ، ويحتمل أن تكون كلمة (فورى) هى كلمة (بورى) بمعنى الذئب فى اللغة التركية ، وترد كلمة (فورى) بدلا من كلمة (قون) فى كثيرمن مخطوطات الكتب التى رجع إليها ماركارت وخاصة كتب البيرونى وعوفى ، ولذلك يجب أن نرجح استعمال كلمة (قونى) .

وأما المحاولات التى بذلها ماركارت -- مستنداً إلى بعض المصادر الصينية — ليثبت أن القبچاق كانت لهم فى القرن الثانى عشر أسرة حاكمة جاءت إليهم من الشرق الأقصى ، فليس فيها ما يقنع .

وتعتبر حالة القبچاق مثلانادراً ، وذلك من حيث إنهم يشغلون أقاليم واسعة ، دون أن تكون لهم وحدة سياسية ، ودون أن يؤسسوا لأنفسهم دولة ، نعم ، كان خاناتهم كثيرين، ولكن كان كل منهم على حدة ، ولم يحدث أبداً أن خضع القبچاق كلهم لخان واحد . وكانت البلاد التى يشغلونها فى ذلك الزمان خارجة عن حدود العالم الإسلامى ، وفى القرن الثانى عشر اشتركوا فى قافقاسيا ، فى الغارات ضد المسلمين، وأحيانا كان يحدث العكس فيتحد المسلمون والكرج لصد هجمات القبجان الآتية من الشمال ، ولم تكن هذه الغارات تهدف فقط إلى السلب والنهب ، بل كان يقصد بها الفتح ، وقد فقد المسلمون لمدة محدودة (در بند) ومنطقة (شابه ران) والمدينة التى تحمل نفس الاسم (وكانت تقع فى جنوب دربند) ولكن المسلمين — استطاعوا بمساعدة الكرج — استردادهذه الأماكن ، وقد ذُكِرَ الروسُ بين الأعداءالذين أغاروا على الأراضى الإسلامية من الشمال سنة ١١٧٥

ولكن كتب الحوليات الروسية لم تشر إلى شىء من هذا ، ولابد أن يكون هؤلاء الروس محاربين أحراراً ، لم يشترك معهم الأمراء الذين كانوا يحكمون روسيا فى ذلك الوقت .

وكان خانات القبچاق — وهم لا يزالون فى جنوب روسيا — يستخدمون أصحاب المدنية الإسلامية ولاسيما المتخصصين فى الشئون العسكرية ، ومع هذا فقد كانت هناك إمارات قبچاقية غير مسلمة على الحدود القريبة للبلاد الإسلامية ، وكانت تشتمل أحياناً على بعض المدن ، وكانت مدينة سوغنتاق [وهى الآن عبـــارة عن خرائب (سوتاق — قورغان)] عاصمة لإمارة قبچاقيه بينها و بين الخوارزميين علاقات ، وقد ذكر محمود الـكشغرى هذه المدينة بوصفها إحدى بلاد الغز ، وتصرح المصادر الإسلامية بأن شعبى القبچاق وقاكلى القاطنين فى تلك الجهات [كثيراً ما يذكر شعب قاكلى مع شعب القبچاق حتى أنه ليصعب التفرقة بينهما] قد أسلموا فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر نتيجة لصلاتهم الوثيقة بالخوارزميين ، ومعنى هــذا أن دخول كتلة الشعب التركية التى كانت تقطن صحراء القازاق الحــالية فى الإسلام فى صفر سنة ٤٣٥ هجرية (آخر سبتمبر أو أول أكتوبر سنة ١٠٤٣) لم يكن له أثر فيما بعد فى نشر الإسلام فى صحـــارى (القبچاق) . (ولا أعلم مصدراً أقدم من ابن الأثير أكد دخول هــذه الـكتل التركية فى الإسلام) وكما لم يذكر ابن الأثير اسم الشعب التركى الذى دخل فى الإسلام سنة ٩٦٠ فكذلك لم يذكر اسم هــذا الأخير ، واكتفى بذكر المجال الذى كان يزاول فيه رحلاته فى الشتاء والصيف ، ففى الشتاء كان يقيم فى نواحى (بالاساغون) وفى الصيف كان يرحل حتى يصل نهر (ايديل) = (قوبجـــا) ، ومع عظم هذا المجـــال الذى يتجول فيه هذا الشعب ، فلا بد أن يكون عدده أقل من عدد الشعب الآخر الذى أسلم سنة ٩٦٠ ، ذلك أن ابن الأثير قدّره بعشرة آلاف خيمة ، ثم قدره بعد ذلك أبو الفدا بخمسة آلاف (أسرة) فقط ؛ ولا يدلنا كتاب الـكشغرى ، على المدى الذى وصل إليه تأثير الإسلام ناحية الشمال الغربى ، وعلى العموم فلا يمكن أن نحدِّد الأماكن ولا الأقوام التى

يروى الكشغرى من أشعارها الشعبية والفنية ، والتى يتحدث عن عقائدها الدينية ، وعاداتها ، ونظمها فى إدارة الحكم . وترجع هذه الأشعار إلى أماكن مختلفة ، ومن بينها منظومات خاصة بالصراع بين مدينة (قاتون سيتى) وشعب التانگوت ومنظومات تصف نصف نهر ايديل .

إن مياه ايديل تتدفق

وتصطدم بالصخر

و بفيضانه زاد السمك والضفادع

وعدا الشعر الشعبى ، فهناك أشعار الصنعة ، ومن بينها أشعار خاصة بالبلاط ، وفى إحداها يسمى الشاعر نفسه (خادم ألخاتون) أى زوجة الملك ويقول انه بهذه الصفة قد نظم قصيدته ، وهذا النوع من الشعر يسمى (قوشوق) أى قصيدة ، ويوجد نوع آخر له وزن غير وزن القوشوق ويسمى تويوق ، وهى كلمة لم يذكرها محمود الكشغرى ، إذ لم يذكر إلا كلمة (چوچو) أو (چوجو) واكتفى بأن يقول أنها اسم شاعر ولم يذكر فى أى قوم نشأ هذا الشاعر ، ولا أين ومتى عاش .

وكما أن الثقافة الإيرانية لم تستطع القضاء دفعة واحدة على الشعر التركى القديم، فكذلك لم يمح دخول الأتراك فى الإسلام معتقداتهم القديمة بسرعة .

وظل الترك يعتقدون فى الإلهة (أوماى) المذكورة فى نقوش أورخون ، فقد كانت — كما يروى الكشغرى — روحاً يحفظ الأجنة فى بطون أمهاتها ، بل كان عند الترك مثل معناه (من يخدم أوماى يرزق ولدا) ، وفى نفس الكتاب ترد كلمة (يوغ) وهى اصطلاح قديم ومعناه (ذكرى الموتى) .

وكانت هذه الكلمة تطلق كذلك على المآدب التى تقدم للأهالى لمدة ثلاثة أيام أو سبعة بعد دفن الميت ، وكانوا يعتقدون أنه إذا قامت الحرب بين فريقين فإن الجن الذين يسكنون فى مواضع أحد الفريقين يحاربون الجن المقيمين فى مواضع

الفريق الآخر ، وذلك قبل أن يشتبك الفريقان بيوم ، ومن هنا فقد كان المحاربون لا يغادرون خيامهم ليلة القتال خوفاً من أن تصيبهم سهام الجن ، وكان عساكر الجن هؤلاء يسمون (جاوى) وكان يعتقد أن نتيجة معركة الجن هى التى تحدد نتيجة القتال .

وكانوا إذا ولد طفل سألوا (بوريى ؟ تيلكيمى ؟) أى أذئب ؟ أم ثعلب؟) وذلك بدلا من أن يقولوا : ولد أم بنت .

ومن التفصيلات الخاصة بإدارة الدولة أنهم كانوا يعدون العلامات المادية للخان الحاكم ومن هذه العلامات التوغ والبيرق ، وكان الخان يستطيع أن يملك تسعة بيارق . وإذا لقب خان (بصاحب الطوغات التسعة) فمعنى ذلك أنه من أقوى الخانات .

وترد كذلك بعض التفصيلات عن ملوك الترك غير المسلمين وهم ملوك الأويغور فيقال فى شرح كلمة (قامدو) إنها اسم لقطعة من قماش قطنى طولها أربعة أذرع (متران) وعرضها شبر ، يطبع عليها ختم الخان وتستعمل مقياساً فى البيع والشراء، وكانت هذه القطع ترقع وتنظف ويعاد طبع الختم عليها مرة كل سبعة أعوام . أما استعمال هذه القطع القطنية بدلا من العملة فقد ظل جارياً ومعروفاً فى تركستان الصينية حتى العهود الأخيرة . وفى كتاب الكشغرى تظهر أحياناً الفروق بين اصطلاحات الحكم عند القراخانيين وعند الغز أى أحفاد سلجوق ، فقد كان اصطلاح يارليق مثلا مستعملا عند (جيكيل) (الكشغرى ج ٣ ص ٣١) .

وقد استعمل فيما بعد عند (المغول) ولكنه لم يكن معروفاً عند الغز ، ومن جهة أخرى كان عند الغز اصطلاح (طغراج) ومعناه الختم وطابع الختم . وقد قال الكشغرى عن هذه الكلمة : لا يعرفها الترك ، وأنا أيضاً لا أعرف أصلها ، ومع أن ابن المهنا قد ذكر اصطلاحى: طغرا ويارليق فى صحيفة واحدة، فمن المعروف

أن اصطلاح (طغراً) لم يستعمله مؤخراً إلا السلاجقة ، وأخذه عنهم العثمانيون ولكنه لم يكن معروفاً عند أتراك آسيا الوسطى، و إن لمشكلة منشأ هذا الإصطلاح الحضاري الذي جاء به الغز من غرب آسيا والذي لا يعرفه غيرهم من الترك أهمية كبرى عند المؤرخين .

وفي المحاضرة التالية سنتناول علاقات الترك الثقافية بالشرق والغرب قبل الغزو المغولي ، وسنعالجها كذلك من نواحي أخرى .

المحاضرة السابعة

القراخطاى والحضارة
التركية فى كاشغر :

يتحدث الكشغرى عن الصراع بين القراخانيين وبين قوم (ياباقو) فى الشمال (وقد اختفى اسم هؤلاء من التاريخ فيما بعد) وبينهم وبين الأويغور فى الشرق ولكنه لم يتناول صراعهم مع الخطاى، مع أن الحروب بين الخطاى الذين كانوا يحكمون وقتذاك فى الشرق الأقصى وبين القراخانيين، بدأت منذ النصف الأول من القرن العاشر . وقد رأينا أن الصين ما زالت تسمى فى الاستعمال الجارى عند الروس والمغول، وعند بعض المسلمين باسم هذا الشعب قيطاى (خطاى) وذلك رغم أن حكمهم فى الصين قد انتهى منذ القرن الثانى عشر، بل يحتمل أن يكونوا هم ولغتهم قد انقرضوا إبان الحكم المغولى، وكانوا — وهم يحكمون الصين، يسمون أسرتهم (ليائو Leao) وبهذا الإسم عرفوا فى التاريخ الصينى، ولكن المصادر الإسلامية لم تستعمل هذا الاسم، فقد كان المؤرخون المسلمون يطلقون عليهم اسم (ختاى) وأحيانا (خطاى) بالطاء .

وقد وردت هذه الصيغة غير مرة فى كتاب الكشغرى نفسه، وبعد أن تحكم أباطرة أسرة ليائو فى شمال الصين، فتحوا بلاد المغول، وهناك إلتقوا فى سنة ٩٢٤ بالتجار المسلمين، وقد انفردت المصادر الصينية بتناول هذا الإلتقاء، فأما المصادر الإسلامية، فخالية تماماً من ذكره وطرد الخطاى القرغيز من منغوليا، ولا بد أن يكون هؤلاء القرغيز قد عادوا إلى حوض الينيسى، فقد كانوا فى العهود التالية يسكنون هناك . وكذلك خضع الأويغور وهم حكام منغوليا القدامى للخطاى وكانوا حين خضعوا لهم يسكنون تركستان الشرقية، وقد عرض عليهم الخطاى العودة

إلى منغوليا، ولـكنهم لم يستجيبوا لهذه الدعوة ، فقد كانوا تعودوا ـ فى تركستان ـ على الحياة الزراعية ، وعلى حياة الحضر .

وقد تحدث المؤرخون الذين كتبوا بالعربية عن الغارات التى كانت تتعرض لها بلاد القراخانيين من ناحية الشرق ، وذكروا أن المغيرين هم الخطاى . ذكر ذلك كثير من المؤرخين أولهم العتبى المعاصر للسلطان محمود الغزنوى ، ولو كانت هذه الغارات غزوات حربية لما أغفلتها المصادر الصينية التى تتحدث عن تاريخ أسرة ليائو . ولـكن هذه المصادر قد خلت من الإشارة إلى أى عملية حربية فى اتجاه الغرب . ويحتمل كثيرا ألاّ يكون أصحاب هذه الغارات هم الخطاى أنفسهم ، ولـكن القبائل المغولية التى يدفعها الخطاى إلى الهجرة ، والتى سكنت فى أول الأمر شرقى منغوليا ثم غربها ، ويؤيد هذا الظن كتاب أرسله قس نسطورى فى آسيا الوسطى إلى الجاثليق فى بغداد ، تحدث فى هذا الـكتاب عن هجوم قامَ به قوم منقسمون إلى ثمانية قبائل . ومن المحتمل أن يكون هؤلاء هم المغول المسمون (نايمان) وكانوا — فى عهد جنـكيز خان — يسكنون الجزء الغربى من منغوليا ومعروف أن كلمة (نايمان) بالمغولية بمعنى (ثمانية) وفى الـكتاب أن القوم المهاجم كان منقسما إلى ثمانية قبائل .

وكانت أسرة (ليائو) هذه أكثر الأسر الأجنبية التى حكمت الصين تمثلا للحضارة الصينية ، وقد اضطر آخر أعضائها إلى مغادرة الصين بعد أن قوى فى منشوريا شعب (جور —جين Djur — Djin) ، المسمى فى المصادر الإسلامية (جرجى) وهو شعب ينتمى أصلا إلا التونغوز ، فى سنة ١١٢٥ أسقط شعب جرجى أسرة ليائو ، وحل محلها فى شمال الصين ، وأسَّسَ الأسرة المسماة بالتركية (آلتون خان) وبالصينية (تسزين) وبالمغولية (آلتان خان) .

ولما هاجر آخر ملوك أسرة ليائو = الخيطاى إلى الغرب لم يتبعه إلا جزء

من شعبه ، و بقى الجزء الأكبر فى الصين ، وخضع لحكم الـ (جرجى) فلما قوى جنكيز خان ، وحاربهم ، أعلن شعب ليائو الثورة على جورجى ، وقد درج المؤرخون المسلمون على إطلاق إسم (قاراخيطاى) على كل الخطاى سواء منهم من هاجر إلى الغرب ومن بقى فى الصين وخضع لحكم الجورجى .

هجرة الخطاى نحو الغرب :

وإذا قسنا معلومات المصادر الإسلامية ، عن هجرة الخطاى نحو الغرب بمعلومات المصادر الصينية عن نفس الموضوع تبين أن الأولى أوضح وأكثر تفصيلا ، ذلك أن الصينيين اقتصروا على ذكر الهجرة التى قام بها الخطاى نحو تركستان تحت رياسة اخى آخر ملوكهم ، وقد مروا أثناء الطريق ببلاد الأويغور حيث وجدوا منهم العون .

وتنفرد المصادر الإسلامية بالقول بأن عاقبة هذه الهجرة كانت سيئة ، فقد بطش بهم خان كشغر ، وكتب السلطان سنجر السلجوقى بذلك إلى الخليفة فى بغداد ولكن جزءاً آخر من الخطاى ، نجح فى هجرته وهو القسم الذى كان طريقه أبعد قليلا إلى الشمال ، والذى اجتاز غرب منغوليا ، فمع أنه تعرض لهجمات القيرغيز القاطنين فى أعالى نهر ينيسى ، فقد استطاع الإفلات من قبضتهم ، وذلك بأن اتجه قليلا إلى الجنوب الغربى . وهناك بنى هذا القسم المدينة المسماة (أميل) التى تقع إلى جوار چوكوچاك الحالية ، والتى دارت فيها المعارك فى القرن الحادى عشر بين الياباقا والقراخانيين ، ولا بد أن تكون هذه المدينة ، قد ظلت فى القرن الثانى عشر — كما كانت فى القرن الحادى عشر — بعيدة عن دائرة التأثر بالإسلام .

وكانت منطقة بالاساغون — كما كانت من قبل — هى الطرف الشمالى

للبلاد الإسلامية فى تلك الجهات ، وكانت تحت حكم أمير قراخانى ، ومع أن الخطاى كانوا قد وصلوا فى أول أمرهم إلى نقطة تبعد عن بالاساغون مسيرة ثمانية أيام فقط فإنهم طردوا من هذه النقطة ، ولكنهم حين عاودوا الكرة بعد مائة عام عجز القراخانيون عن صدهم ، وساعدهم على النصر الخلاف بين خان بالاساغون ، و بين البدو الذين يعملون فى خدمته ، وقد انحاز الخطاى فى أول الأمر إلى الخان ، فلما انتصر عزلوه واستولوا على ولايته ، واتخذوا منها مقراً لرئيس حكومة القاراخيطاى ثم بدأوا بعد ذلك غزواتهم فى اتجاه الشرق ، فأخضعوا مملكة كاشغر التى عجزوا عن فتحها من قبل (حين جاءوها من الشرق). ثم وجهوا عساكرهم نحو الشمال الشرقى ليؤدبوا القيرغيز وهم أعداؤهم القدماء ، وخضع لهم كذلك الأويغور ، وفى سنة ١١٣٧ ، بدأوا يتدخلون فى شئون تركستان الغربية وانتهزوا أيضاً فرصة الخلاف بين الخان و بين رؤساء القبائل ، ولكنهم انحازوا فى هذه المرة إلى القبائل لا إلى الخان . وغُلِبَ خان سمرقند بالقرب خجند ، وفى سنة ١١٤١ هزموا السلطان سنجر فى صحراء قطوان شمال سمرقند ، وكان لهزيمة هذا السلطان القوى أمام الكفار أثرها عند معاصريه فقد وصل عنها خبر غامض إلى الصليبيين الذين كانوا يحاربون المسلمين فى ذلك الوقت فى فلسطين وشمال بلاد الجزيرة ، وراجت فى أوربا وقتذاك أسطورة خلاصتها أن ملكا قسيسا اسمه جان قام فى الشرق ليهاجم العالم الإسلامى ، متعاونا مع أبناء دينه الذين يحتلون الأراضى المقدسة والغالب أن تكون هذه الأسطورة انعكاسا لموقعة سنة ١١٤١ .

والواقع أن القاراخيطاى لم يذهبوا بعيدا بل وقفوا عند حدود جيحون ولكنهم مع ذلك استولوا بعد قليل على ولاية ومدينة بلخ الواقعتين جنوب هذا النهر ، ودخلت تحت حكمهم كل البلاد الإسلامية بتركستان ومن بينها بخارى وخوارزم ، وكان حكام القاراخيطاى المقيمون بجوار بالاساغون يسمون عند المسلمين وعند المغول باسم كورخان ، ولم يُصادَف هذا الاسم قبل القاراخيطاى ولا بعدهم ،

وما زال أصله ومنشأه لغزاً لم يحل ، ويقول المؤلفون المسلمون إن معناه (خان الخانات) ويحتمل أن يكون لفظ « كور » هو عين اللفظ المذكور فى نقوش أورخون وفى كتابى الكرديزى والكشغرى أو أن يكون أصله كول .

كان حكم هؤلاء « الكورخانات » مبسوطاً على مساحات واسعة تمتد من خوارزم إلى بلاد الأويغور ، ولكنهم لم يملكوا شيئاً بالصين ومع هذا فيقول الصينيون — واسم القاراخيطاى عندهم (لياتو الغربيون أنهم) — من ذرية امبراطور الصين ، وأضفى عليهم المؤرخون الصينيون — طبقا للأصول المتبعة عندهم — أسماء سنوات الملك ، وبيان ذلك أن الأسماء الشخصية لملوك الصين لا تذكر فى التاريخ ، ولكن يطلق اسم خاص على الفترة التى قضاها كل ملك ، وتعرف هذه الأسماء « بسنوات الملك » وبها تضبط الأحداث التاريخية ، ولذلك ظن من كتب عن الصين من الأجانب : المسلمين والأوروبيين أن الاسم المطلق على فترة الملك هو الاسم الشخصى للملك ، واعتبار القاراخيطاى — وهم غير صينيين ، وليس لهم حكم بالصين — من سلالة امبراطور الصين أمر فذ ليس له ثان فى تاريخ الصين ، فحين أخرج المغولُ من الصين فى القرن الرابع عشر ألغى اسم أسرة يوان — وهى أسرة أبناء جنكيز التى كانت تحكم الصين — ولم يفكر الصينيون فى إعلان أسماء خاصة على فترات حكم هؤلاء المغول بعد عودتهم إلى منغوليا .

ويدلنا الاستثناء الذى خُص به القاراخيطاى على مدى تمثلهم لحضارة الصين مما جعل الصينيين لا يعتبرونهم أجانب وافدين عليهم من الخارج .

دولة القراخطاى :

ونستطيع أن نقول — استناداً إلى المعلومات القليلة التى تمدنا بها المصادر الإسلامية عن حكومة الكورخانات — أنهم كانوا — بعد خروجهم من الصين وتوطنهم فى تركستان — يستعملون اللغة الصينية لغة رسمية ، وأنهم حملوا معهم

أصول الإدارة من الصين ، فكانوا يطلقون على الصهر الكلمة الصينية (فا — مو) — وكانوا يسمون العلامة المميزة للموظفين (پايزا) وقد استعمل المغول هذه الكلمة فيما بعد . وتتميز دولة القاراخيطاى على غيرها من دول البدو بأنها لم تعرف الانقسام حتى ليقال عن أول گورخان إنه (لم يرئس أحداً على أكثر من مائة فارس) .

ومع ذلك فقد كان مبدأ الحكم الذاتى مطبقا على نطاق واسع فى الإمارات الداخلية فى ملكهم ، ولم يشذ عن هذه القاعدة إلا بالاساغون ، فهناك ألغى الكورخان حكم الخان القراخانى وتولى بنفسه الحكم ، ولكن المدينة بقيت حتى بعد ذلك بزمان طويل — مسلمة ، وظل الخانات القراخانيون فى البلاد الأخرى المفتوحة مثل كاشغر وما وراء النهر ، يزاولون الحكم ويصرفون الأمور كسابق عهدهم ، وعند الخوارزميين فى الغرب والأويغور فى الشرق كانت الأسرة الحاكمة القديمة هى التى تتولى الحكم ، وكانت إطاعة الكورخان عبارة عن دفع الجزية له ، ومع هذا فقد كان للكورخان ممثل فى عواصم الولايات المتمتعة بالحكم الذاتى ، وكان هذا المظهر من مظاهر التبعية يتغير أحيانا فيأخذ شكلا لايخلو من الخطورة ، فكان ممثل الكورخان لايذهب إلى مقر الخان إلا لأخذ الجزية ، فإذا أخذها انصرف ، وكان الخان أحيانا يحظى بحق إحضار الجزية بنفسه إلى الكورخان ، وكانت الجزية عند القاراخيطاى (مثلها عند الصينيين) تدفع عن كل بيت على حدة فكانوا يأخذون دينارا ، أى قطعة ذهب عن كل بيت ، وهذا النظام مغاير للتقاليد الإسلامية ، ولعادات البدو على السواء ، وقد حاول المغول فى عهود مختلفة بالصين أن يأخذوا الجزية عن كل شخص ، ولكن الموظفين الصينيين قاوموا هذه القاعدة بشدة ، ولم تختف قاعدة القاراخيطاى وهى فرض الضريبة على البيت كوحدة دون أن تترك أثرها فى آسيا الوسطى ، فقد كانت لاتزال موجودة فى إمارات تلك المنطقة حتى القرن التاسع عشر .

ففى عهد خانات خوقند كانت الضريبة تؤخذ فى طشقند عن كل بيت ، وكانت تجبى على أساس دفتر قديم أعدّ ، وعدد المنازل قليل ، وكانت الضريبة فى عهد خانات خوقند (طلاً) أى قطعة ذهب عن كل بيت مثلها فى عهد القاراخيطاى فى القرن الثانى عشر ولكنا — مع الأسف — لانعرف النظام الضرائبى فى الفترة بين القرنين الثانى عشر والتاسع عشر ، ولذلك فلا نستطيع أن نربط تاريخياً بين هذا النظام فى عهد گورخانات القاراخيطاى وعهد خانات خوقند ، وربما كان هذا التشابه من باب الصدفة المحضة .

والآن فلا تزال بين أيدينا مسألة لم تحل ؛ لقد قامت للقاراخيطاى فى آسيا الوسطى دولة أخذت طابعها الحضارى من الشرق الأقصى ، فكيف كان تأثير هذه الدولة على مسلمى آسيا الوسطى بوجه عام وعلى الأتراك بوجه خاص ؟

لقد تناول ماركارت هذه المسألة وغيرها من المسائل فى كتابه المعنون [أصل القومان] Das Volkstum der Komanen حيث عنى عناية خاصة بدولة الكورخانات ، وهو يرى أن دولة القاراخيطاى كانت وحدها المتمدنة طوال فترة الاضمحلال الحضارى فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، ولكنه لا يؤيد رأيه بأى دليل ، ومن الواضح أن رأيه هذا ناتج عن موقفه السلبى إزاء الإسلام والأتراك بوجه عام . ولعل أول ما نلاحظه عن حياة [أسرة ليائو الغربيين] أنها كانت نكده ، نعم كانت بمنأى عن القلاقل التى يسببها وجود القبائل ، ووجود النظام الإقطاعى ، وهى القلاقل التى كانت تعم الدول الإسلامية والدول البدوية المعاصرة ، ولكن حكومتها — فى مقابل ذلك — كانت تقع أحياناً فى أيدى النساء وعشاقهن كما كان يحدث فى الصين ، وحدث أن قتلت إحدى هؤلاء النساء الحاكمات عاشقها ، فتلته بيديها على ملأ من الناس لأنه أساء التصرف وأغضب الشعب فرأت أن تقتله قبل أن

تستيقظ الفتنة . وليس بين أيدينا دليل على أن الكورخانيين كانوا يحاولون رفع المستوى الحضارى لشعبهم .

فلئن كانوا قد نزعوا السلاح من أيدى القارلوق (التابعين للقراخانيين) على أثر ثورة قاموا بها ، وحاولوا أن ينشئوهم تنشئة زراعية ، فإن هذه التجربة لم تنجح ، واضطر القراخانيون بعد مدة قصيرة إلى التنكيل برؤساء القارلوق .

ومن المشكوك فيه أن يكون الكورخانات قد استطاعوا فى وقت ما إقرار الأمن والسلام فى داخل بلادهم وخارجها ، فمع أن بلاد خوارزم كانت خاضعة للكورخان إلا أنها لم تلق أى معونة حين هاجمها السلطان سنجر السلجوقى بعد أن أفاق من هزيمته الأولى ، وليس لدينا معلومات عن تدخل الكورخانات أثناء الفتن الأخرى التى حدثت فى تركستان ، والخلاصة أن القاراخيطاى لم يكونوا يمثلون الحضارة العليا فى تركستان ، بل كان وزير آخر كورخان رجلا يدعى « محمود باى » وهو فى الغالب تاجر مسلم ، دلالة على أن ممثلى الحضارة الاسلامية كانوا يحتلون عند الكورخانات منزلة عالية .

ومع هذا فقد كان قيام دولة القاراخطاى سبباً فى التقدم الحضارى لأنه أعان على التقريب بين العناصر الحضارية المختلفة المتعايشة تحت ظلهم ، ومن المحتمل أن يكون وجود ولايات إسلامية تحت حكم أمير غير مسلم قد سبب انتشار العناصر الحضارية غير المسلمة نحو الغرب ، ولم يتضح حتى الآن السبب فى وجود آثار مسيحية باللسانين السريانى والتركى فى ولاية « يدى صو » بحوض نهر چو وبينما يرجع الجزء الأكبر من هذه النقوش وهو الموجود حول بحيرة « ايسيق كول » وفى حوض نهر إيله إلى القرن الرابع عشر ، أى إلى العهد المغولى ، فإن النقوش الموجودة بحوض نهر چوترجع إلى أوائل القرن الثالث عشر ، أى إلى عهد كان القاراخيطاى ما زالوا فيه يحكمون . ويرى (كاكوفتسوف)

عضو الأكاديمية الروسية الذى قام بمضاهاة الآثار المسيحية Kokovkov بولاية يدى صـــو بالآثار المسيحية فى ولاية طورفان — أن المسيحيين فى طورفان كانوا أعلى مدنية وثقافة من المسيحيين فى « يدى‌صو » ، ورأى — فى مسألة التأثير المتبادل بين مسيحيى تلك المنطقة — أن هذا التأثير كان يتجه من الشرق إلى الغرب. أى من طورفان إلى يدى‌صو وليس العكس ، وقد استطاع الأويغور البوذيون كما استطاع المسيحيون منهم — أن ينشروا نفوذهم نحو الغرب ، ومع أنه لا توجد إشارة إلى نفوذ الأويغور فى عهد القاراخيطاى فإن السائح رو بروق قد رأى البوذيين من الأويغور فى مدينة «قاياليق» شمال نهر ايلة ، وذلك فى سنة ١٢٥٣ أى أوائل عهد المغول .

ويحتمل أن يكونوا قد وفدوا على هـذا المكان وتوطنوا فيه أثناء الحكم القاراخطاى ومع أننا لا نملك الدليل على ذلك ، فإننا نعلم أن الترويج المسيحى كان نشيطاً طوال القرنين الحادى عشر والثانى عشر ، ونعلم أن كثيراً من الأقوام المغولية قـد قبلوا الدين المسيحى فى ذلك الوقت ، وترى المصادر الإسلامية — لا المسيحية وحـدها — أنّ قبائل (نايمان) فى غرب منغوليا ، والكرايت فى شرقها كانوا مسيحيين ، ويمكن أن يستنتج من أبحاث الأستاذ بليو أن الأنغوت القاطنين فى جنوب منغوليا المتاخمة للصين كانوا كذلك مسيحيين ، وقد التقى جنكيزخان فى بلاد نايمان (بحامل الأختام) = « تامغاجى » وكان أويغوريا فأخذ عنه جنكيزخان الأبجدية الأويغورية ، أى أنه يمكن القول بأن الأويغوريين كانوا يشتركون فى الترويج للمسيحية ! والوقع أن القواعد المتبعة فى نقوش أورخون وفى الوثائق الأويغورية مستعملة على شواهد القبور المسيحية فى يدى صو ، حيث نجد عبارة « واحد وعشرين » مستعملة بدلا من عبارة « أحد عشر » وهو دليل على أن نصارى يدى‌صو كانوا من الأويغور ، وكانت قصبة « بولاييق » فى شرق طورفان هى مركزهم الرئيسى .

وكانت كل النقوش التى وجدت هناك مسيحية مكتوبة بالسريانية والصغدية والتركية ، ومن الفروق بين مسيحيى يدى صوومسيحيى الأويغور أن الأولين كانوا يستعملون على قبورهم أبجدية سريانية الأصل ، أضافوا إليها بعض العلامات ولم يستعملوا الأبجدية الأويغورية المشتقة من الأبجدية الصغدية .

التجار المسلمون ونشر الإسلام :

والظاهر أن التبشير كان يمضى جنباً إلى جنب مع النشاط التجارى ، فالروايات السريانية تقول فى حديث تنصر الكرايت أن خانهم أخذ المسيحية أول الأمر عن التجار المسيحيين ، وإذا كان فى مسألة التبشير هذه مايلفت النظر فهو أن التجار المسلمين — مع انعدام الإشارة إلى نشاطهم فى منغوليا — استطاعوا أن يرفعوا المستوى الحضارى هناك ، بأكثر مما استطاع المسيحيون ، وقد أخذ المغول عن الترك كلمة (صارت) بمعنى تاجر ، وكما اشتقت كلمة (ضوغداق) من كلمة (صوغد) اشتقت كذلك كلمة (صارتاق) من كله (صارت) وأصبحت فى منغوليا علما على قوم ينجبون التجار وهم المسلمون الإيرانيون .

ومن قواعد المغول إذا أرادوا أن يقولوا مثلا (رجال هذا الشعب) أن يذكروا اسم الشعب ثم يضيفوا إليه كلمة (تاى) وهكذا كانت كلمة (صارتاقتاى) تستعمل فى منغوليا بمعنى رجال شعب صارتاق. (أوصارت) .

ومما يطلعنا على مدى تأثير الإيرانيين المسلمين فى منغوليا ، قصة المغول عن البطل الماهر الصناع (صارتاق) ، فقد أقام من أجل رى الأراضى أعمالا معجزة فوق الأنهار والبحيرات ، أى أننا يمكن أن نستنتج من ذلك أن المسلمين علموا المغول أصول الرى الصناعى ، ولم يكن المغول يطلقون كلمة صارتاق أو صارتاقتاى على أتباع قومية معينة فحسب ، بل كانوا يطلقونها أكثر من ذلك على صنف خاص من الحضارة . فكان جنكيزخان يطلقها مثلا على أول حاكم مسلم خضع له وهو الحاكم القارلوقى أرسلان خان أمير القسم الشمالى من يدى صو .

هذا مع أن لسان القارلوق كان التركية لا الفارسية ، واشتق المغول من نفس كلمة (صارت) كلمة (صارتاغول) أو (صارتاول) وكانت جارية الاستعمال منذ عهد جنكيزخان ، ثم ترجمها رشيد الدين فيما بعد بكلمة (تاجيك) وترجمها ابن المهنا بمعنى مسلم .

ويدل ظهور قصة صارتاقتاى — مع انعدام الاشارة إلى نشاط التبشير فى منغوليا — على أن نجاح التجار المسلمين فى أعمالهم التجارية بمنغوليا ، لم يكن ناتجاً عن انتشار الإسلام هناك (نجاح الأوربيين التجارى فى وقتنا هذا لا علاقة له أيضاً بانتشار المسيحية أو عدم انتشارها) وكان الأغنياء من تجار المسلمين ، يشيدون فى العهد المغولى المدارس والخانقاهات ، ولم تكن بين علماء المسلمين وتجارهم رابطة أى رابطة بل كان العداء يستحكم بينهم أحياناً والفرق بين تجارة المسلمين قديماً ، وتجارة الأوربيين الآن ، هى أن الأولى لم تكن فى أى وقت مرتبطة بالنجاح السياسى للبلاد الإسلامية ، وأن حدود الدويلات التى نشأت عن انقسام الامبراطورية الإسلامية الخاضعة للخليفة كانت كثيرة التغير ، بسبب تغير الأسرات الحاكمة ، ولذلك لم يجد الناس بدّا من أن ينظموا حياتهم بحيث لا تتأثر بتغيير الحدود المستمر .

وفى العهد السامانى — كما قلنا من قبل — ظهرت بين الترك فى الصحراء مستعمرات إسلامية لم يكن للسامانيين يد فى ظهورها ، ولم تكن هذه المستعمرات خاضعة لهم ولكن للحكام المحليين من الأتراك ، وظهرت هناك شركات تجارية ، يتعامل بعضها مع بعض ، ومع أن بنوك التسليف من الطراز الحديث لم يكن لها وجود ، فقد كان من الممكن لمن يحمل سندا محرراً فى بلد ما أن يقبض قيمته فى مدينة أخرى من قطر آخر .

ويروى فى كتاب أبى شجاع مؤرخ القرن الحادى عشر أن الحوالة التى يعطيها التاجر كانت أسهل صرفا من الحوالة التى تعطيها الحكومة . ولما كان

التجار الإيرانيون أكثر عدداً من غيرهم فقد شاعت الكلمة التى يستعملونها للدلالة على الحوالة وهى كلمة « چك » ، شاعت بصيغتها الفارسية لا بصيغتها العربية « صك » ثم انتقلت إلى غرب أوربا ، وعم استعمالها فى عالم التجارة ، ولا شك أن الأتراك كانوا يشتركون فى الأعمال التجارية بآسيا الوسطى ، وقد كانت كلمة « اورتاق » بمعنى شريك تستعمل عند المغول فى العهود المتوالية ، وتدل هذه الكلمة على الدور المهم الذى اضطلعت به الشركات فى تجارة ذلك الزمان ، ومع ورود هذه الكلمة فى كتاب الكشغرى ، فإنها لم تكن فى عهده تؤدى معنى « تاجر » ولكن كانت تدل فقط على الشريك ، ومن هنا يمكن القول بأن الشركات التجارية عند الترك بدأت تتطور بعد القرن الحادى عشر .

ولما كانت الحضارة الإسلامية تشغل فى ذلك الوقت المكان الأول بين الحضارات ، فقد كان أى صدام بينها وبين الحضارات الأخرى يؤدى فى النهاية إلى توسيع ساحتها .

ويختلف القارخطاى عن المغول ، فقد وفد الأولون على آسيا الوسطى بعد أن أشربوا حضارة الصين ، ولذلك لم يستطيعوا أن يدخلوا فى الإسلام ، ومع ذلك فإن تبعية المسلمين فى عهد القاراخطاى لحكام غير مسلمين ، أدت إلى انتشار الدين الإسلامى فى دائرة أوسع ، (ومع هذا فقد كان انتشاره فى عهد القاراخطاى أضيق نطاقا منه فى عهد المغول فيما بعد) .

وكما لم يكن للإسلام فى زمان الكشغرى أراض شمال إمارة بالاساغون فلم يكن له شىء أيضاً أثناء ظهور القاراخطاى . ولكن ولاية القارلوق المسلم أرسلان خان ، ومدينة قاياليق مالبثتا أن ظهرتا فى شمال منطقة يدى صو قبل مضى قرن على ظهور القاراخطاى ، أى قبيل ظهور المغول . ولا يمكن الآن تحديد مكان قاياليق إلا بطريقة تقريبية ، وقد مر السائح روبروق بهذه المدينة بعد قليل

من عبوره نهر إيلة فى طريقه إلى بحيرة « آلا كول » ، ويروى روبروق بهذه المناسبة أنه كان يرى — على بعد — بحيرة « بالخاش » ، ومن هنا يمكن الظن بأن الطريق فى ذلك الوقت ، كان يمر بنقطة أقرب إلى بحيرة بالخاش من طريق البريد الآن ، ولم تظهر مدينة قاياليق وحدها فى عهد القاراخطاى ، بل ظهرت أيضاً « إمارة قارلوق » وكان خان القارلوق تابعا للكورخان .

ولم يذكر الكشغرى ولا قصص فتوحات القاراخطاى مدينة « آلماليق » التى توجد خرائبها الآن فى شمال غرب مدينة « غولجة » ولم تكن هذه المدينة قبيل ظهور المغول فى قبضة الكورخان بل وقعت تحت حكم رئيس عصابة مناوئة له ، وكانت هذه العصابة تنتمى إما إلى القارلوق ، وإما إلى أتراك قانكلى ، ويوجد هذا الخلاف فى النسب ، فى كل النسخ المخطوطة القديمة من (تاريخ جهانكشاى) للجوينى ، وهو المصدر الأساسى الوحيد لدراسة أحداث أواخر القرن الثانى عشر وأوائل الثالث عشر ، ومهما يكن فقد كان حاكم آلماليق مسلما .

وفى أواخر عهد القاراخطاى — وهم غير مسلمين — كان لهم وزراء مسلمون وظهرت كذلك فى عهدهم ولايات إسلامية فى أماكن لم تكن مسلمة من قبل ، ومع هذا فقد بقى انتشار الإسلام نحو الشرق بطيئاً نسبياً ، لأن الأويغور كانوا يحولون دون ذلك ، وفى عهد المغول كانت حدود البلاد الإسلامية الواقعة إلى الشرق من مدينة (كوچا) هى نفس الحدود فى عهد محمود الكشغرى ، وقد وردت بخصوص كوچا رواية فريدة عن أحد أبطالها وهو خضر بك الذى ذاع صيته بعد انتصاره على الأويغور الذين كانوا يعدون فى ذلك الوقت أهل سلم وسلام لا قبل لهم بمواجهة الجنود الشجعان ، وقد أنعم خان كاشغر على خضر بك بلقب (خان) مكافأة له على صد هجوم الأعداء ، وأما فى القسم الجنوبى من حوض نهر تاريم ،

فقد تغير الوضع قليلا ، ففى عهد الـكشغرى كانت مدينة (جه رجه ن) هى حدّ بلاد الإسلام فى تلك المنطقة ، ولـكن ماركو پولو حين مر بها فى القرن الثالث عشر ، كان سكان منطقة (لوب — نور) مسلمين .

الدور الذى لعبه الترك :

ومن المسائل التى ما زالت معضلة ، مسألة اشتراك الترك فى حضارة آسيا الإسلامية : ما نوع هذا الاشتراك ! وإلى أى مدى أسهموا فى تلك الحضارة ؟ لم يكن الترك فى أى مكان تابعين تبعية كلية لحضارة العرب والإيرانيين ، ولم يحدث فى أى مكان أن تخلى الأتراك عن لسانهم ، ومع هذا فإن تأثير المدنية العربية والإيرانية على الترك كان من القوة بحيث لم تستطع اللغة التركية فى أى مكان أن تصبح لغة رسمية أو لغة ثقافة، فحتى القرن الثالث عشر كانت اللغة العربية لغة رسمية فى آسيا الصغرى، وهى أقصى بلاد الترك من ناحية الغرب وقد أشار إلى ذلك كتاب فارسى مجهول المؤلف ، حُرر فى آسيا الصغرى فى القرن الرابع عشر ولقد كنت فى أول الأمر أشك فى صحة هذا الخبر ، ولـكن النقوش الموجودة بالأناضول كانت تـكتب حتى القرن الثالث عشر باللغة العربية كما لاحظ ماكس فون بلخم ، وفى ذلك من غير شك تعزيز لما ذهب إليه ذلك الـكتاب.

ومما يؤيد تأثر السلاطين السلاجقة بقصص البطولة الإيرانية ، تسميهم بأسماء من قبيل كيخسرو وكيقباد ، ومع هذا فقد تصادَف عندهم أسماء تركية خالصة تدل على أنهم لم ينسوا أصلهم التركى ، ولم يكن وضع سلاجقة إيران يختلف عن ذلك ، فعندهم صارت الفارسية بالتدريج لغة الإدارة ولغة الثقافة،وحتى فى تركستان وهى تحت حكم القراخانيين ، كانت الفارسية تزاحم العربية ، فى ميدانى الإدارة والأدب ، ومما يلفت النظر فى هذا الباب ما حدث لـكتاب (تاريخ بخارى) ، فقد حرر هذا الـكتاب فى عهد السامانيين -- أى فى القرن العاشر باللغة العربية،

ثم ترجم فى القرن الثانى عشر إلى الفارسية وقيل فى سبب ترجمته إلى الفارسية، أن الناس لم يكونوا يميلون فى ذلك الوقت لقراءة الكتب العربية وفقدت الكتب العربية منزلتها حتى فى تدريس العلوم الإسلامية، وظهر أساتذة كانوا يلقون الدروس بالفارسية، ثم بدأت هذه اللغة تستعمل فى التدريس للمبتدئين، فيذكرون مثلا عن مجد الدين عبد الغافر المولود سنة ٤٥١ ، وصاحب ذيل تاريخ نيسابور ، أنه قرأ أصول الإسلام بالفارسية وهو فى الخامسة من عمره ، ومهما يكن فقد ظلت العربية لغة القضاء فى بلاد القراخانيين ، وفى ولاية كاشغر ، حتى النصف الثانى من القرن الثانى عشر ، ومن بقايا ذلك وثيقة قانونية نشرتها فى مجلة مدرسة اللغات الشرقية . بلندن ومعها ترجمتها الإنجليزية ، وقد نشرت الترجمة التركية لهذه الوثيقة فى العدد الأول من (تركيات مجموعة سى) وهى ترجع إلى عهد بغراخان الذى كان يحكم حين ألف فى كاشغر كتاب قوتا دغو بيليك . ومع ذلك فإن الوثائق التى ترجع إلى هذا العهد و إلى العهود التى تلته تدل على أن اللغة التركية فى عهد القراخانيين كانت إلى حدما لغة اصطلاحات إدارية ، ففى سمرقند مثلا — ولم يكن بين سكانها على الأرجح ناطقون بالتركية — كانت توجد كلمات تركية فى الاصطلاحات الحكومية ، فمثلا كانت تضاف الصفة التركية (أولوغ) إلى كلمة (وزير) ثم أضيفت نفس هذه الكلمة إلى عبارة (سلطان السلاطين) التى نقشت على عملة خانات سمرقند فى نهاية القرن الثانى عشر .

وقد ظلت هذه الأسرة تستعمل الأسماء والألقاب التركية حتى انقرضت ، وكان من عادة القراخانيين — إذا ولى الخان الملك أن يستبدل باسمه القديم لقبا جديداً يستعمل بدلا من اسمه الخاص . وهى عادة عرفت عن خانات الغز الذين كانوا يحكمون قديماً فى منغوليا ، ومن هنا يصعب على المؤرخين عند ما يجدون ألقابا مختلفة منقوشة على عملة سكت فى وقت واحد ، وفى مكان واحد ، أن يعرفوا أترجع هذه الألقاب إلى شخص واحد أم إلى أشخاص مختلفين ، ولكن اللغة

التركية مع هذا لم تكن فيما نعلم لغة الأدب فى سمرقند ، فقد كان الشعراء الفرس يعيشون فى سراى الخان وكانوا موطن عنايته وإحسانه ، وكان الإنتاج الأدبى باللغة التركية أكثر إمكانا فى كاشغر منه فى غيرها ورغم ذلك فإن تأثير الأدب الفارسى كان آخذاً فى القوة ، حتى لقد ألّف هناك فى القرن السابع عشر كتاب تاريخى باللغة الفارسية ، ولكن كثرة الأخطاء النحوية فى هذا الكتاب تدل على أن مؤلفه لم يكن فارسىّ اللسان ، ولا معتادا على استعماله .

كتاب قوتادغو بيليك :

ففى كاشغر ألف للخان وباللغة التركية كتاب أخلاق هو كتاب قوتادغو بيليك وذلك فى سنة ٤٦٢هـ « ١٠٦٩ — ١٠٧٠ » والمؤلف رجل من بالاساغون اسمه يوسف كان يعمل حاجباً فى السراى، وأما معنى هذا العنوان التركى « قوتادغو بيليك » فهو « العلم الذى يسعد » أو « العلم اللائق بالملوك » .

فإن كلمة (قوت) أى (البخت والسعادة) كانت تستعمل فى كل مكان وحتى فى مواضع كثيرة من كتاب قوتادغو بيليك ، أداةً للتعظيم مثل عبارة (صاحب الفخامة) وكان من المألوف قديماً فى الشرق — ومن جملته إيران — أن تؤلف الكتب الأخلاقية التعليمية للملوك وأصحاب المناصب، ولكل الطبقات، وأهم مافى هذه الكتب ما ترويه من الحكايات التاريخية والأسطورية التى يراد بها تأييد ما ترويه من النظريات الأخلاقية ، والنصائح ، ولكن كتاب يوسف البلاساغونى خال تماما من كل ذلك ، فليس به اسم واحد لشخص تاريخىّ وليس الملك « إيليك » الذى يتحدث عنه شخصاً حقيقياً ، وإنما هو رمز للعدالة وأما الفضائل الأخرى فيمثلها وزير إيليك وابنه وأخوه ، ولا شك أن كتاب قوتادغو بيليك أقل قيمة من الكتب الفارسية المكتوبة بنفس الأسلوب .

وقد أشير فى مقدمة الكتاب إلى أن الكتب كثيرة باللغتين العربية والفارسية

بينما لا يوجد كتاب واحد باللغة التركية ، وتدل هذه الإشارة على أن الترك كانوا قد نسوا سريعاً الكتب التركية البوذية والمانويه والمسيحية ، والظاهر أن الشعر التركي الإسلامي الذي اكتشف بفضل كتاب محمود الكشغري لم يستطع أن يكون سبباً في ظهور كتب أدبية أخرى . هذا ولم يكن بدّ من أن يظهر الأدب التركي أول ما يظهر في كاشغر ، فقد كان أهلها كما يقول الكشغري يتحدثون أفصح لسان تركي وهو (التركي الخاقاني) بينما كان القرويون في نفس الولاية يتحدثون لغة (كنجاك) أي لغة السكان الأصليين الذين تتركوا فيما بعد ، ولم يكونوا أصلا من الترك .

والآن نتساءل إلى أيّ حد كان قوتادغوبيليك من حيث أسلوبه وطرز أدائه متصلا بالتقاليد التركية القديمة ، ثم ماذا كان أثره على معاصريه ؟

إن لهذا الكتاب ثلاث نسخ كتبت أولاها بالحروف الأويغورية في هراة سنة ١٤٣٩ وكتبت الأخريان بالحروف العربية ، وتوجد إحداها في القاهرة ، والأخرى في فرغانة .

وأما الأبجدية التي سطر بها المؤلف كتابه أولا وهل هي الأويغورية أم العربية ؟ فإن ذلك ما زال حتى الآن موضع جدل ، ولا شك في أن اسم الكتاب ، واستعمال كلمة (قوت) (بمعنى صاحب الجلالة) يدلان على أن أثر الإسلام ، وأثر إيران لم يكونا قويين في كاشغر ولم يستطيعا إخراج اللسان التركي من سراي الخان .

وفي العهد المغولي — أي بعد زمان قليل من تأليف الكتاب — كان اسمه « قوتادغو بيليك » مستعملا عند المغول ، كانوا يطلقون على مجموعة من الحكم تنسب إلى جنكيزخان ، وكانت تعتبر — مثلها كمثل الياسا — مصدراً للقوانين المطبقة في إمبراطورية المغول ، ثم في الدويلات التي قامت على أنقاضها ،

ويُرى من كلام ابن عربشاه وهو من رجال القرن الخامس عشر ، أن كلمة قوتادغو كانت تستعمل عند المغول ، وكانت تعتبر كذلك اسما للأبجدية الأويغورية وقد أخطأ ابن عربشاه حين خلط بين كلمة « قوتادغو » وبين اسم القبيلة التى ينتمى إليها جنكيزخان ، فإنه بدلا من أن يقرأها « قيات » قرأها « قتات » ، ويقول البعض أن قوتادغو بيليك بغراخان أثر على المغول من ناحية عنوانه على الأقل ، وأنه كان سبباً فى ظهور قوتادغو بيليك جنكيزخان .

ولكن ، لم يبق أدنى شك — بعد أن نشر كتاب الكشغرى — فى أن رعايا القراخانيين من الترك ، لم يكونوا يسمون أنفسهم « أويغور » ولم يبق شك أيضاً فى أن يوسف البلاساغونى لم يحرر كتابه بالأويغورية ، وإنه لمن المستحيل أن يكون الأويغور — وكانوا يحتفظون بالبوذية والنصرانية — قد تأثروا بقوتادغوبيليك مع سريان الروح الإسلامى فى كل تفصيلاته ، وأن يكونوا قد أثروا بدورهم على المغول ، بهذا الكتاب الذى أخذوه عن القراخانيين المسلمين .

وقد كتب (قوتادغو بيليك) قبل أن يشرع محمود الكشغرى فى تدوين كتابه بسنتين فقط ، فهل رآه الكشغرى أم لم يره ؟ إن الكشغرى نفسه لم يجب عن هذا السؤال ، ولكنه يقول إن كتابه اللغوى ليس له نظير فيما كتب من قبل ، ولم يكن المستشرق مارتن هارتمان يرى فروقا أساسية بين كتاب يوسف البلاساغونى وكتاب محمود الكشغرى ، وكان ينسب الأول إلى أدب السّراى ، والثانى إلى الأدب الشعبى ، ولا بد أن تكون هذه الدعوى خاطئة ، فقد رأينا من قبل أن من بين ما يورد الكشغرى من الأشعار أشعاراً خاصة بالسراى ، ورأينا من ناحية أخرى أن يوسف البلاساغونى قد أفاد — فى نصائحه الأخلاقية — من

الحكم أو الفلسفة الشعبية بل أن بعض الفقرات المتفرقة فى (قوتاد غو بيليك) هى هى عينها نماذج الأدب الشعبى التى يدرجها محمود الكشغرى ، ولاشكّ أن من قرأ قوتاد غو بيليك سيذكره فى الحال عندما يقرأ فى كتاب الكشغرى عبارة (اردم باشى تل) أى (رأس الحكمة فى اللسان) .

ومما يدل على أن قوتاد غو بيليك كان بعيد الصيت فى عهده (رغم أن نسخه التى كشفت حتى الآن قليلة العدد) ، أنه عثر فى مكان اسمه (سرايجق) بالقرب من مصب نهر (ياييق) على زهرية من الفخار نقشت عليها أبيات منه ومنذ عهد قريب عُثر فى تركيا على كتاب عنوانه (هبة الحقائق) أو (عيبة الحقائق) ونشر هناك . ويتناول هذا الكتاب ـ وهو يرجع إلى عهد أحدث من عهد قوتاد غو بيليك نفس الموضوع الذى يتناوله هذا الأخير ، فهو يحتوى على نصائح أخلاقية عادية ليس بينها و بين وقائع الحياة الحقيقية أى علاقة .

ومؤلف هذا الكتاب هو أحمد بن محمد يوكناكى ، كتبه بلغة كاشغر وأهداه إلى الأمير دادسپهسالاربك . ويدل كشف هذا الكتاب على أن قوتاد غو بيليك لم يكن نسيج وحده ، كما يدل على وجود عهد أدبىّ خاص فى الأدب التركى هو (العهد الكاشغرى) ولا بدّ أن أثر هذا العهد كان ضعيفاً جداً على أدب العهود التى أعقبته .

التأثير الصينى :

وكانت آثار الصلات الوثيقة القديمة بين الترك وحضارة الصين لا تزال حية فى ذلك الوقت ، ولم تكن قاصرة على استعمال لقب خان ، بل يُفهم من كتاب الكشغرى أن القاراخطاى كانوا يستعملون على عهده كلمة (تاپانكو) وهى إسم صينى يقابل الكلمة العربية (حاجب) ويقال أيضاً أنه مشتق من المصدر

التركى (ته يه تمه ك) بمعنى الاعتماد والائتمان ، وقد استطاعت كلمة (قونجوى) الواردة فى نقوش أورخون، والمقابلة للكلمة العربية (أميرة) ، أن تواصل سيرها حتى زمان محمود الكشغرى ، ولكن كلمة (خاتون) كانت تدل فى ذلك الوقت على معنى اسمى من كلمة (قونجوى) .

ومن بين الكلمات الكثيرة الواردة فى كتاب الكشغرى والدالة على آثار الحضارة المادية كلمة (ألاتو) وهى كلمة هامة يفسرها الكشغرى بقوله: قطعة حرير يمسك الرجل فى حجره (جيبه) لينظف بها أنفه (ديوان لغات الترك ج ١ ص ١٢٢).

ومن المعروف أن منديل الأنف لم يكن يستعمل فى العصور القديمة والمتوسطة لا عند اليونان القدماء ولا عند المسلمين ، ولكنه كان يستعمل منذ أقدم الأزمنة فى الصين واليابان ، ولم يستعمله الأوربيون إلا فى القرن الخامس عشر ، بعد أن عرفت حضارة الشرق الأقصى .

ولكنه كان يستعمل قديما فى منغوليا ، ولا بدّ أن يكون الترك قد استعملوا المنديل فى القرن الحادى عشر ثم بقى لهم فيما بقى من آثار حضارة الشرق الأقصى بعد أن تقلص نفوذها .

وكان مركز الأدب التركى الإسلامى بعد العهد الكشغرى هو الأماكن الواقعة جنوب نهر سيحون والتى تضم خوارزم ، وسأبين فى المحاضرة القادمة أهمية هذه الأماكن فى تاريخ الترك .

المحاضرة الثامنة

علاقات الخوارزمشاهيه بالمغول

تتريك خوارزم :

رأينا فيما تقدم أن التجارة بين خوارزم و بين الأقوام البدوية فى آسيا الوسطى كانت أهم لخوارزم منها للولايات المتحضرة الأخرى ، وذلك بسبب وضعها الجغرافى ، وكان من الطبيعى أن يؤثر هذا الوضع نفسه على سكان خوارزم من الناحية الأتنوغرافية واللغوية ويبدو أن هذا الأثر كان موجوداً منذ كان جيران خوارزم بدواً من أصل إيرانى .

ومما يجدر ذكره أن بعض العلماء حاول أن يرجع أصل الخوارزميين إلى شعب (اللان Les alains) الذى كان يقطن فى الصحراء الممتدة من منابع سيحون إلى منابع نهر دون و بعد أن تتركت هذه الصحراء تعرض الخوارزميون أكثر من غيرهم للتأثر بالترك، وقد كانت لغة الخوارزميين فى العصور الإسلامية الأولى لغة إيرانية ، و إن لم تكن مفهومة عند باقى الإيرانيين ، ولم تكن لغة حديث حسب ولكن كانت لغة أدبية ظلوا يكتبون بها حتى القرن الحادى عشر . ومهما يكن فإن الكلمات التى توصف فى المعجمات الفارسية بأنها كلمات خوارزمية هى فى جملتها كلمات تركية خالصة و بالإضافة إلى هذا فقد ورد أن الخوارزميين فى القرن العاشر يشبهون الترك فى أزيائهم :

ويقرر المؤلفون الذين كتبوا عن خوارزم فى القرن الثالث عشر ، أى فى العهد المغولى أنها كانت من حيث اللغة — تركية تماماً ومعنى هذا أن الخوارزميين تتركوا فى الفترة بين القرنين الحادى عشر والثالث عشر ، وهى الفترة التى خضعت فى أثنائها للأمراء التابعين لسلاطين السلاجقة ، وكان

هؤلاء الأمراء — على نشأتهم التركية — يحتفظون باللقب الإيرانى القديم (خوارزمشاه) وقد تأسست دولة هؤلاء الخوارزميين فى السنوات الأخيرة من القرن الحادى عشر وكانت أسماء أكثرهم تركية .

وفى عهدهم صارت خوارزم للمرة الأولى والأخيرة فى تاريخها مركزاً لدولة كبيرة ، وكانوا — وهم لايزالون تحت حكم السلاجقة يسيطرون بالتدريج على القسم الشرقى من العالم الإسلامى ، حتى أنهم لما انقرضت دولة السلاجقة أنكروا على خليفة بغداد أن يسترد سلطته الزمنية عليهم ، وكان قد فقدها مؤقتاً فى منتصف القرن الثانى عشر . وادعوا أنهم ورثوا كل ما كان للسلاجقة من حقوق بوصفهم (سلاطين الإسلام) ، بل طالب المتأخرون منهم بأن يُعترف بسلطانهم فى بغداد كما كان معترفا بسلطان السلاجقة من قبل .

وكانت خوارزم فى ذلك الوقت متأثرة بالمدنية الإيرانية ، وكان من بين الخوارزميين شعراء وعلماء يكتبون بالفارسية ، وإلى هذا فقد كانت لغة المعاملات الرسمية فى عهد الخوارزمشاهيه ولكنها — كما حدث فى الصغديانة — لم تحل غالباً محل لغة الخطاب عند جمهرة الشعب الخوارزمى ، بل بقيت اللغة الخوارزمية فى الغالب لغة الشعب إلى أن تخلت عن مكانها فى نهاية الأمر للغة التركية .

ولا بد أن تكون حركة التترك قد أدركت مبكرا المستعمرات الحضرية بحوض نهر سيحون ، وهى المستعمرات التى أقام الخوارزميون بعضها ، وأقام الصغد — فى الغالب — بعضها الآخر ، وآية هذا أنه وجدت هناك فى القرن الحادى عشر مدن يسكنها الترك : فيذكر الكشغرى من مدن الغز مدينة صاوران (كانت هذه المدينة التى ما زالت موجودة إلى الآن إحدى مدن الحدود فى عهد السامانيين) ثم مدينة (صوغناق) ، (وكانت فى القرن الثانى عشر عاصمة لبلاد القبچاق غير المسلمين ، وتسمى خرائبها الآن صوناق قورغان) .

وفى الجنوب الشرقى من (صاوران) و بينها و بين فاراب أو (أوترار) يذكر جغرافيو القرن العاشر مدينة (شاوغار) و بالنظر إلى المسافة المذكورة بكتب الجغرافيين يمكن القول بأن هذه المدينة كانت فى مكان مدينة (تركستان) الحالية ، ومع أن كلمة (شاوغار) كلمة إيرانية فإنا لا نعلم أ كان سكانها فى القرن العاشر تركا أم إيرانيين . وفى نص لابن حوقل أن الحملة التى قام بها نصر بن أحمد السامانى (٩١٤ — ٩٤٣) على رأس ثلاثمائة ألف جندى (فى هذا العدد مبالغة) ، كانت موجهة ضد هذه المدينة ؛ فإن صح ذلك فإنه يدل على أنها كانت عاصمة لحاكم قوى ، ولكن اسم هذه المدينة يرد فى نسخ الاصطخرى — وهو مصدر ابن حوقل — بصورة مغايرة تماما ، فمن أجل ذلك ، وبما أن المصادر الأخرى لم تذكر شيئاً عن هذه الحملة فإن وجهة هذه الحملة ما زالت محلا للسؤال . وكانت توجد فى حوض سيحون مدينة أخرى باسم (شاوغار) تقع على بعد أربعة فراسخ (٢٤ كيلو) جنوبى مدينة (اوليا أتا) ، وأما عبارة السمعانى: (ناحية ثغور الترك) . (هذه العبارة منقولة من مصدر عن مصادر القرن الحادى عشر) ، وعبارة ياقوت (من بلاد الترك) (أخذها ياقوت عن عمرانى وهو من مؤلفى القرن الثانى عشر) فيمكن إسنادها إلى كل من المدينتين اللتين تحملان اسما واحدا .

أحمد اليسوى :

ولم يذكر السمعانى ولا ياقوت مدينة ياسى (yasi) أو يه سى yesi التى كانت تقع فى مكان مدينة تركستان الحالية، رغم أنها كانت موجودة فى القرن الثانى عشر حيث ذاع صيت أحمد اليسوى أو (الياساوى) الذى نشأ أو على الأقل عاش فيها ، ومات . وقد توفى اليسوى فى ٥٦٢ هـ (٧ — ١١٦٧) ، وفى رواية أخرى أن أحمد اليسوى نشأ فى صايرام . ولا يمكن أن يكون المراد هو مدينة

صايرام الواقعة بشرق تركستان (لأن هذه المدينة لم تكن وجدت في ذلك العصر ، بل أنشئت في القرن السادس عشر . أنشأها المهاجرون من صايرام بغرب تركستان) بل الراجح أنها صايرام الواقعة إلى الشرق من جيمكه نت Tchimkent الحالية بغرب تركستان والمعروفة أيضاً باسمى (اسفيچاب) و (آق شهر) المذكورين في كتاب الكشغرى .

ولا بد أن يكون أحمد اليسوى الذى يلقبه الترك (آتايسوى) ذا أثر كبير في نشر الإسلام والتصوف بينهم . وقد انتشرت أشعاره التركية المفعمة بالروح الصوفى بين الشعب ، وما زال الشعراء الشعبيون في آسيا الوسطى يتأثرون خطاه حتى الآن .

ولكن أشعاره هذه لم تصل لنا — بسبب شعبيتها — بشكلها الذى كتبتْ به أول مرة . وذلك أن النساخ الذين كتبوها كانوا يحوِّرون لغة النسخة الأصلية بما يلائم عصرهم . وكانوا يضيفون إليها من عندهم . وأما ترجمة حياة أحمد اليسوى فلا نعرفها إلا من الحكايات الخرافية المتأخرة ، وتروى هذه الحكايات أن سلف أحمد اليسوى ولىّ تركى اسمه (أرسلان بابا) أو (باب ارسلان) (من المعلوم أن كلمة باب كانت تطلق على المبشرين المسلمين في تركستان) . وكان منصور آتابن أرسلان بابا كبير خلفاء أحمد اليسوى ، أما أحمد اليسوى فكان الخليفة الثالث للمتصوف الإيرانى يوسف الهمذانى الذى هاجر من همذان إلى تركستان ، وقد عاش الهمذانى سنوات كثيرة في مرو شيخاً للصوفية وتوفى سنة ١١٤٠ ، ويقرر كاتب حياة الهمذانى ، أنه لم يعرف التركية أبداً ، ولكن هذا لم يمنعه من أن يَتَخِذَ مؤسس التصوف التركى تلميذاً له ، وكان ثانى خلفاء يوسف الهمذانى ، أى السلف المباشر لأحمد اليسوى هو الشيخ أبو محمد حسن بن حسين الأنداقى ، ويمدنا السمعانى ببعض المعلومات عن هذا

الانداقى المتوفى سنة ١١٥٧ والذى كان صديقه ومعاصراً له ، ولكن السمعانى لا يقول شيئاً عن اليسوى بل لا يذكره فى كتابه المخصص للأنساب، وبخاصة أنساب علماء الدين ، إذ ليس بهذا الكتاب نسبة (يسوى) .

وتدل القبة الفخمة التى أقامها تيمور فوق قبر أحمد اليسوى قبيل نهاية القرن الرابع عشر على أن اليسوى ظل مدة طويلة مقدساً كصوفى تركى فى حوض نهر سيحون ، ولليسوى مريدون وخلفاء كثيرون يكتبون بالتركية ، ويحملون لقب (آتا) ومن بين هؤلاء (حكيم آتا) أو (سليمان باقرغانى) الذى كان يزاول نشاطه فى خوارزم ، والذى كتب بالتركية مجموعة من النصائح الصوفية كالتى كتبها أحمد ، إلا أنه كتبها نثراً ، وكتبها أحمد شعراً . ، وكانت كلماته — مثل كلمات أحمد اليسوى بسيطة تخاطب جمهرة العوام .

الأتراك وحضارة خوارزم :

ويهمنا الآن أن ندرس الحياة فى خوارزم أثناء الفترة التى تم فيها تتركها ، وبهذه الدراسة نستطيع الإجابة عن هذا السؤال : إلى أى حدّ كان تكاثف الترك التدريجى فى خوارزم سبباً فى سقوط الحضارة ؟

كان المستشرق الألمانى نولدكه أكثر المستشرقين مبالغة فى القول بأن العنصر التركى عدو للحضارة ، ثم فى الارتكاز على هذه النقطة وحدها للحكم على كل الأدوار التاريخية التى لعبها الترك، فعنده أن فتح الترك لبلاد السامانيين كان أفدح مصيبة رميت بها هذه البلاد . وقد كرر هذه الدعوى منذ زمن قريب (١٩٢٤) على صفحات « إسلام Der Islam فقال إن دخول الترك فى العالم الإسلامى المتحضر بعد سقوط دولة السامانيين الإيرانية كان نكبة هائلة فى تاريخ العالم كله » ، وقد كانت خوارزم نموذجاً للبلاد المتمدينة التى لم تخضع للحكم التركى من الناحية السياسية فحسب بل قبلت أيضاً أن تحل اللغة التركية محل لغتها القديمة ، ومع هذا

فمن المتعذر أن نورد وقائع تدل على أن خوارزم كانت أقل حضارة فى القرن الثالث عشر (أى فى عهد الحكم التركى) منها فى القرنين العاشر والحادى عشر (أى قبل الحكم التركى) ويدل كلام ياقوت عن خوارزم — وقد أقام بها قبيل الغزو المغولى مباشرة — على رقى الحياة الحضرية ، وعلى زيادة الأراضى الزراعية، وخاصة فى الجنوب الغربى من المنطقة . وتقرر مصادر أخرى أن تجار خوارزم كانوا يزاولون نشاطهم التجارى ونفوذهم فى أماكن من آسيا الوسطى أبعد من الأماكن التى كانوا يتعاملون معها من قبل ، ويدل على ذلك أن سفيراً من قبل جنكيزخان وصل إلى محمد خوارزمشاه فى سنة ١٢١٨ واسم هذا السفير (محمود الخوارزمى) ومن المحتمل أن يكون هو نفس (محمود يلواج) أى (السفير محمود) الذى كان والياً على بكين فى العهد المغولى والذى كان ابنه مسعود بك يحكم البلاد المتحضرة بآسيا الوسطى .

ويمكن أن نفرض — استناداً إلى أن مسعود كان يحمل لقب بك وإلى أن ابنيه كانا يحملان اسمين تركيين خالصين هما (ساتلمش) و (سيونج) — أن مسعوداً وأباه كانا من أصحاب اللسان التركى ، ويشهد على الرقى الفكرى بخوارزم أن المذهب المعتزلى المعتمد على العقل والفكر انتشر بها منذ القرن الحادى عشر . ثم بلغ كماله فى القرن الثالث عشر ، ويروى علماء العرب الذين يتحدثون عن التقدم الفكرى بخوارزم، أن المناظرات الدينية كانت تدور هناك فى أدب جم، بعيدة عن التعصب ، فإذا استعمل مناظر أثناء دفاعه عن رأيه كلمة نابية قوطع فى الحال .

ولا شك أن بقاء الاعتزال بخوارزم بعد الغزو المغولى دليل واضح على تأصله وبعد جذوره ، وخاصة أن هذه البلاد قد تعرضت — بسبب مقاومتها العنيدة للغزو المغولى سنة ١٢٢١ — إلى التخريب والتدمير ، ومع أن مساحة الأراضى

الزراعية فى القرن الرابع عشر كانت أقل منها قبل الغزو المغولى ، ولم يمكن إعادتها إلى ما كانت عليه ، فقد بعثت مدينة (أوركانج) عاصمة خوارزم (وهى حالياً أوزكنج القديمة) بعد بضع سنين من حوادث ١٢٢١، وأعيد تعميرها فى نفس مكانها القديم . حتى لقد كان الرحالة المسلمون والأوربيون يعتبرونها إحدى كبريات المدن الواقعة على الطريق التجارى بين غرب آسيا وأوربا، وبين الشرق الأقصى، فقال عنها السائح العربى ابن بطوطة وقد زارها ١٣٣٣ إنها من أكبر مدن الترك وأهمها وأجملها . وبعد الغزو المغولى كانت خوارزم والمدن المتصلة بها حضاريا والواقعة فى الوادى الأدنى لنهر سيحون، مجالا للنشاط الفكرى والأدبى كما كانت قبل الغزو ، وقد ذُكرتْ — فى تاريخ الأدب العربى لبروكلمان — أسماء كثير من الكتب التى ألفت فى خوارزم وما جاورها ، مع أسماء مؤلفيها . وأعتقد أن مكتبات استانبول يمكن أن توسع هذه المعلومات التى يمدنا بها بروكلمان وتكملها.

ومعظم هذه الكتب دينى ، ولقد قيل لى إن جملا بلغة خوارزم قد وردت بأحد هذه الكتب ، وأملنا كبير فى أن تنشر هذه الآثار اللغوية قريباً .

ومن بين العلماء الذين نشأوا فى خوارزم أو زاولوا نشاطهم فيها خلال القرن الثانى عشر ، عالمان مشهوران فى أرجاء العالم هما الزمخشرى والشهرستانى ومن العبث أن ننتظر من علماء من أمثال هذين العالمين أن يكشفوا فى ذلك الوقت عن شعورهم القومى أو المحلى ،ومع هذا فمن اللافت أن (محمد بن قيس !) قدم لجلال الدين آخر سلاطين الخوارزمشاهية (الذى ترك خوارزم فى أوائل سنة ١٢٢١ ،وهرب فى نوفمبر من نفس السنة إلى الهند ، وبدأ ينشط فى غرب إيران سنة ١٢٢٣،وفى سنة ١١٣١ مات وهو يحارب المغول) كتابا كبيراً عن اللغة التركية، ولا علم لنا بشىء عن هذا المؤلف ،والغالب أن كتابه عربى،وهو محرر بعد كتاب الكشغرى،فيعتبر بذلك الكتاب الثانى عن لغة الترك ولكنه — من أسف — لم يصل إلينا ولم ندر بوجوده إلا لأن جمال الدين بن المهنا الذى حرر كتابه فى العهد المغولى رجع إليه فى موضعين.

الأدب التركى الچغتائى :

ومن الواضح أن الترك بعد توطنهم فى خوارزم تمثلوا حضارتها الراقية بالنسبة إلى زمانها ثم أفادوا منها فى النهوض بالأدب التركى الإسلامى فيما بعد . ولو لم يكن لخوارزم حضارة تركية قبل العهد المغولى ، لصعب علينا أن نفهم الدور الذى لعبته خوارزم والآلتون أوردو بوجه عام فى الأدب التركى بعد ظهور المغول .

ففى سنة ١٣٥٣ كتب شاعر خوارزمى من الآلتون أوردو كتاباً بنفس اللغة التى عرفت فى عهد التيموريين (بلغة چغتاى) .

ومع أن المؤلف يتخلص فى هذا الكتاب باسم (خوارزمى) فالراجح أن الكتاب حرر فى جنوب روسيا الحالى لا فى خوارزم . وأستطيع أن أقول الآن وأنا فى استانبول إن مؤلفين كثيرين سبقوا هـذا الشاعر الخوارزمى الذى ألف كتابه فى عهد جانبك خان ، فقد وصل إلينا أثر أدبى آخر كتب قبل ذلك فى عهد (تينى بك خان) الأخ الأكبر (لجانبك خان) وفى هذا الكتاب يلقب تينى بك بالأمير ، دلالة على أن الكتاب حرر فى عهد أبيه أوزبك خان أى قبل سنة ١٣٤٠ ، وفى القرم — ولم يكن بها مسلمون قبل عهد المغول ، — كتبت قصة (يوسف وزليخا) — ولم تصلنا هذه القصة فى لغتها الأصلية ولكن مترجمة إلى اللغة التركية الجنوبية التى ظهرت فى عهـد المغول ، ثم سميت فيما بعد اللغة العثمانية ، وإلى هذه اللغة ترجمت كتب أخرى .

ففى القرن الخامس عشر ترجم فى مصر كتاب أبى نصر السرخسى فى العقائد وذلك عن نسخة مكتوبة باللغة التترية وهى اللغة الأدبية للآلتون أوردو ، وهى نفس اللغة التى كتبت بها قصة يوسف وزليخا ، وفى النصف الثانى من القرن الثالث عشر عاش فى بار چكند (وتعرف باسم بارچين أو بارچينلغ) بالحوض الأدنى لنهر سيحون فقيه كبير اسمه حسام الدين حامد بن عاصم البار چنليغى وكان يؤلف

باللغات العربية والفارسية والتركية ويقول عنه (جمال قَرْشى) وقد صحبه شخصياً — إن إنتاجه العربى فصيح ، والفارسى مليح ، والتركى صحيح ، وهـذا الذى يقول (جمال قرشى) هو فيما نعلم أول مقارنة بين اللغات الثلاث ، بوصفها لغات العالم الإسلامى ، وقد ولد القرشى فى (آلماليق) (حوالى سنة ١٢٣٠ ، وقضى معظم حياته فيما بعد فى كاشغر) وعرف حسام الدين فى بار چكند سنة ٦٧٢ (١٢٧٣ — ٧٤) ، ويمكن أن نستنتج من قول جمال قرشى أن حضارة الآلتون أوردو كانت حتى فى القرن الثالث عشر ، تؤثر على حضارة تركستان ، وقد ظل هذا التأثير مجهولا عند أتراك آسيا الوسطى وعند علماء أوربا حتى العهود الأخيرة ، وفى أوائل القرن السادس عشر ، كان بابر ميرزا يتصور أن شاعر اللغة الچغتائية على شيرنوائى كان يكتب بنفس اللغة التى يتحدثها أهالى مدينة انديجان بفرغانة ، وفى سنة ١٨٨٨ ، حاول رادلوف أن يخطئ بابر ، وأن يثبت أن اللغة الچغتائية كانت تصطنع فى الكتابة الفنية فقط ، ولا علاقة لها بأى لغة من لغات الخطاب المحلية . وكان رادلوف — مع هذا — يرى أن هذه اللغة الأدبية نشأت بتأثير اللغة الأدبية الأويغورية القديمة ، التى ظلت لغة التأليف حتى سنة ١٣١٠ حيث ألف بها كتاب قصص الأنبياء . أى أن اللغة الچغتائية ظهرت نتيجة للنفوذ الثقافى الذى زاوله الشرق على الغرب (قال رادلوف ذلك قبل أن تكتشف نقوش أورخون).

وتدل الفرمانات (يارليغ) التى حررت فى أواخر القرن الرابع عشر ، فى عهد طوقتامش وتيمور قوطلوغ على أن اللغة الچغتائية كانت منتشرة فى ذلك الوقت فى دولة القبيلة الذهبية ولا بد أن يكون رادلوف قد ظن أن انتشارها هـذا حدث فى نفس القرن الرابع عشر ، أى أيام تحرير هذه الفرمانات ، فهو يقول أن أحد أصحاب العلم بلغة چغتاى هو الذى حررها .

ولم يكن من الصعب فى ذلك الوقت تصور ظهور أدب لغـة القبيلة الذهبية

بتأثير اللغة الجغتائية بل كان الصعب هو أن نتصور ظهور لغة جغتاى بتأثير دخول القبيلة الذهبية فى تركستان .

ولم يكن ممكنا — لولا الغزو المغولى — أن تظهر لغة جغتاى الأدبية ومعلوم أن لهذا الغزو وضعا خاصاً فى تاريخ العالم فمع أن غارات البدو على البلاد المتحضرة أمر مألوف ، إلا أننا لم نرقوما آخرين من البدو استطاعوا أن يغزوا فى مدة قصيرة البلاد المتحضرة فى الشرق الأقصى وغرب آسيا وشرق أوربا .

ولم يكن بد إذن من أن يكتب شىء عن المغول فى كل البلاد التى فتحوها ، ومن هنا كانت المصادر التاريخية أحفل بالمعلومات عن عهد المغول منها بالمعلومات عن العهود التاريخية الأخرى .

ففى البيئات العلمية بغرب أوربا فاق الاهتمام بتاريخ دولة المغول الاهتمام بكل الدول الشرقية فى العصور الوسطى ، ومع هذا فلا يمكن القول بأن المسائل والمشكلات المتعلقة بتكوين هذه الدولة قد حلت ، فمن المسائل التى تهمنا مثلا مسألة الحرب بين جنكيزخان ومحمد خوارزمشاه : ماسببها ؟

كثيراً ماينظر إلى هذه المسألة من حيث ارتباطها بخطة جنكيزخان للفتح والغزو وكثيراً مايقال إن خطط جنكيزخان — إذا لم تكن بتحريض من دول أجنبية — فقد كانت على الأقل تلقى تأييداً من الخارج وبخاصة من خليفة بغداد الناصر ، ذلك ، على حين أن الدراسة المقارنة لما ورد بالمصادر الإسلامية عن هذه الحرب يدل على أن محمد خوارزمشاه سبّب هذه الحرب ، أو على الاقل ، عجّل قيامها .

كان المتأخرون من الخوارزمشاهية يريدون أن يكونوا (سلاطين الإسلام) . ومن هنا فقد كتبوا على أنفسهم — بالإضافة إلى حماية الدين الإسلامى ، وأسس العدالة فى داخل البلاد الإسلامية — أن يحرروا بقدر إمكانهم المسلمين الخاضعين للكفار .

وفى عهد محمد خوارزمشاه كانت الظروف مواتية لتطبيق هذه السياسة ، فقد سقطت دولة كورخانات القاراخطاى ، وظهرت الثورات فى الولايات الإسلامية الخاضعة لحكمهم ، وليس بين أيدينا ما يدل على أسباب هذه الثورات ، ولا على كيفية قيامها ، والظاهر أن أول من ثار من ملوك المسلمين ضد الكورخان هو سلطان ختن فإنه — ولا شبهة فى إسلامه ولا فى تركيته — لم يذكر إلا بمناسبة ثورة قام بها . (ولم تصل إلينا أى مسكوكات ضربت فى عهد ختن قبل عهد المغول) وفى نفس الوقت ثار الأهالى فى بخارى بالقسم الغربى من ممتلكات الكورخان ضده وضد الحكام المعينين من قبله ، وقبل ذلك بقليل انتقلت السلطة كلها فى بخارى إلى أيدى زعماء رجال الدين بالمدينة المنتمين إلى (آل برهان) والذين كانوا يحملون لقب (الصدر) واستقلت بخارى تماماً عن الخانات المقيمين بسمرقند ، وكان هؤلاء الصدور يتصلون بالكورخان مباشرة و يجمعون الضرائب لتقديمها له بأنفسهم أى أن أسلوب الحكم فى عهد الكورخانات وفى عهد المغول — طبق على هؤلاء الصدور فى أحسن أشكاله ، وأكثرها ملاءمة ، ولكن حكم هؤلاء الصدور زال تماماً نتيجة لثورة الشعب على الأرستقراطية المحلية ، وكان قائد الثورة هو رئيس الصناع بالمنطقة ، وقد اتهم هو نفسه بأنه كان يناوى* الحكام السابقين بعنف مما يكشف لنا عن ماهية هذه الثورة وأوصافها ، ولعل الأمر اللافت فى هذه الثورة هو أن (الصدور) مع اعتمادهم فى الحكم على سلطتهم الروحية ، طلبوا — من أجل التغلب على الثوار — مساعدة الكفار من القاراخطاى ، ومع أن القاراخطاى قد أسعفوهم ، فلم يكن ذلك الإسعاف بإرسال قوة عسكرية ، ولكن بإصدار بعض الاوامر والفرمانات ، التى لم تؤت أثراً ، بسبب اضمحلال دولة القاراخطاى .

واستغل محمد خوارزمشاه أحداث بخارى فأغار غارته الأولى على القاراخطاى فى خريف سنة ١٢٠٧ ، وبينما كان من المتوقع أن يظاهر ثورة بخارى لأنها

هى أيضاً ضد الكورخان إذا هو يأسر رئيسها الذى عجز فيما يظهر عن مقاومته، وعاد به أسيراً إلى خوارزم . وفى نفس الوقت بدأ محادثاته مع خان سمرقند الخاضع للكورخان — وكان الحاكمان القراخانيان الأخيران لسمرقند ، وهما إبرهيم وابنه عثمان يحملان لقبا طنانا هو (سلطان السلاطين) .

وكان إبراهيم ينقش على عملته الكلمة التركية (أولوغ) بالإضافة إلى هذا اللقب العربى . وليس لدينا — غير هذه العملة — دليل على أن هؤلاء الخانات من أصل تركى ، ولكن عوفى المؤرخ الإيرانى المعاصر لهما يذكر لقبيهما كاملين هكذا : (قليج طمغاج خان) و (قليج أرسلان خان خاقان) وكذلك ليس لدينا دليل على مدى أهمية العنصر التركى بين قوات هذين الخانين العسكرية ، ومهما يكن فمما تجدر ملاحظته أن البحيرة التى يصب فيها نهر زرفشان كانت تسمى منذ ذلك الوقت بحيرة (قارا كول) ويمكن أن نستدل بهذه التسمية على أن العنصر التركى كان موجوداً فى ذلك الوقت بولاية بخارى ، أو على الأقل فى أجزائها المجاورة للصحراء والقريبة من خوارزم .

ولم تكن غارة خوارزمشاه سنة ١٢٠٧ حسنة العاقبة ، إذ لم تلبث البلاد التى فتحها أن عادت إلى حكم الكورخان ، ولم يستطع محمد خوارزمشاه أن يغلب القاراخطاى إلا فى سنة ١٢١٠ على مقربة من طالاس ، ومع هذا فلم يكن نصره حاسما لأن المسلمين الخاضعين للكورخان لم يتحدوا ولم ينضووا تحت لوائه، ولم يستطع من ناحية أخرى أن يقدم أية مساعدة لأهالى بالاساغون حين ثاروا ضد الكورخان . ولكنه — على كل حال — أفاد من نصره فأضفى على حكمه مظاهر العظمة وسمى نفسه (السلطان سنجر) وهو اسم آخر سلاطين السلاجقة وأقواهم ، وأضاف إلى لقبه أيضاً اسم (اسكندر) أى الاسكندر المقدونى . وتدل

هـذه الألقاب على أنه لم يكن يقنع بالفتوحات المفروضة عليه بوصفه (سلطان الإسلام) بل كان يريد أن تشمل فتوحاته العالم كله .

التتـار ':

ومع هذا فإن مصير دولة القاراخطاى كان أكثر تأثراً بالزحف المغولى من الشرق منه بتحركات خوارزمشاه ، ففى ذلك الزمان زحف التتار الأول كما يقول ابن الأثير ، إذ خرجوا من منغوليا تحت ضغط جنكيزخان ثم ما لبث جنكيز نفسه أن خرج ومعه عساكره ، ويقول المؤرخ رشيد الدين أن اطلاق كلمة تتار على نطاق واسع يرجع إلي قوة التتار الحقيقيين الذين كانوا يعيشون ذلك الوقت حول بحيرة (بوير نور) Bouir Nor .

أما الآن فإنا نعلم أن استعمال هذه الكلمة على هذا النطاق الواسع يرجع إلى زمن أبعد من ذلك ، يرجع إلى عهد نقوش أورخون أى إلي القرن الثامن وقد ورد هذا الاسم فى القرن العاشر فى مخطوطة تومانسكى ثم ورد فى الحادى عشر فى كتاب الكشغرى ، ويحتمل كثيراً أن يكون هذا الاسم علماً على الناطقين باللغه المغولية بوجه عام ، وتدل المعلومات التى نقلها رشيد الدين على أن حدود البلاد الناطقة بالمغولية والتركية فى زمانه هى تقريباً نفس حدود البلاد الناطقة بهاتين اللغتين فى عصرنا هذا ، فقد كان شعب (نايمان) الذى يملك كل غرب منغوليا ابتداء من شمال نهر أورخون إلى نهر ارتيش ، وشعب (اويرات) وهو جاره إلى الشمال ، يتكلمان اللغة المغولية ، وتسمى المنطقة التى يسكنها الاويرات وهى منطقة منابع ينيسى (سه كيزموره ن) وتدل هذه التسمية على أن اللسانين التركى والمغولى كانا متداخلين ، فإن كلمة (سه كيز) تركية بمعنى ثمانية ، وكلمة (موره ن) مغولية بمعنى نهر ، وفى شمال الاويرات كان القيرغيز الناطقون بالتركية يسكنون حوض ينسى أو نهر (كمم) كما يسميه

الترك ، وكان جيران النايمان على نهر ايريتش هم القاكلى والقبچاق ثم القارلوق فيما يظن ، وهؤلاء جميعاً من الناطقين بالتركية ، وكانت عاصمة القارلوق هى (قياليق) أو (قاياليق) الواقعة شمال ولاية (يدى‌صو) والتى لا يرجع تأسيسها إلى أبعد من القرن الثانى عشر .

هذا وكانت قبائل المغول تقطن المنطقة الممتدة من (سد الصين) جنوباً إلى بحيرة بايقال شمالا ، وكان مستواهم الحضارى على درجات مختلفة . وقد ذكر الصينيون ثلاثة أنواع من التتار : التتار البيض ، وكان الصينيون يجاورونهم جنوباً .

وفى شمالهم التتار السود ، وفى شمال هؤلاء التتارُ المتوحشون الذين كان المغول يسمونهم (شعوب الغابة) وكان التتار السود بدواً أما المتوحشون فكانوا يعيشون على الصيد .

وإن معلوماتنا عن مغول القرن الثالث عشر ، وخاصة ما يتعلق منها بأماكن القبائل وطراز حياتهم لتفوق عددا وتنوعا معلوماتنا عن الترك الذين كانوا يسكنون قبلهم فى نفس المكان ، إذ لا تذكر المصادر الصينية ولا غيرها أنه كان إلى جانب الأتراك البدو ، أتراك آخرون يعيشون على الصيد ثم لا يذكر شيء أيضاً عن العلاقات بين سكان الاستبس وسكان الغابات ، اللهم إلا بضع كلمات ذكرها الكرديزى عن علاقات القرغيز بجيرانهم الشرقيين .

ويقول رشيد الدين إن المذهب الشامانى لم يكن الدين الأصلى للبدو ، ولكن كان دين القبائل التى تعيش على الصيد ، وكان يُعتقد فى أيامه هو أى إبان العهد المغولى أن الشامانات الحقيقيين يوجدون بين سكان بلاد الغابات ، ويستنتج من حكاية نقلها رشيد الدين عن أغنى القبائل بالشامانات وهى قبيلة (أورمان

أورانخيني) أن حياة الزراعة كانت فى نظر البدو نوعا من العبودية لا يطاق وأن حياة البدو كانت كذلك فى نظر القبائل التى تعيش على الصيد.

ظهور جنكيزخان:

وكان (لشعوب الغابة) بوجه عام يد فى الأحداث والفتن الدامية التى سبقت اتحاد منغوليا تحت إدارة جنكيز خان ، ولكن أصحاب هذه الفتن الحقيقيين هم البدو بوجه خاص ، وقد ثبت الآن أن هذه الفتن لم تكن فى حقيقة أمرها إلا الصراع بين الطبقة الأرستقراطية وجمهرة السكان فى الاستبس : تجمعت الطبقة الأولى تحت رياسة جنكيزخان ، والتفت الثانية حول (جاموغا) ، وكان جاموغا فى أول أمره صديقا لجنكيز خان ثم خرج عليه، واتخذ لنفسه — مثل القاراخطاى — لقب (كورخان) وظل يجد كل يوم أعداء جددا لجنكيزخان بين رؤساء قبائل المغول وخاناتهم ، ولكن هذا الصراع انتهى بإبادة قسم من أنصار جاموغا، وفرار القسم الآخر من منغوليا . ووقعت أخرى المعارك التى اشترك فيها جاموغا ضد جنكيزخان فى سنة ١٢٠٤ ، وفى سنة ١٢٠٥ — سلم جاموغا إلى جنكيزخان ، وأعدم كما تروى مصادر المغول ، ولكن المؤرخ الجوينى يذكر حكاية غريبة عن بطل إسمه (كورخان) كان فى خدمة جنكيزخان ثم انحاز إلى المسلمين ، فلما فتح المغول مدينة بخارى سنة ١٢٢٠ أعدمه جنكيزخان ، ومن هنا ، فمن المحتمل أن يكون جاموغا — رغم الرواية المغولية — قد فر من جنكيز ولجأ إلى بلاد خوارزمشاه.

وكان من بين قبائل المغول المعادية لجنكيزخان قبيلة (ماركيت) التى تسكن على ضفاف نهر (سيلينغا) ، ثم قبيلة نايمان ـ وقد فرت كلتاهما إلى الغرب ، وكانت آخر هزائمهما أمام جنكيز سنة ١٢٠٨ ، وفى سنة ١٢٠٩ افترقت القبيلتان فأخذت الماركيت طريق الشمال حتى وصلت إلى بلاد القبچاق ، ووصل النايمان إلى بلاد القاراخطاى . ومهما يكن فقد تعرضت القبيلتان قبل هذه الأحداث

لحركة التبشير المسيحى ، وكان من نتائج ذلك أن أخذ النايمان كما رأينا من قبل الأبجدية الأويغورية ، ولدينا بالإضافة إلى هـذا حقائق كثيرة تؤيد تأثر المغول بمدنيّة الترك ؛ فمن ذلك وجود الأسماء والألقاب التركية بين أقوام من أصل مغولى ، وأما التبشير الإسلامى فلم يرد عنه شىء رغم وجود كثير من التجار المسلمين فى عاصمة جنكيزخان وهو لا يزال فى شرق منغوليا ؛ إذ ليس لدينا فى هذا الباب سوى رواية واحدة تدل على أن بعض المغول دخلوا فى الإسـلام ، وجنكيز على قيد الحياة .

فقد كان أخو زوجته ، وهو أحد زعماء الماركيت يحمل اسما إسـلاميا هو (جمال خوجة) .

وفى أثناء الصراع بين جنكيزخان ، و بين الماركيت والنايمان فى سنة ١٢٠٧ خضع القيرغيز القاطنون بجوار ينيسى لجنكيزخان ، فـكانوا بذلك أول من خضع له من أقوام الترك ، نعم لقد أعلنوا العصيان فيما بعد سنة ١٢١٨ ، ولـكن جوچى الابن الأكبر لجنـكيزخان انقض عليهم بعد أن عبر ثلوج نهر النيسى ونـكل بهم ويروى الجغرافيون العرب أن قيرغيز ذلك الوقت ــ كقرغيز القرن الثامن ــ لم يكن لهم خاقان ، بل كانوا منقسمين قسمين ، على كل واحد رئيس ، لا يحمـل لقب خان ، حتى لقد نسى القيرغيز المتأخرون أنْ قد كان لهم خان فيما مضى ، ويروى رادلوف نقلا عن حكايات القاراقيرغيز أنهم التمسوا من (الخان الـكبير) (جنكيزخان) أن يعين عليهم (جوچى) خاناً ، ولـكن قطيعاً من حمر الوحش اختطفت (جوچى) وكان لا يزال صبياً ، وهكذا كان (اقصاق قولان جوچى خان) أول خانات القيرغيز وآخرهم ، ومع أن الصفة الأسطورية واضحة فى هـذه الرواية فإنها تسجل ذكرى خضوع القيرغيز لجنكيزخان وولده جوچى ، وربما

كانت حكاية حمر الوحش هذه صدى للشعر المنسوب إلى جنكيز خان ، فقد قيل أنه لما بلغه وفاة إبنه قال هذين البيتين :

قولون آلغان قولا نداى ــــ قولو نوم دين آيريلدم
آير لشقان آنقوداى ــــ اير اولوم دين آيريلدم
أرأيت إلى العير يروعه الصياد ، فينأى عن صغيره
فكذلك ــــ ثكلت ــــ ولدى
أرأيت إلى سرب البط يتشتت فى كل اتجاه
فهكذا ــــ فارقت ــــ ابنى ــــ البطل

اضمحلال الخوارزمشاهية :

فى سنة ١٢٠٩ أى قبل أن ينتصر محمد خوارزمشاه على القاراخطاى بعام واحد ، خضع إيديقوت الأويغور — وهم قوم متحضرون — لجنكيزخان ،وكان إيديقوت الأويغور حتى ذلك التاريخ تابعاً للقاراخطاى . ولكنه غير هذه التبعية بسبب فرار خصوم جنكيزخان إلى الغرب ، فقد أراد المازكيت والنايمان أن يجتازوا بلاده ، ولكنه ثبت لهم وقاومهم بعنف حتى غلبهم ، وكانت هذه الهزيمة سبباً فى افتراق القومين أحدهما عن الآخر ، وكانا — حتى هذه الهزيمة — متحدين . وفى سنة ١٢١١ أى بعد أن هزم محمد خوارزمشاه القاراخطاى بعام واحد دخل حاكم القارلوق المسلم (أرسلان خان) فى طاعة جنكيز ، وكان حتى تلك السنة خاضعاً للكورخان .

وتدل هذه الحوادث على مدى اضمحلال نفوذ خوارمشاه عند المسلمين فى آسيا الوسطى ، مع أنه كان يُعلن منذ انتصاره على القاراخطاى سنة ١٢١٠ أنه (منقذ المسلمين من أيدى الكفار) ، والواقع أن أخلاق محمد خوارزمشاه كانت تناقض العظمة الظاهرية لدولته ، وتناقض ألقابه الطنانة ، فقد كان عاجزاً تماما عن

كبح جماح عساكره ، وحماية الأهالى فى البلاد التى فتحها من اعتداءاتهم ، ولعل هذا أن يفسر لنا كيف ساءت العلاقات بينه وبين خان سمرقند فى سنة ١٢١٢ مما دعا الثانى إلى الانضمام من جديد إلى القاراخطاى . ويذكر الجوينى شيئاً عن الحادثات بينهما وهى الحادثات التى سبقت القطيعة فيقال إنه بعد أن تزوج خان سمرقند بنت خوارزمشاه رأت أم هذا الأخير أن يبقى خان سمرقند عاماً كاملا فى بيت حميه طبقاً لعادة تركية قديمة .

وبعد أن رجع خان سمرقند ، أعلن بموافقة إجماعية من الأهالى الخروج على خوارزمشاه منقذه من الكورخان المجوسى ، ولم يستطع خوارزمشاه إخماد هذا العصيان إلا بمعارك دامية ، وصارت حدود خوارزمشاه بعد إخماد الثورة ممتدة من فرغانة إلى بحيرة آرال ومشتملة على كل الأراضى المجاورة لسيحون بما فى ذلك ساحله الأيمن ، وأما بقية المناطق الإسلامية التى كانت خاضعة قبل ذلك للقاراخطاى ، فقد خضعت (باستثناء إمارة القارلوق فى أقصى الشمال وهى التى خضعت لجنكيز) لسلطة زعيم النايمان كوچلوك المهاجر من الشرق . وكان كوچلوك هذا مسيحياً فى أول الأمر ، ولكنه اعتنق الوثنية فى بلاد القاراخطاى ويحتمل أن تكون الوثنية هنا هى البوذية وكان إستيلاء كوچلوك على بلاد الكورخان فى سنة ١٢١١ أى قبل أن يخرج خان سمرقند على خوارزمشاه ، الذى ما لبث أن حارب كوچلوك حربا غير موفقة فقد روى ابن الأثير وياقوت أنه اضطر إلى أن يترك لكوچلوك بعض ممتلكاته ومنها اسفيجاب (سايرام) وطاشقند ، والقسم الشمالى من فرغانة ويقال إنه دمر هذه البلاد قبل انسحابه ، وأنه صحب معه سكانها ، وأكبر الظن أن خوارزمشاه فكر فعلا فى هذه الخطة ، ولكن من المستبعد أن يكون قد نفذها وذلك أن وضع هذه الولايات فى أثناء الغزو المغولى ، أى بعد عشرة أعوام من الحروب بين خوارزمشاه وكوچلوك ،

لا يدل أبداً على أنها دمرت تدميراً تاما ، ومع أن منغوليا بعيدة عن تركستان ومع أن المغول شغلوا بحروبهم فى الصين ابتداء من ١٢١١ فإن نصيب جنكيزخان من النفوذ والسلطان فى آسيا الوسطى ، كان أكبر مما يتمتع به (سلطان الإسلام) نفسه ، وقبيل حوادث سنة ١٢١١ على الأرجح ظهرت حكومة مسلمة جديدة فى مدينة آلماليق أو (غولجه) الحالية ، ومع أن مؤسس هذه الحكومة كان قاطع طريق ، وسارق خيل ، فإن ذلك لم يمنع أسرته من تولى الحكم حتى بداية القرن الرابع عشر ، وكان رئيس هذه الأسرة فى أول أمره خاضعاً لجنكيز ، ولكن كوچلوك قبض عليه غيلة أثناء خروجه للصيد ، وقتله ، واستطاعت زوجة القتيل أن تدافع عن آلماليق ضد عساكر كوچلوك حتى وافتها النجدة من منغوليا ، والظاهر أن كوچلوك لم يكن يضمر شراً لأرسلان خان القارلوقى التابع لجنكيزخان ، وذلك أنه وجه كل قواته إلى كاشغر ، وبفتحه هذه الولاية ظهرت للمرة الأولى والأخيرة فى آسيا الوسطى حركة اضطهاد للإسلام . ومما يذكر من ألوان الاضطهاد أنه أمر المسلمين بارتداء زى القاراخطاى ، ومنعهم من العبادة ، وقتل إماماً من ختن ، وأسكن عساكر الناعمان فى بيوت المسلمين (ليتأكدوا فى الغالب من تنفيذ المسلمين لأوامره) و بينما المسلمون على هذه الحال فإن خوارزمشاه لم يساعدهم ولم يتخلصوا من الاضطهاد والطغيان إلا بوصول عساكر المغول سنة ١٢١٨

سوء العلاقات بين خوارزمشاه والمغول :

كان خوارزمشاه فى ذلك الوقت مشغولا بالحرب مع الكفار ، فقد وجه ضرباته إلى القبچاق بالمنطقة الشمالية من سيحون ، وكان القبچاق أضعف نسبياً وأقل نظاماً .

وفى نواحى (ايرغيز) وقع بطريق الصدفة صدام بين العساكر الخوارزمية

وبين القوات المغولية بقيادة جوچى خان ، وكان قد وصل إلى هناك أثناء تعقبه الماركيت الفارين إلى الغرب .

وكان خوارزمشاه — على فشله المتكرر — لا يزال يطمع فى أن يشتهر بأنه فاتح العالم ، بل كان يأمل حتى بعد ذلك أن يفتح الصين ، وقد تملكه الحزن حين سمع باستيلاء جنكيز على پكين سنة ١٢٢٥ ، وأرسل (بهاء الدين الرازى) سفيراً لدى جنكيز ليحقق خبر هذا الفتح ، وليجمع المعلومات عن فتوحات جنكيز وانتصاراته .

ووصل بهاء الدين وجنكيز لا يزال بالصين ، وقد روى المؤرخ الجوزجانى قصة هذه السفارة نقلا عن السفير نفسه فلا مجال للشك فيها .

وهكذا يتبين أن خوارزمشاه ، لا الخليفة الناصر هو الذى أرسل سفيراً لدى أباطرة المغول .

وكلنا نعلم تطور الحوادث فيما بعد ، وكيف أرسل خوارزمشاه بالإضافة إلى إلى هذه السفارة ، قافلة تجارية إلى جنكيزخان ، وكيف أن جنكيز أرسل بدوره سفارة وقافلة تجارية إلى خوارزمشاه ، وكيف استقبل هذا الأخير هيئة السفارة ، ثم كيف خلا بالسفير محمود فى الليل ، وكيف قتل التجار وهم جميعاً مسلمون فى (اوترار) وهى إحدى مدن الحدود ببلاد الخوارزميين . ومن اللافت أن خوارزمشاه طلب إلى السفير محمود أن يعطيه كل المعلومات الهامة عن بلاد جنكيزخان ، وذلك بوصفه (أى السفير) أحد رعايا خوارزمشاه لأنه ولد فى خوارزم . وقد يبدو هذا الطلب فى عين الأوروبى الحديث وجيها بل حقا من حقوق خوارزمشاه . فالحكومة الإنجليزية مثلا لا تتردد أبداً فى أن توجه نفس الطلب إلى أى انجليزى ، يخدم فى بلد همجى أو نصف همجى ولكن التجار المسلمين فى العصور الوسطى لم يكونوا يحسون أن لهم علاقة بحكومة الولاية التى

نشأوا فيها ، ولم يكونوا على علاقة بتنفيذ الخطط الحربية لسلاطين المسلمين ، ومن المحتمل جداً أن تكون هذه المسألة نفسها هى السبب فى قتل التجار المسلمين الوافدين من منغوليا .

وعلى أى حال فلم يكن بدٌ بعد حادثة أوترار من أن يوجه المغول غزواتهم إلى بلاد خوارزمشاه دون أن تكون بهم حاجة إلى تحريض الخليفة الناصر أو سواه وكان من الطبيعى أن تنتشر الشائعات ، وأن تنسب إلى الخليفة الناصر تدابير من هذا النوع بسبب الخلاف بينه وبين خوارزمشاه . ومن المعلوم أن جلال الدين بن خوارزمشاه كان يتهم خليفة بغداد بنفس الاتهام دون أن يملك دليلا واحداً لتأييده ، والطبيعى أن يكون غزو جنكيزخان للبلاد الإسلامية نتيجة مباشرة لحادثة اوترار ، وآية ذلك أن التجار المسلمين ظاهروا جنكيزخان ، وسنرى فيما بعد أنهم أفادوا أكثر من غيرهم من انتصار عساكر المغول ، ومما ترتب عليه من نظم وقواعد .

المحاضرة التاسعة

القبيلة الذهبية (آلتون اوردو)

لم تسلم المعلومات عن الحوادث التى سبقت استيلاء المغول على تركستان من التناقض : فمثلا تختلف أقوال المصادر وآراء العلماء فى تاريخ المعركة التى وقعت بين جوجى خان و بين خوارزمشاه والتى كللت بتقهقر المغول : أكانت هذه المعركة قبل حادثة اوترار أم بعدها . ولقدوجدت ببلاد محمد خوارزمشاه منظومات تناولت الحوادث السياسية باللغة الفارسية بنوع خاص ، ولكننا لم نعرف هذه المنظومات إلا ببعض ما أخذ عنها وعزى إليها . فمن ذلك ما نقل يا قوت من منظومات عربية تصف خراب البلاد التى تركها محمد خوارزمشاه فيما وراء النهر وقد كتب هذه المنظومات فيما يظهر محمد خوارزمشاه نفسه ، ومن ذلك أيضاً الملحمة الشعرية التى أشار إليها عوفى والمسماة (شاها نشا هنامه) لمجد الدين محمد بايزى وهى تتناول الأحداث أثناء سلطنة محمد خوارزمشاه (التقى عوفى بمجدالدين بايزى سنة ٦٠٠ هـ (١٢٠٣ — ١٢٠٤) بمدينة (نسا) غرب عشق آباد بتركستان الحالية) ثم قصيدة عمر خرم آبادى التىذكرها عوفى أيضاً ، وفى هذه القصيدة يلقب محمد خوارزمشاه بالإسكندر الثانى ، ومنها : إن إصرار (خطائى) على أن يحارب عساكرك(خطأ) فإن مضى فى طريقه فليرين عواقب جهله ، و إذا لم يستسلم (التتار) لأمرك ، فمن الواضح وضوح الشمس أن نهارهم (تار) أى مظلم (الجناس بين خطائى وخطأ و بين تاتار وتار) ، فإلى أى صدام

عسكرى تشير هذه القصيدة أصدام مغول جنكيزخان ، أم صدام (التتار الأول) أى كوچلوك والنايمان ؟ .

لم يكن للصدام العسكرى بجوار (ايرغيز) آثار بعيدة ، كان محمد خوارزمشاه هو المهاجم ، ومع ذلك فلم يكن الطرفان يتوقعان فى أول الأمر الصدام فقد كان خوارزمشاه يحارب فى تلك الجهات القبچاق ، وكان جوچى يحارب الماركيت ، وقد حرص جوچى على إبلاغ خوارزمشاه بأن ليس لديه أمر من أبيه بالدخول فى حرب ضده .

ولكن لما تحولت الحرب بالنسبة لخوارزمشاه إلى حرب دفاعية — قيل إنه كان يجاهد ليصون (دار الإسلام) من سطوات الكفار ، هذا مع أن سبب الحرب هو قتل التجار المسلمين فى خوارزم ، ومع أن الحاكم العسكرى فى كاشغر منح المسلمين فى سنة ١٢١٨ حرية العبادة من جديد .

و بالإضافة إلى التجار المسلمين الذين كانوا يعملون مع جنكيزخان ، كانت فى جيش المغول كتائب من مسلمى قاياليق وآلماليق ، ومن المحقق أنه كان بين أولئك التجار — عدا التاجيك — بعض الأتراك ، (وكان المغول يطلقون على التجار جميعهم الكلمة التركية (أورتاق) بمعنى شريك والظاهر أن السبب فى ذلك هو تجمع التجار فى شكل شركات ليستطيعوا تجهيز القوافل .

وكان جيش خوارز مشاه يتكون من عناصر تمثل قوميات مختلفة ، فيلاحظ مثلا أن عدد الترك والتاجيك فى حامية سمرقند وهى عاصمة ما وراء النهر كان — بحسب رواية الجوينى — متساويا تقريباً ، إذ كان عدد الترك ستين ألفاً وعدد التاجيك خمسين ألفاً ، وكان من الممكن أن يؤثر الصراع بين هذه القوميات على صلابة الجيش ، بل لقد قرر أحد مؤرخى القرن الثالث عشر أثناء تناوله العلاقات بين خوارزم و بين المنطقة الإيرانية الحالية مازندران ، إن الصداقة الحقة

لايمكن أن تتوثق عراها بين الترك والتاجيك ، وأدهى من ذلك ، استحكام العداء بين الترك و بين سكان المنطقتين الإيرانيتين الجبليتين غور وغزنه ، فعندما أراد الترك تحسين علاقاتهم بحاكم غور ، أجابهم هذا الحاكم: نحن غوريون وأنتم أتراك ، ولا يمكن أن نعيش معاً .

ومهما يكن فقد كان الترك — من بين سائر القوميات — أقرب إلى المغول بل كانت منهم بجيش جنگيزخان كتائب ، وكانت التقاليد البدوية فى آسيا الوسطى ، تزيد الترك قرباً إلى المغول ، ورغم هذا كله فلم يحاول المغول الاتحاد مع الترك واشرا كهم معهم فى الفتح ؛ ولم تكن المحادثات التى يجرونها أحياناً مع الترك إلا ضربا من الخدع الحربية المألوفة عندهم ،فقد كانوا يحاولون بتأكيداتهم الكاذبة لأواصر الصداقة — أن يفرقوا أعداءهم ، ثم يجهزوا عليهم واحداً فواحداً ، وقد أكد جنگيزخان صداقته لأم محمد خوارزمشاه ، وكانت بينها و بين ابنها جفوة ، وذلك لكى يحول بينها و بين التدخل فى الحرب بما كانت تملك من كتائب .

وفى أثناء حصار المغول لسمرقند أعلنوا استعدادهم لأن يقبلوا خدمة القسم التركى من حامية المدينة، وكان على رأسه رجال خوارزمشاه ، فلما تم لهم فتح المدينة طوقوا هؤلاء الترك وعددهم حوالى ثلاثين ألفا — عليهم عشرون قائداً — وذبحوهم ، ثم فعلوا مثل ذلك فى داغستان حيث تحالف القبچاق مع اللان Alains ليقاوموا المغول معاً ، فقد قال المغول للقبچاق بوصفهم أتراكا : إننا وإياكم من أصل واحد ، وليس اللان منكم فى شىء فكيف تساعدونهم ؟ وقدموا لهم الهدايا حتى يتخلوا عن اللان ، ولكنهم مالبثوا بعد أن انتصروا على اللان منفردين أن استداروا فبطشوا بالقبچاق وأخذوا منهم الهدايا التى أعطيت لهم من قبل مضاعفة ، وكذلك لما وجد البولوفيتس (أى القبچاق) العون من

أعـدائهم الروس ، أكد المغول لأمراء الروس أنهم لم يتجمعوا للإعتـداء على أراضيهم ، ولـكن ليحاربوا (القومان المشركين) ، القذرين ، خدم الخيل الأخساء على حد تعبير المؤرخين الروس .

وفى غرب آسيا لعب المغول نفس الدور . ففى وقت ما كانوا يجرون المحادثات مع الإسماعيلية ومع الخليفة فى بغداد ، ولـكنهم ما لبثوا بعد ذلك أن استأصلوا شأفتهم جميعاً .

وفى حوالى سنة ١١٢٦ أمر السلطان جلال الدين وهو فى اصفهان وزيره فى آذربيجان ، أن يتحرى أخبار القوافل الآتية من سورية لأنه علم أن سفيراً من التتار قد ذهب إلى هناك مع قوافل تجار الاسماعيلية بطريق بغداد .

وكان جلال الدين يبحث قبل أن يؤاخذ الخليفة أو بعض الأمراء على علاقاتهم بالتتار عن دليل ليثبت قيام هذه العلاقات ، ولـكنه لم يستطع أن يجد عليها دليلا واحداً ، رغم أن وزيره لم يقنع بتفتيش القافلة ، بل أبادها عن آخرها مما سبب لجلال الدين فيما بعد كثيراً من المشاكل ، ومع هذا فليس بعيداً أن تـكون الشائعات عن وجود هذه العلاقات مطابقة للواقع .

ومن المعروف أن محمد خوارزمشاه المتوفى فى إحدى جزر بحر قزوين سنة ١٢٢٠ لم يكن عظيم الشأن أثناء حروبه ضد المغول حتى أن اسمه لم يكن معروفا عندهم ، فالمصادر المغولية مثلا تنسب كل ما دار فى أثناء الحرب وفى الفترة السابقة عليها ، بما فى ذلك حادثة أوترار إلى ابنه وخليفته من بعده ، جلال الدين ، ومع أن الحرب وضعت أوزارها بفرار جلال الدين هذا إلى الهند فى آخر نوفمبر سنة ١٢٢١ ، فقد اضطر المغول فيما بعد إلى إخماد بعض الثورات وإلى الاستيلاء على بعض القلاع المحصنة فى أعالى الجبال وفى صيف سنة ١٢٢٣ ترك جنكيزخان تركستان ، ثم قضى صيف سنة ١٢٢٤ فى منطقة نهر إيرتش ، وقبل وفاته فى سنة ١٢٢٧ كان

جلال الدين قد رجع إلى إيران ، وفى سنة ١٢٢٨ هزمه المغول قريباً من أصفهان ولكنهم اضطروا — لفداحة خسائرهم إلى الجلاء عن إيران ؛ وتعقبتهم جيوش جلال الدين حتى نهر جيحون ، ومع هذا فلم تكن هناك خطة لزلزلة حكم المغول فى خوارزم وما وراء النهر .

وتجمع الروايات ، على أن فتوحات المغول كانت مصحوبة بالمجازر البشرية ولكن علماء أوربا لا يدخلون فى اعتبارهم إلا حروب الإبادة التى كان البدو يشنونها على البلاد المتحضرة ، هذا مع أن البدو لم يكونوا يحققون إتحادهم السياسى إلاّ بعد معارك دامية فيما بينهم بل ربما أبيدت فى هذه السبيل ، وطبقاً لخطّة ،قبائلُ بأسرها ، حتى ليصعب علينا أن نعرف أىّ صرعى جنكيزخان أكثر عدداً ، صرعاه فى الاستبس أم صرعاه فى البلاد المتحضرة ، ويصعب أيضاً أن نثبت أن فتوحات المغول كانت نفعا خالصا للبدو ، وضرّا خالصا لأهل الحضر، فمثلا لم يكن إستيلاء المغول على البلاد المفتوحة نتيجة هجرة كاملة لشعبهم ، كما كان حال السلاجقة حين استولوا على غرب آسيا بل بقيت جمهرة المغول العظمى فى منغوليا وإليها رجع جنكيزخان ، وبقيت مقراً لخلفائه أكثر من أربعين سنة بعد وفاته .

وفى القانون العام لتبعت قاعدة من قواعد القانون الخاص المغولى بمقتضاها يعطى الأب قبل وفاته قسما من أملاكه لأبنائه الكبار بحسب سنهم ، ويترك الجزء الأهم لأصغر أبنائه ، وبناء على ذلك انتقلت منغوليا وهى الوطن الأم لجنكيزخان إلى أصغر أبنائه تولوى وكان جيش جنكيزخان النظامى يتكون من مائة وتسعة وعشرين ألفا من الجند تولى تولوى الرياسة على (١٠١٫٠٠٠) منهم. ويدل هذا العدد على قلة من هاجر من المغول بالنسبة إلى الجمهرة التى بقيت فى منغوليا .

تكوين امبراطورية
القبيلة الذهبية :

وقسمت البلاد الواقعة إلى الغرب من منغوليا على الثلاثة الكبار من أبناء جنكيزخان ، فأخذ كل منهم (٤٠٠٠) شخص من الجيش النظامى (ووزع الباقى وهو (١٦٠٠٠) على بقية أعضاء العائلة ، ولم توضع إلا خطوط عامة لتحديد أملاك كل من أبنائه ، وكما كانت القواعد تلزم بأن يكون الوطن الأم ملكا للابن الأصغر ، فقد كانت تلزم أيضاً بأن يستولى الإبن الأكبر جوچى على أقصى البلاد المفتوحة بعداً ، وهكذا كانت حصة جوچى تتقدم نحو الغرب جنباً إلى جنب مع انتصارات جنكيزخان .

فحين كان لا يحكم إلا منغوليا ، كانت حصة ابنه جوچى عبارة عن الأراضى الواقعة غربى نهر سيلينغا ، فلما حيزت الانتصارات فى الغرب تقرر أن تمتد حصته إلى آخر حد تطأه سنابك خيل المغول وكانت هذه الأراضى تشتمل — منذ عهد جنكيزخان — على استبس القبچاق فى غرب نهر إيرتش ، وعلى المنطقة التى أبيد فيها الماركيت حتى حدود امبراطورية بلغار الڤولجا ، و بعد موت جنكيزخان كانت ممتلكات أحفاده من أبناء جوچى تضم هذه المناطق جميعاً ، بالإضافة إلى كل الإمارات الروسية (لم يؤد تدفق المغول على بولندا والمجر ، و بعض مناطق أوربا الغربية ،إلى فتح هذه البلاد) ثم ادعى أبناء جوچى أن لهم حقوقا فى أراضى جنوب قافقاسيا وغرب بحر قزوين ، فأدت بهم هذه الادعاءات إلى سلسلة من الحروب ضد دولة المغول التى تأسست فى إيران سنة ١٢٥٠ ، ولا توجد إشارة واحدة إلى أن هذه الأراضى قد ضمت إلى أملاك جوچى إبان الغارات على بلاد القاراخيطاى والخوارزميين ، وهى الغارات التى تبدأ ساحتها من نهر إيرتش ، ثم تتجه جنوباً بغرب إلى أبعد من نهر جيحون .

ولم تستثن من هذه البلاد إلا خوارزم والمدن الواقعة فى الوادى الأدنى لنهر

سيحون ، ولا بد أن جوچى حين حاول أن يجنّب مدينة اوركندى الخراب في سنة ١٢٢١ كان ينوى أن يضم منطقة خوارزم إلى ممتلكاته ، ولاشك أن الاتحاد بين مناطق حوض القلجا ، والمناطق المجاورة للمجرى الأدنى لنهر آموداريا تحت إدارة حكومة واحدة، أمر له أهميته ، فلقد كانت بين هذه المناطق من أول الأمر صلات مدنية وثيقة ولكنها لم تكن قبل ذلك التاريخ ولا بعده (حتى فتح الروس تركستان) موحدة تحت حكومة واحدة .

وفى النصف الأول من القرن الرابع عشر كانت خوارزم أكثر ارتباطاً بمناطق حوض القلجا منها بمناطق حوض سيحون ، وفى عهد أوز بك خان كانت العملة تسك باسمه فى خوارزم وفى حوض القلجا ، بينما كانت تسك فى صوغناق باسم خان آخر ينحدر أيضاً من جوچى . وفى أول الأمر كانت ممتلكات جوچى وذريته تضم المناطق الشمالية من بلاد القاراخطاى وتضم من إيالة (يدى صو) القسم المشتمل على مدينة قاياليق . وعلى الجملة فقد كانت تشتمل الأراضى الممتدة من نهر ايرتيش إلى بحيرة (آلاكول) ثم تتجاوز ذلك إلى نهرى إيلى وسيحون .

وفى أثناء رحلة المبشر الفرنسيسكانى پلانوقاربينى (Plano Carpini) سنة ١٢٤٦ كان ابن جوچى الأكبر أوردا يقيم فى شرق تلك المنطقة فى مكان لايبعد كثيراً فيما يظهر عن نهر ايرتش ، وأما الجزء الغربى وهو الواقع غالباً بين ايلى وسيحون.فقد كان تحت إمرة شيبان (بكسر الشين) الإبن الاصغر لجوچى (وقد غيرت المصادر الإسلامية هذا الإسم فيما بعد فجعلته شيبان ، وكان ذلك سبباً فى أن يسمى أحد أحفاده فى أوائل القرن السادس عشر (بالشَّيبانى) وهذا الحفيد هو مؤسس دولة الاوزبك فى تركستان ، وبالإضافة إلى أن هذا الاسم يختلط باسم إحدى القبائل العربية ، فقد كانت له قيمة خاصة لأنه اسم عالم مشهور من علماء الأحناف أخذ عن أبى حنيفة وأبى يوسف ، ومن المحتمل

أن يكون هذا الاسم المنتشر فى العالم الإسلامى هو الذى حول شيبان إلى شَيبان و بالتالى إلى ظهور اسم (الشيْبانى) وفى رواية لأبى الغازى أن شيبان أخذ من أخيه (باطى) الأراضى الواقعة بين ممتلكات (باطى) وممتلكات (اوردا) وذلك بشرط أن يقضى الصيف على ضفاف ايرغيز واورا و إيله ك أو بوجه عام فى شرق نهر يايبق وجبال أورال ، وأن يقضى الشتاء فى قاراقوم و (آراقوم ؟) وعلى ضفاف سيحون وچو وصارى صو .

ولا يذكر أبو الغازى وهو مؤلف متأخر عاش فى القرن السابع عشر مصادر روايته . ولكنا مع هذا نراها متفقة مع ماقال قار پينى وهو معاصر لأوردا و باطى وشيبان ، وقد بسط خلفاء شيبان سلطانهم على أماكن أخرى كثيرة ، فكان حفيده — كما يروى رشيد الدين — قائداً على منطقة الحدود بجوار (تره ك) وظلت ممتلكات شيبان فى أيدى خلفائه حتى القرن الخامس عشر ، ووردت شجرة نسبهم دون اختلاف كبير — فى كتابين مختلفين ، كتاب أبى الغازى ، وكتاب (معز الأنساب) وهو مجهول المؤلف و يرجع إلى القرن الخامس عشر .

القبيلة الذهبية وتقاليد البدو :

وكانت الحياة البدوية فى البلاد التى آلت إلى أبناء شيبان أكثر تأصلامنها فى سائر البلاد التى انقسمت إليها ممتلكات جوچى خان ، ومع هذا فقد بقى الحكم فيهم أكثر من مائتى سنة ، وهو أمرقلما يحدث عند البدو ، وظل أبناء شيبان — لبعدهم عن التأثر بحياة الحضر — مخلصين لتقاليد البدو العسكرية ، و بذلك استطاعوا — حتى بعد أن خضدت الايام شوكة أسرة جنگيز فى كل البقاع — أن يحافظوا على خصائصهم كغزاة وفاتحين .

وتدل هذه الحقيقة — بالإضافة إلى حقائق أخرى مشابهة — على خطأ زادلوف حين علل بقاء الدولة المغولية — بالنسبة إلى غيرها من دول البدو —

بتكونها من دول أجنبية ،شعوبها حضرية ، بحيث يمكن القول (فى رأيه) بأنها لم تنشأ عن وحدة قبائل البدو ، ولكن عن اتحاد بين بلاد متحضرة خضعت لأبناء جنكيز .وهذه البلاد المتحضرة هى الصين وآسيا الوسطى وآسيا الغربية الخ) والحق إن أكثر الدول المغولية استقراراً نشأت فى البلاد التى لم تستند إلى تقاليد الحكم التى كانت سائدة قبل العهد المغولى (هذه البلاد هى صحارى القبچاق وحوض الڤلجا والقرم) ويمكننا لذلك أن نستنتج أن التشكيلات العسكرية التى أوجدها جنكيز لم تكن أقل أهمية لإقرار الحكم من التوجيهات التى كان يأخذها عن أصحاب الحضارات فى مسائل الإدارة المدنية ولا شك أن هؤلاء كانوا يحاولون دائماً أن يزيدوا نفوذهم عند الخانات ، وكان الصينيون منهم خاصة لا يعترفون بمدنية غير مدنيتهم ، ويرون أن لارقىّ إلا بالأخذ بأسبابها وتمثلها ، وبهذا تُفَسَّر الروايات الصينية عن الوزير يه — لو — چو وعن دوره فى دولة المغول (لم يكن هذا الوزير صينى الأصل ، بل صينىّ الثقافة والتربية ، وأصله من القاراخيطاى) بل تروى المصادر الصينية ، أن هذا الوزير هو المؤسس الحقيقى لدولة المغول .

ومع أن المصادر غير الصينية لا تشير إلى هذا الوزير . فقد قبل بلوشيه وهو الناشر الأوربى لكتاب رشيد الدين ، رواية المصادر الصينية ، فعنده مثلا أن (يه — لو — چو — تساى) هو أول من بيَّن للمغول عدم جواز القتل العام والسلب والنهب ، وعنده أيضاً أن دولة جوچى خان كانت وحدها بعيدة عن نفوذ (يه — لو — چو—تساى)، وعن نفوذ ممثلى الحضارة الصينية بعامة،فظلت لذلك متردية فى حمأة من البربرية لا توصف dans une barbarie sans nom .

حضارة القبيلة الذهبية :

والواقع أن القسم الغربى من ممتلكات جوچى ، حيث ولى الأمر ابنه الثانى باطى ، وصل فى عهد المغول إلى درجة عالية من المدنية (كان باطى أعظم حاكم

فى كل ممتلكات جوچى) وفى ذلك العهد توطن المغول فى بلاد بلغار الفلجا بعد أن أبادوهم ، ولكنهم قنعوا بأن يأخذوا الجزية من أمراء الروس ، وبأن يرسلوا إليهم نواباً يمثلونهم، وكان البلغارقدطوقوا المغول فى سنة ١٢٢٣ وهم فى طريقهم من روسيا إلى جنكيزخان . ولم يستطع المغول شق طريقهم إلا بتضحيات كبيرة ، فلمافتح المغول بلادالبلغار سنة ١٢٣٦ ثأروا من الأهالى وخربوا عاصمتهم ، ومع هذا فما لبثت عاصمة البلغار أن بنيت من جديد بل إن الآثار والنقوش الموجودة بها الآن ترجع كلها إلى العهد المغولى .

وفى وقت ما كانت مدينة (بلغار) هى المدينةالوحيدة فى بلاد أولاد جوچى التى تسك فيها عملة خانات المغول ، وتدل النقوش على أن الشعب كان يحتفظ حتى بداية القرن الرابع عشر بلغته القديمة التى ترجع إلى ما قبل العهد المغولى ، (وتمثل لغة الچوواش الحالية آخر أثر لتلك اللغة) . ولكنه استسلم بالتدريج لنفوذ اللغة التركية القبچاقية التى أصبحت هناك — كما أصبحت من قبل فى آسيا الوسطى — لغة رسمية للدولة،ويحتمل أن تكون المدن التى أسست فى عهد المغول على المجرى الأوسط للفلجا تركية خالصة مثل مدينة قازان) .

ومنذ عهد باطى كانت المدن الجديدة تشيد على المجرى الأدنى للفولجا ، ويقول الراهب روبروق أنه رأى فى سنة ١٢٥٣ فى طريقه إلى منغوليا قصبة أسسها التتار سكانها من الروس والمسلمين وكان السفراء يذهبون إلى سراى باطى ويرجعون منها عبر النهر : ولا شك أن هذا الوصف خاص بالمكان القريب من ساراتوف والذى سمى متأخراً (أوكه‌ك) Oukek .

ويذكر روبروق أنه رأى أثناء عودته مدينة جديدة أسسها باطى على نهر اتيل (الفلجا) واسمها (سراى) ، ويقول — وقد مر بنفسه من هذه المدينة —

إن قصر باطى ومدينة سراى يقعان على الضفة الشرقية ، ولكنه لا يصف المدينة ولا القصر .

وقريباً من نفس هذه الأماكن ، على الفرع الأوسط للفلجا ، كانت توجد من قبل المغول مدينة (سومر كنت) التى يقال إن المغول حاصروها ثمانية أعوام ولم تذكر هذه المدينة فى أى مرجع آخر ، وما زلنا نجهل إلى أى أمة تنتسب وهل هى — كما قال مؤلف القرن الثانى عشر أبوحامد الغرناطى ، وغيره — نفس مدينة ساقسين التى كانت بأيدى الغز ، أم أنها مدينة أخرى . وما زال موقع ساقسين هذه من المسائل الخلافية ، ولكن يبحث عنها بوجه عام عند منابع (ياييق) أو منابع الفلجا (وعلى هذا فلا علاقة بين مدينة ساقسين المعروفة فى القرن الثانى عشر و بين المدينة البلغارية (ساخسين) التى يذكرها محمود الكشغرى . ويقرر أنها هى مدينة سووار بعينها) وعلى كل حال فلم يرد فى أى مصدر أن المغول لاقوا مقاومة عنيفة فى ساقسين . وما زالت مشكلة تحديد مكانها بغير حل إذ لم يستطع العالم الفرنسى جابرييل فرّاند Gabriel Ferrand ناشر كتاب الغرناطى فى سنة ١٩٢٥ أن يحدده .

وكلمة سراى كلمة فارسية أخذها الترك فى زمن مبكر ووردت فى كتاب (قوتادغو بيليك) وكان المغول يطلقونها على مقام الخان . ثم اتسع معناها فأطلقت أيضا على المدن التى تنشأ حول السراى . ومن ذلك مثلا قرية (سراى) الواقعة شمال ترمذ على نهر جيحون . و (سراى) الواقعة على الفلجا ثم (باغچه‌سراى) بالقرم . وقد ثار الجدل فى كتب العلم حول (سراى) الفلجا : هل هى نفس (يكى سراى) المسكوكة على بعض العملات والواردة فى بعض المخطوطات؟ ويتبين بالنظر إلى أقوال رو بروق أن أول (سراى) أسسها (باطى) كانت فى مكان الخرائب المحدقة بقرية سه لتيرن Selctrennyi الحالية ، وأما (سراى) الأخرى

التى أسسها أخوه (بركه) فقد كانت فى مكان (تساره‌ف) Carev وكانت — كما تدل خرائبها ، وكما تدل نتائج الحفريات — ذات قيمة تاريخية أكبر من (سراى) الأولى.

وتوجد فى وقتنا هذا محاولات لإثبات أن (سراى) التى أسسها (باطى) لاتوجد وحدها فى مكان سيليتيره ن بل توجد معها أيضاً (سراى) التى أقامها (بركة) . وأما (يكى سراى) التى كانت فى مكان (تساره ف) فيظن أنها لم تؤسس إلا فى زمن الاوزبك ، وانها بلغت شأوا بعيداً فى عهد جانبك ومع هذا فإن المصادر تسمى (سراى) ، التى كانت موجودة فى عهد الأوزبك : (بركه سرايى) وقد وصلت إلى أيدينا عملة نقدية سكت فى (يكى سراى) فى سنة ٧١٠ هجرية ، أى قبل سلطنة الاوزبك ، وبالاضافة إلى هذا فقد قيل لى ان باستانبول مخطوطة فى علم الكلام حررت فى (يكى سراى) سنة ٧٠٥ هجرية ، ويلاحظ أن المدن فى جنوب روسيا فى عهد المغول كانت توصف كثيراً بكلمة يكى ، أى جديد ، ومن الصعب أن نتصور وجود مدينتين تحملان أسماء واحداً ، إحداهما جديدة ، والأخرى قديمة ، والأرجح أن كلمة (يكى) كانت تطلق على الأحياء الجديدة على اعتبارها مدناً .

العملة :

وكانت الحياة الحضرية فى عهد خلفاء باطى و بركه تتطور وترقى على العكس منها فى الأقاليم الشرقية من ممتلكات جوچى ، ففى عهد هؤلاء الخلفاء (أى خلفاء چنكيز) أسس عدد من المدن كانت تسك بها العملات ، ومما يلفت النظر أن كل مدينة كانت لها عملة خاصة تختلف شكلا ورسماً عن عملة غيرها مع تقارب قيمة العملتين ، ومع هذا فقد كان شكل العملة فى عهد المغول ، أكثر تَقَارُباً منه قبل ذلك العهد و بعده .

وقد ظهر فى كل الدول التى أقامها المغول — ما عدا دولتهم فى الصين — نظام خاص للعملة ، فكانت أكبر قطعة من النقد الفضى تسمى (ديناراً) وأصغر

قطعة تسمى (درهماً) وكان الدينار يساوى ستة دراهم ، وقد ثُبِّت وزن الدرهم فى عهد خلفاء جوچى ، على ثلث مثقال ، ثم طبق هذا الوزن فيما بعد فى آسيا الوسطى وإيران مما يوضح أهمية ممتلكات خلفاء جوچى — وبخاصة خوارزم — فى التجارة الدولية فى ذلك الوقت .

وكان لكل مدينة طابع خاص يظهر فى شكل العملة ونقشها ونوع حروفها. وهنا يرد سؤال : إلى أى مدى يمكن أن يساعدنا العلم بمستوى المدنية فى تلك المدن المتعددة على معرفته فى امبراطورية أبناء جوچى بوجه عام ؟ .

لقد بدأ العلماء — استناداً إلى الاكتشافات فى (سراى) وغيرها من الأماكن — يبرزون طابع مدنية التتار والآلتون أوردو ، (وهو الاسم الذى يطلق فى الحوليات الروسية على امبراطورية باطى ، ولم يستعمل هذا الاسم فيما أعلم فى المصادر الشرقية .

ومهما يكن فلا بد من عمل طويل متواصل لكى نعرف فى كل مدينة على حدة — أى العناصر القومية كان أكثف عدداً ، ولكى نعرف أيضاً بصورة واضحة ، كيف تم هذا الرقى المدنى الذى كلل بانتصار الإسلام واللغة التركية .

النظام السياسى فى
دولة القبيلة الذهبية

لم يكن للعنصر المغولى منزلة كبيرة عند القبيلة الذهبية ، والظاهر أن اللغة التركية سادت بسرعة ، وبخاصة بعد انقطاع العلاقات بين القبيلة الذهبية ومنغوليا وكان باطى وبركه يشتركان معا فى إدارة أمور الامبراطورية كلها . وسافرا من أجل ذلك إلى منغوليا ولكن روبروق يقول فى سنة ١٢٥٣ إن الإمبراطورية كلها قُسِّمت بين باطى وبين مانغو الذى كان يعيش فى منغوليا . وكانت الحدود بين المنطقتين تشق المنطقة الواقعة بين نهرى چو وتالاس. ويقول المؤلفون المسلمون

إن مدن ما وراء النهر . انتقلت من حكم (باطى) إلى حكم (بركه) ولم تقم حكومة آلغو (وهو حفيد الإبن الثانى لجنكيزخان : چغتاى) فى آسيا الوسطى إلا سنة ١٢٦٠ ثم اتسعت أراضيها فشملت أراضى كانت تابعة من قبل للقبيلة الذهبية واحتل (آلغو) خوارزم ، وبعد بضع سنوات أخذ (اوترار) عنوة من يد (بركه) ، وخربها .

ومع أن هذه المناطق ما لبثت أن ضمت من جديد إلى بلاد القبيلة الذهبية فإن نفوذ الخانات لم يزد امتداداً نحو الشرق ، وفى عهد بركة (١٢٥٧ — ١٢٦٦) استقل خان القبيلة الذهبية ، بعد أن كان أحد أركان امبراطورية المغول، ولكن خلفه الخان مانغوتيمور كان أول من سك العملة باسمه ، وكان كل الخانات المنتمين إلى أسرة جوچى ، ومن بينهم أبناء أوردا وشيبان تابعين نظريا — لخان القبيلة الذهبيةدون أن يكون لهذه التبعية أية أهمية ، ويضيف بعض المؤرخين كلمة (كوك) إلى عبارة (الآلتون اوردو) (أىالقبيلة الذهبية) كما يصفون حكومة خلفاء أوردا بكلمة (آق) وهما كلمتان تركيتان غير مغوليتين الأولى بمعنى أزرق والثانية بمعنى أبيض ، ومع ذلك فإن بعض المصادر تطلق عبارة (كوك أوردا) على بلاد خلفاء أوردا ، ويقول مؤرخ مجهول الاسم عاش فى بداية القرن الخامس عشر إن وصف الجزء الشرقى من بلاد أوردا بكلمة (آق) والجزء الغربى بكلمة (كوك) بدأ بعد الحروب التى نشبت بين الخان (توختة) (١٢٩٠ — ١٣١٢) وبين الأمير الثائر ضده نوغاى الذى قتل سنة ١٣٠٠ (اسمه الحقيقى باللغه المغولية (نوغتاغا) كما هو ثابت فى كتاب أرسله الخان المغولى بإيران إلى ملك فرنسا سنة ١٣٠٥) ويقرر هذا المصدر أن خانات الآق أوردا كانوا من ذرية نوغاى ، وهو أمر مخالف للحقيقة ، يدل على الخلط الذى أصاب تاريخ أبناء جوچى بإيران فى القرن الخامس عشر ، حيث حرر المؤلف كتابه ، ويسمى أبو الغازى بلاد شيبان (آق اوردا) .

وإذا غضضنا الطرف عن بلاد أحفاد أورداو شيبان ، فلا يمكن القول بأن الآلتون اوردا كانوا أكثر إتحاداً من كل من سبق من أبناء جنكيز .

وفى كثير من الأماكن كان يوجد أمراء يعترفون بحكم الخان ، ولكنهم يملكون فى نفس الوقت جيوشاً خاصة بهم ، ويروى مؤلف مصرى أثناء حديثه عن المدينة التجارية (سوداق) أن دخل المدينة كان يقسم بين أربعة أمراء من التتار ، ولكن لم يبق بكل مناطق القبيلة الذهبية الممتدة من الطونة إلى خوارزم فالمجرى الأدنى لسيحون أية أسرة حاكمة تابعة من عهد ما قبل المغول .

اللغة التركية فى عهد القبيلة الذهبية :

وكان المغول قد جاءوا للقبيلة الذهبية — كما جاءوا فى كل مكان — بالأبجدية الأويغورية التى لم تكن معروفة حتى ذلك الزمان فى بلاد القبچاق ، وبين أيدينا فرمانات من القبيلة الذهبية مكتوبة بالحروف الأويغورية وترجع إلى نهاية القرن الرابع عشر ، كما أن لدينا قطعاً من آخر عملة سكها الخان (توختاميش) وقد نقش عليها اسمه بالحروف الأويغورية ومع هذا فلم نر هذه الحروف استعملت إلا على العملة المضروبة فى (سراى) ، وحتى ذلك لم يكن بصفة دائمة ، وتدل هذه القطع النقدية على أن المغول وبعض الترك ، كانوا ينطقون أسماء الخانات محرفاً ، لأنها مكتوبة بالحروف العربية ، فمثلا كان اسم جانبك (١٣٤١ — ١٣٥٧) يكتب بالحروف الأويغورية (جا مبه ك) ويدل كلام أبى الغازى على أن لسان المغول لم يكن منعدم الاستعمال فى القرن الخامس عشر ؛ ولكن ليس لدينا مايثبت ذلك ومهما يكن فإنا لا نعرف عملة للقبيلة الذهبية نقشت بالحروف المغولية . . ولكنا نجد عملة عليها العبارة التركية : (قوتلوغ بولسون) أى (أسعده الله) وهى قطع لا تحمل اسما وترجع إلى عهد متأخر .

ولم يسمع ابن بطوطــة فى زيارته معسكر اوزبك خان إلا كلمات تركية فعند نساء القصر مثلا كانت عبارتا (اولوخاتون) و (كوچوك خاتون) تستعملان بمعنى (السيدة الـكبيرة) و (السيدة الصغيرة) وكان الخان نفسه يصف مربيه الروحى وهو من السادات بكلمة (آتا) وهى كلمة تركية بمعنى الأب : وكانت اللغة التركية تستعمل فى العبارات الإسلامية وفى مدينة آزاق : سمع ابن بطوطة رجلا يعظ بالعربية ، وبعد أن دعا للسلطان (وهو فى ذلك الوقت اوزبك خان) وللحاكم المدينة (وأصله خوارزمى) ، وللحاضرين ، عاد فقال عظته بالتركية ، ولم يكن هذا فى مسجد بل فى مأدبة ، وكانت العادة فى ذلك الوقت أن يقرأ القرآن الـكريم ثم تنشد بعد ذلك القصائد الدينية العربية والفارسية والتركية ، ويضيف ابن بطوطة أن القصيدة الدينية العربية كانت تسمى (قولا) وأما الفارسية أو التركية ، فـكانت تسمى (ملمعا) ثم أطلقت هذه الـكلمة فيما بعد على الـكلام المركب من العربى والفارسى والتركى .

الإسلام فى القبيلة الذهبية :

ولا بد أن أثر أتراك خوارزم ، وآسيا الوسطى فى نشر الإسلام فى القبيلة الذهبية ، كان أكبر من أثر بلغار الفلجا ، وكان الأتراك المحليون (القبچاق) يتعرضون من قبل عهد المغول — للتأثير المسيحى الوافد من روسيا وغرب أوربا وفى العهد المغولى نفسه لم يفتر الترويج للنصرانية ، وآية هذا وجود معجم قبچاقى — قومانى ، يرجع إلى آخر القرن الثالث عشر ، ويحوى ترجمة تركية للانجيل ، ولبعض الأناشيد الـكاثوليـكية ، وتؤكد هذه الترجمة علم مروّجى المسيحية باللغة ، وقد رأى ابن بطوطة فى القرم بين كفه Kaffa وكرچ Kerch قوما من القبچاق يدينون بالنصرانية ، وكان بالقرم نصارى محليون ينتسبون إلى عنصر قومى آخر ، وفى سنة ١٣٨٢ توفى بالقاهرة أنس ،أبو سلطان مصر الجركسى القرمى برقوق ، ويقال إن أنس

هذا كان نصرانياً ثم أسلم . و إنه لم يستطع — حتى فى مصر — أن يحسن العربية ولا التركية ، وظل يتكلم الچركسية ، وكان الترجمان — بسبب ذلك — لا يفارقه .

ولما كانت المدنية الإسلامية هى العليا فى ذلك الوقت ، فقد دخلت فى الإسلام أقوام كانت أرسخ قدما فى التقاليد المسيحية من القبچاق .

و بينما كان المؤلفون ، ومن بينهم (رو بروق) يؤكدون أن اللان والـ (آس) كانوا نصارى ، فقد قابل ابن بطوطة فى (سراى) قوماً من الآس يعتنقون الإسلام ولم يدخل هؤلاء النصارى فى الإسلام إلا بالإكراه ، بل كان قساوستهم — مثلهم كمثل مشايخ المسلمين — يعفون من الضرائب ، وفى عهد (بركه) المسلم أسست فى (سراى) سنة ١٢٦١ أبروشية مسيحية . ووردت فيما بعد روايات مختلفة عن دخول بركة فى الإسلام فيقول أبو الغازى إن بركة دخل فى الإسلام وهو خان ، على يد تاجرين وافدين من بخارى ، وتقول روايات أخرى إنه دخل الإسلام قبل اعتلائه العرش بتأثير بعض مشايخ خوجند و بخارى (و يذكر فى هذا الباب اسم سيف الدين البافرزى المتوفى سنة ١٢٨١)، وقد نسبت إلى (بركه) فيما بعد إحدى مناقب أوغوز خان الواردة فى رشيد الدين ، وخلاصتها أن أوغوز خان رفض أن يرضع لبن أمه لأنها كافرة ، و يفهم مما حكى رو بروق أن بركة كان مسلماً فى سنة ١٢٥٣ أى و باطى لا يزال على قيد الحياة وأن لحم الخنزير لم يكن يؤكل فى اوردا بركه ، ومن الجدير بالملاحظة أن تحريم لحم الخنزير مطبق حتى فى الأماكن التى يصعب فيها هذا التطبيق مثل الصين حيث يعتبر هذا اللحم الغذاء الرئيسى للشعب ، وكان اوردا بركه يقع فى ذلك الوقت بين در بند والفولجا ، أى — كما يقول رو بروق — على الطريق الذى يمر به كل المسلمين الآتين من إيران وتركيا ، وكان هؤلاء المسلمون حين يأخذون طريقهم إلى باطى ، يحملون الهدايا إلى بركه ثم يضيف رو بروق أن باطى أمر بركه

فى سنة ١٢٥٤ بأن ينتقل إلى شرق القلجا لكى لا يأخذ هذا الجزء من الهدايا التى يحملها له السفراء ، وقد وثق أواصر الصداقة بين بركه وبين سلطان مصر عداؤهما المشترك لمغول إيران ، وبهذه المناسبة استقبل بركه عدة سفارات من قبل سلطان مصر .. يرجع إليها الفضل فى وصف الأوردا ، وأحواله الخارجية . ولم يكن الخان وحده هو المسلم بل كان نساؤه ورجال حاشيته مسلمين ، وكان لكل سيدة ولكل أمير إمام ومؤذن . وكانت مدارس تحفيظ القرآن للصبيان كثيرة . ومع هذا كله فقد كانت تتبع هناك بعض عادات المشركين المتبعة فى منغوليا . فمن ذلك عادة تتعارض مع تقاليد الإسلام وهى عدم استعمال مياه النهر لا للغسل ولا للاغتسال وقد نُبِّه على سفراء مصر مقدماً بألا يغسلوا ملابسهم فى الأوردا . ولكنهم - لشدة حاجتهم لذلك — كانوا يغسلونها سراً . ولم يكن بدٌّ لمعاصرى بركه ممن جاءوا إلى مصر من أن يتأثروا بالمدنية الإسلامية أكثر من أى شىء آخر .

ومن المعلوم أن بركه زوج ابنته للسلطان بيبرس (١٢٦٠ — ١٢٧٧) ومن هذا الزواج ولد أول ابن لبيبرس وهو الملك السعيد خان محمد المسمى فى نفس الوقت ناصر الدين بركه خان . أى أن له — كما يتضح — اسما مغوليا إلى جانب اسمه الإسلامى .

ويذكر المؤرخ المصرى الكتبى صاحب (عيون التواريخ) أن ناصر الدين بركه خان هذا ولد سنة ٦٥٨ = ١٢٦٠م . (ويوجد هذا الجزء من مؤلفات الكتبى مخطوطاً فى استانبول) وهذا مستحيل ، لأن العلاقة بين بركة وبين حكومة مصر لم تبدأ إلا سنة ١٢٦٢ ، وفى نيسان ١٢٧٩ ذهب السلطان الصغير إلى الشام مع أمه بنت بركه خان ، وبعد ذلك بقليل قامت بسورية ثورة ، وأرسل السلطان أمّه لتهدئتها ، وخرج الأشراف لاستقبالها ، فخروا سجدا أمام التختروان ، وفرشوا كعادتهم الأرض تحت أقــدام الخيل ، ولكن

محادثاتها لم تنجح فأرسل السلطان أمه إلى قلعة كراك حيث نفى هو فيما بعد ، وكان هذا السلطان كما يروى (الكتبى) جواداً ذا مرحمة بريئاً من الظلم والكبر وظهر سخاؤه فى كراك حتى أثار شبهة حميه قلاوون الذى انتقل إليه الحكم ، وفى سنة ١٢٨٠ توفى السلطان مسموماً بأمر قلاوون كما يقال ، وظلت زوجته (غزية خاتون) بنت قلاوون تبكيه حتى ماتت (عاشت هذه السيدة حتى سنة ١٢٨٨ وفى سنة ١٢٨١ جاءت بجثته إلى دمشق ودفنته فى تربة بيبرس) .

ويصرح سفراء مصر بأوردا بركه خان بأنه لم يرزق إلا إناثا ، ولكن الكتبى يذكر أن الأمير بدر الدين محمد بن بركه خان ، وخال ابن بيبرس توفى بالقاهرة فى شباط سنة ١٢٨٠ ، ويروى أن لهذا الأمير ديوان شعر عربى ، وكتباً فى الكلام ، وتفسيراً للقرآن ، وأنه سقط من مكان عال فقضى فى الحال وسنه خمسون سنة .

انقسام القبيلة الذهبية :

وبعد وفاة بركه خان ،ولى الأمر من جديد خانات مشركون ، ولم يستقر الإسلام نهائيا إلا فى عهد أوزبك خان (١٣١٢ أو١٣١٣ — ١٣٤٠) ، ويروى ابن بطوطة أن معلم أوزبك خان هو سيد بن عبد الحميد ، وتقول رواية أخرى أن الشخص الذى هداه إلى الإسلام وسماه السلطان محمد أوزبك خان هو الشيخ سيد آتا التركستانى المدفون بطشقند وأحد خلفاء زنكى آتا (والاسم الأصلى للشيخ سيد آتا هو أحمد) .

وكان ذلك فيما يقال فى سنة ٧٢٠ هجرية الموافقة لعام الدجاجة (١٣٢١) وتروى عن هذا الشيخ أسطورة خلاصتها : أنه قاد شعب أوزبك خان إلى ما وراء النهر حيث تسمى الشعب باسمه (أوزبك) وأما القاعدون عن الهجرة معه ، والباقون فى تركستان فقد سموا (قالمق) = أى (المخلفون) ولا شبهة فى أن هذه الرواية من صنع الخيال ، ومع هذا فإن بعض المصادر ومنها أبو الغازى تقرر أن اسم

شعب الأوزبك مشتق من اسم (أوزبك خان) ولا شك أن هذا الرأى أرجح من الرأى القائل بأن أوزبك معناه : (حاكم نفسه بنفسه) وهو رأى كثير من العلماء ومن بينهم رادلوف .

ويسمى مؤرخو القرن الخامس عشر بلاد جوچى خان أو شعبه باسم (شعوب اوزبك) = (اوزبك أو لوسارى) وفى آسيا الوسطى صارت كلمة أوزبك بمعنى شعب مرادفة لكلمة (چاغاتاى) التى كانت تطلق على بدو تركستان الذين تتكون منهم القوات العسكرية للخانات المحليين ، وكان المشايخ فى آسيا الوسطى لايكفون عن العمل لإدخال خانات أوردا فى الإسلام حتى نجحوا فى النهاية ، وفى سنة ١٣٦٠ أقام عزيز خان ، واسمه المنقوش على العملة ، هو (عزيز شيخ) حكومةً فى سراى .

ولما كان هذا الشيخ سفيها فقد نصحه السيد محمود اليسوى حفيد احمد اليسوى وسمم الخان للشيخ وزوّجه ابنته ، ورجع عن غيه ، ولكنه مالبث بعد ثلاثة أعوام أن عاد إلى حياة المجون إلى أن قتل .

وفى النصف الأول من القرن الخامس عشر كان شعب (أوزبك) المنظم عسكريا يعتبر شعبا موحدا ، فلما اضمحلت القبيلة الذهبية بالتدريج ، وفقدت أجزاؤها المختلفة استقلالها لم تعد كلمة (أوزبك) فى جنوب روسيا علماً على أمة أو على دولة ، بل صارت لاتدل إلا على القبائل التى هاجرت إلى تركستان .

وكما كان الروس يطلقون كلمة تتار على شعب الآلتون أوردا (القبيلة الذهبية) أيام كان يتكلم المغولية ، فقد ظلوا يطلقون عليه نفس الاسم بعد أن تتركت المنطقة كلها ، وفى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، كان الروس يطلقون كلمة تتار على كل الخانيات المتصلة بهم فى القرم وقازان وآزدرخان (اصطرخان) وسيبريا ، ومن المعلوم أن أطول هذه الخانيات عمرا هى خانية القرم ، ويلاحظ أن اصطلاح تتار قد تأصل فيها أكثر منه فى غيرها .

ولما احتل العثمانيون القرم سنة ١٤٧٥ أطلقوا هم على أهاليها كلمة تتار ومن المعروف أن أهل القوم يرفضون الآن هذه التسمية ويسمون أنفسهم الترك ، هذا على حين أن الطبقة المثقفة من سكان وادى الفلجا قد اعتبرت كلمة (تتار) (وذلك بعد بعض المناقشات) اصطلاحا قومياً وترتب على ذلك ظهور (جمهورية التتار) وكان الروس فى وقت ما يستعملون كلمة تتار على نطاق واسع ، حتى إن رادلوف كان يسمى الأوزبك — كما كان يسمى كل الناطقين بالتركية فى آسيا الوسطى — تتاراً ، وجرت محاولات منذ ذلك الوقت لتحديد مفهوم كلمة (تتار) ولكن لم يمكن حتى الآن تثبيت الفروق اللغوية والاتنوغرافية بين التتار وبين الأقوام التركية الأخرى .

وتذكر المصادر فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، قوما غير التتار لهم وحدتهم الآتنوغرافية واللغوية والسياسية ، ولهم أمراؤهم (النوغاى) وكان مركزهم فى ذلك الوقت هو (سرايجق) الواقعة بالقرب من منبع (ياييق) والتى تضم مدافن خانات الآلتون أوردوا .

وقد خلط كثير من المؤلفين — وأولهم أبو الغازى — بين سرايجق هذه وبين يكى سراى وفقد النوغاى كيانهم السياسى ، فى النصف الثانى من القرن السادس عشر ، عندما كون قازاق اليايبق جيشا . وكان هؤلاء القازان ، فى أول أمرهم ، مستقلين عن موسكو ، ولكنهم مالبثوا أن أخضعو لقيصر روسيا فى القرن السابع عشر ، ومما تجدر ملاحظته أن الروس كانوا — فى ذلك الوقت — يستعملون وحدهم اصطلاح (نوغاى) .

فأما المصادر الشرقية وعلى رأسها أبو الغازى ، فكانت تطلق عليهم اسم ما نفيت وهو اسم أحد الأقوام التى تتركت ، والآن حدث العكس إذ تستعمل

كلمة نوغاى فى آسيا الوسطى بمعنى أوسع مما كان لها فى روسيا حتى إنها لتطلق هناك على التتار القاطنين وادى الفلجا .

وفى جنوب روسيا الآن تطلق كلمة نوغاى على قومية خاصة بالقرم وشمال قافقاسيا . وتختلف لغة النوغاى — بوصفهم شعباً لم يظهر إلا فى العهد المغولى — عن لسان القاراچاى والبلقار ؛ فإن هذين اللسانين أقدم منها وأقرب إلى لغة القبچاق قبل العهد المغولى .

والآن فما زالت لدينا مسائل غامضة : كيف كانت حياة الترك القومية والسياسية فى آسيا الوسطى طوال القرنين الثالث عشر والرابع عشر ؟ وكيف تم تترك المغول ؟ هذا هو موضوع المحاضرة القادمة .

المحاضرة العاشرة

المغول فى آسيا الوسطى

اضطراب الموقف السياسى :

بينما كان لخانات القبيلة الذهبية ـ فى أول أمرهم ـ نوع من الاستقلال بفضل بعد بلادهم عن منغوليا ، كان النظام السياسى فى المناطق التى غزاها المغول بتركستان ، وفى آسيا الوسطى بوجه عام ، مائعاً مطموس المعالم . ولا شك فى أن جنكيزخان كان يريد أن يخلف كل البلاد التى فتحها فى غرب منغوليا لأولاده الثلاثة الكبار . بل لا شك أيضا فى أن هؤلاء الأبناء قد مارسوا الحكم فى هذه المناطق وأبوهم على قيد الحياة ، ولكنهم ـ مع هذا ـ لم يحددوا المنطقة التى يحكمها كل منهم كما لم يحددوا مدى نفوذ كل منهم بالنسبة لنفوذ الرئيس الأعلى للامبراطورية

ومما تجدر ملاحظته أن (اوردا) كل منهم كان قريبا من (اوردا) الآخر رغم ترامى أطراف الامبراطورية .

كان (اوردا) جوچى على المجرى الأعلى لنهر ايرتش وتقول المصادر القديمة إنه مدفون هناك ، وإن كان قبره قد ظهر فيما بعد فى مكان بعيد نحو الغرب وهو (صارى صو) الواقعة فى ملك شيبان ، مما يتفق مع قاعدة المغول التى تقضى بأن يرث الابن الأصغر (اوردا) الأب ، وإلى جوار ايرتش عاش فيما بعد ، (اوردا)[1] الإبن الأكبر لجوچى ، وكان مُلك الابن الثالث (اوكه دى ى) = Ogedey أبعد نحو الجنوب على ضفة نهر (اميل) الذى يصب فى بحيرة آلا كول ، ودفن أوكده ى كما يروى رشيد الدين فوق جبل عال ينبع منه أحد فروع نهر ايرتش ويقع على مسيرة يومين . ويتحدث

---

(١) كلمة أوردا فى هذه الجملة اسم علم ، وليست بمعنى معسكر وهو المعنى الذى ورد قبل ذلك .

الراهب الصينى چان ــ چو Tch,ang - Tchouen وقد مر باوردو المغول سنة ١٢٢١ ، عن طريق أنشىء عبر الآلتاى بأمر من اوكه ده ى ، ويمكن أن نستنتج من هـذه الرواية أن أوكده ى كان يعتبر نفسه حاكما على تلك النواحى حتى فى حياة أبيه ، ولم نستطع حتى الآن أن نجـد فى أى مصـدر تحديداً لبلاد (اوكده ى) وكل ما لدينا هو قول الجوينى « كان وطن اوكدى ــ وأبوه حى ــ داخلا فى حدود اميل وقوبوق » ومن المعلوم أن هذين النهرين ينبعان تقريبا من مكان واحد ، ثم يجرى أحدهما غرباً والآخر شرقا . وأما (اوردا) الابن الثانى جاغتاى ، فقد أورد عنه الجوينى معلومات أصدق وأيقن فقد كان يقع على روايته فى (قوياس) المجاورة لألماليق ، وأما البلاد التى يحكمها فـكانت تمتد من حدود بلاد الأويغور إلى سمرقند وبخارا ، ويؤخذ من روايات چان ــ چون أن جاغاتاى هو أول من فتح الطريق المار بجوار بحيرة سايرام ، عبر جبال تالـكى ، وأنه أيضاً أقام الجسور من جديد على نهر جيحون بعد أن دمرت فى حرب سنة ١٢٢٢ ونعلم من مصادر أخرى أن (قوياس) و (اوردا) جاغاتاى كانا بمنطقة قولجه فى جنوب نهر إيلى ، ولقد رأينا فى كتاب الـكشغرى أن (قوياس)مدينة تقع خلف بارسخان ويقول فى مكان آخر إن (قياس) اسم بلاد تخسى وچكيل ، وهى ثلاثة حصون يسمى أحدها (سا بليغ قياس) والثانى (أورنك قياس) والثالث (قراقياس)

(انظر ديوان لغات الترك ج ٣ ص ١٢٩) .

ويذكر الجوينى (اوردا) جاغاتاى وخلفائه الأولين باسم (اولوغ او) أى البيت الـكبير ، ولا شك أن لإطلاق هذه الـكلمة (اولوغ او) على مقر الخان فى هذا الوقت المبكر أهمية خاصة ، وليس لدينا معلومات عن المـكان الذى دفن به جاغاتاى وخلفاؤه .

وهكذا كانت بلاد أبناء جـنكيز الثلاثة تشغل مكانا أصغر نسبياً إذ كانت

تمتد من المجرى الأعلى لإيرتش إلى جنوب ايلى . ويستنتج من هذا أنه لا يمكن اعتبار (الاورداوات) الثلاثة عواصم لثلاث حكومات مختلفة ، وتظل مسألة علاقات جاغاتاى وأوكده ى بمنغوليا مبهمة ؛ فبعد موت جنكيز انتخب اوكده ى إمبراطوراً ونقل عاصمته إلى منغوليا حيث شيد بمدينة قاراقوروم ، و بنى بها وحولها عدداً من القصور، ثم بدأ يمارس حقوقه فى الحكم غير ناظر إلى أى حق لتولوى بوصفه وارث منغوليا .. الوطن الأصلى لأبيه .

أما فيما وراء النهر ؛ فقد كان الحكم بيد محمد يلواج المعين من قبل أوكده ى رغم أن الأراضى الممتدة إلى سمرقند و بخارا كانت خاضعة لجغتاى .

كان الوضع إذن هكذا سنة ٦٣٦ (١٢٣٨ — ١٢٣٩) أى وقت واجه المغول فى بخارا ثورة الشعب وخاصة الفلاحين ، وبعد ذلك التاريخ بقليل عزل جغتاى محموداً من منصبه دون أن يستشير أخاه أوكه دى وعين مكانه حاكما آخر ، فلما شكا محمود إلى أوكدى ، استوضح أخاه الأمر فرد عليه معتذراً ، ولم يكتف أوكده بقبول العذر ، بل أقطع أخاه جغتاى كل ما وراء النهر وقد استعمل فى هذا المقام الاصطلاح المغولى (انجو) (بمعنى إقطاعية الأمير أومخصصاته) التى يستطيع بإيرادها أن يسهم فى سد حاجات البلاط ، وكان لكل أمير بالإضافة إلى ذلك الحق فى أن يحكم عددا من القبائل أى (أولوس) ، وكان من الممكن الظن بأن الحكام المعينين من قبل جاغاتاى كانوا يحكمون بعد ذلك بلاد ما وراء النهر ، ولكن رشيد الدين يروى أن والى (قاراخوجو) و (بش باليق) (أى بلاد الأويغور ، وختن ، وكاشغر ، والماليق ، وقاياليق ، وسمرقند ، و بخارى حتى ضفاف جيحون) فى عهد (أوكه ده ى) هو مسعود بن محمد يلواج وكان معينا من قبل أوكه دى ، وأما محموديلواج نفسه فقد عين حاكما عاما على بكين وتوفى سنة ١٢٥٤ وهو فى هذا المنصب .

ولم يستطع المؤرخ الفارسى (الجوزجانى) أن يفهم هذا الوضع السياسى ، فقرر خطأ أن مسعود بك كان وزيرا لجغتاى . ونحن نعلم أن مسعودا كان يمارس حقوق الحكم على المنطقة الواسعة الممتدة من بش باليق إلى سمرقند وبخارا وأن هذه المدينة كانت تبجله ، فقد أنشأ بها مدرسة كبيرة تعرف بالمسعودية ، خربها مغول إيران سنة ١٢٧٣ ثم أعيد بناؤها ثم دفن بها بانيها سنة ١٢٨٩ ، ونعلم أيضا أنه أنشأ (مسعودية) أخرى فى كاشغر ، وأن ابنه الثالث اتخذها مقراً له فى أوائل القرن الرابع عشر ، ومما يلفت النظر أن هذا التاجر الخوارزمى المسلم (يلواج) استطاع أن يقبض — طول حياته — على أزمة الحكم فى آسيا الوسطى رغم التغيرات السياسية المتعددة ، واستطاع أيضاً أن يترك هذا الحكم لأبنائه من بعده .

الصراع والمنافسة :

كان من أسباب القلاقل فى إمبراطورية المغول عدم وجود قانون لوراثة الحكم فقد أدى ذلك إلى كثرة المباحثات والجدل بعد وفاة كل خان . وكان لا بد للاعتراف بالخان الجديد من أن يحضر كل أعضاء الأسرة حفل اعتلاء العرش ، ولذلك كان يعقد بهذه المناسبة (قوريولتاى) ، وكانت إرادة الخان المتوفى مرعية المقام ، ولكنها لم تكن تفرض على الأمراء بلا قيد ولا شرط ، وربما انقضت سنون بين وفاة الخان وانعقاد القوريولتاى . وكان الحاكم طوال هذه المدة وطبقا للتقاليد هو زوجة الخان المتوفى ولكن سلطانها لم يكن يعترف به من الجميع . بل كان بعض الأمراء يتصرفون فى إيالاتهم بوحى من أنفسهم غير عابئين بحقوقها .

وقد تجلى هذا النوع من القلاقل فى الفترة بين وفاة أوكه دى . (سنة ١٢٤١) واعتلاء ابنه كويوك العرش فى سنة ١٢٤٦ . إذ كانت إرادة المتوفى أن يلى العرش شخص آخر . وفى عهد أوكده ى هرب مسعود بك مع الحكام

الآخرين خوفا من أن يتقلب عليهم أوكده ى . ولجأ مسعود إلى باطى ولكنه استطاع قبيل تنصيب كويوك أن يرجع ، واشترك فى قورولتاى سنة ١٢٤٦ بصفته والياً . وصدق كويوك على تعيينه والياً على (ماوراء النهر وتركستان وسائر الولايات) .

وتوفى كويوك سنة ١٢٤٨ . فانتقل العرش إلى ابن آخر من أبناء جنكيز هو تولوى ، وفى سنة ١٢٥١ نُصّب مانكو الابن الأكبر لتولوى خانا على الإمبراطورية كلها . ولم يكد يعتلى العرش حتى ائتمر به بعض الأمراء من أبناء جاغاتاى وأوكه دى ولكنه قتل جزءاً منهم ونفى الجزء الآخر . فتبدد بذلك شمل شعوب جاغاتاى وأوكه دى ولكنها — على هذا الشتات — لم تبد . فمثلا ظلت أرملة كويوك حاكمة على (أوردا) بهر اميل . و بقيت (اروكنه خاتون) زوجة قارا هلاكو حفيد جاغاتاى حاكمةً على (اوردا) جاغاتاى . ولكن السلطان الفعلى والنفوذ بقيا فى أسرة تولوى وجوچى .

وفى سنة ١٢٥٣ قال مانكو خان للمروّج الكاثوليكى روبروق : إن سلطانى أنا و باطى منتشر فى كل البقاع انتشار نور الشمس . و يؤخذ من كلام روبروق أن دائرة نفوذ مانكو و باطى كانت تتجاوز حدود تالاس الشرقية . أى أن جزءاً من أراضى قبائل جوچى كانت خاضعة لنفوذ مانكو .

وليس لدينا معلومات عن نشاط مسعود بك إبان فترة القلاقل والمؤامرات إلا مايقال من أن حياته تعرضت للخطر بسبب علاقته بمانكو . فلما استتب النظام من جديد وسِّعت حدود ولايته . فشملت ماوراء النهر وتركستان واوترار و بلاد الإيغور ، وختن ، وكاشغر وجند ، و خوارزم ، وفرغانة ، وفى خريف سنة ١٢٥٣ خرج هولاكو أخو مانكو من منغوليا على رأس جيش استولى به على بغداد . وأجهز على الخلافة العباسية . وأسس بهذا حكومة مغولية فى غرب

آسيا وكان جيش هولاكو فى أول الأمر يتحرك ببطء مثل جيش جنگيزخان فيما سبق . ولم يستطيع أن يعبر نهر جيحون إلا فى سنة ١٢٥٦ . وفى سنة ١٢٥٤ استقبلته اركنه خاتون فى (آلماليق) و (اولوغ او) وفى خريف سنة ١٢٥٥ قضى أربعين يوماً فى سمرقند حيث تكفل مسعود بك بقضاء كل حاجياته .

الامبراطورية الجغتائية :

ولكن الموقف مالبث أن تغير بعد وفاة مانكوخان فى سنة ١٢٥٩ فقد نشبت الحرب بين أخويه (قوبيلاى) و (اريق بوغا) من أجل العرش . فنصب الأول نفسه خانا فى الصين ، ونصب الثانى نفسه فى منغوليا ، وكانت أولى نتائج هذا الوضع هى عجز منغوليا عن استيراد القمح من الصين ، فأوفد (آريق بوغا) الأمير (آلغو) أحد أبناء جاغاتاى إلى تركستان ليدبر أمر استيراد المواد الغذائية والضروريات عامة ومن بينها الأسلحة ، واستطاع آلغو أن يستولى فى وقت قصير على كل الولايات التى كانت تابعة لشعب جاغاتاى بل استولى أيضاً على خوارزم ، وكانت فى قبضة شعب جوچى ، وكان من الطبيعى أن يفعل كل ذلك لحسابه الخاص دون أن يفكر فى تحقيق المهمة التى أوفده من أجلها آريق بوغا وجاءت اركنه خاتون إلى آريق بوغا تشكو آلغو ، والغالب أن مسعود بك ذهب إليه أيضاً ، فأعلن آريق — بوغا الحرب على آلغو ولكنه هزم بعد أن أحرز بعض الانتصارات فترك تركستان ، وأرسل أركنه خاتون ومسعود بك إلى (آلغو) ، فتزوج آلغو (اركنه خاتون) وعين مسعود بك والياً على سمرقند و بخارى ، ثم استطاع آلغو بفضل الأموال التى جمعها مسعود أن يفتح قبيل وفاته سنة ١٢٦٦ أوترار الداخلة فى بلاد بركه خان .

و بعد وفاة آلغو نصّب مباركشاه (وهو ابن اركنه خاتون من زوجها الأول) خانا على بلاد جاغاتاى ، وذلك بالقرب من نهر أنكرن ، ولكنه مالبث أن فقد عرشه على يد أمير جاغاتائى آخر هو (بوراق) الذى أرسله (قوبيلاى) بعد أن

سيطر على منغوليا ، ثم اضطر بوراق بعد قليل إلى أن يخضع بدوره لقايدو حفيد اوكه دى ، وكان قايدو هذا يعمل أول أمره فى جيش اريق بوغا ولكنه بعد أن اختفى آريق من مسرح الحوادث ، واصل الحزب مستقلا ضد آلغو وخلفائه وفى سنة ١٢٦٩ عقد قايدو قوزلتايا بالقرب من نهر تالاس ، تقرر فيه الدفاع عن الأراضى المزروعة ضد غارات البدو ، وتعهد الأمراء بأن يعيشوا فى أعالى الجبال ، وفى مناطق الاستبس، وألا يتركوا قطعانهم ترعى فى الحقول، وعهد إلى مسعود بك مرة أخرى بإدارة المناطق الحضرية ، وكان تعيينه هو وابنيه الكبيرين من قبل قايدو، أما ابنه الثالث فقد عينه چاپار بن قايدو وخليفته الذى ولى الأمر سنة ١٣٠٣ فى مكان قريب من نهر (اميل) ، ويفهم من هذا أن مقر قايدو وخلفائه كان منذ البداية مكاناً تابعاً لاوكه دى مع أن قايدو مدفون فى مكان بالجبال الواقعة بين نهرى چو وايلى ؛ ومع أن السلطة العليا فى تلك المنطقة كانت فى ذرية أوكه دى فقد كان الخانات الجغتائيون يصلون أحيانا إلى الحكم ، وكان أطول هؤلاء زمانا هو (تووا) ابن (بوراق) ١٢٨٣ — ١٣٠٦ وقد عاش كثيراً بعد قايدو ، ولا نعلم هل ثبتت الحدود بين شعوب چاغاتى واوكده أم لا ، وكذلك لا نعرف هل ثبتت الحدود فى ذلك الوقت بين شعوب أبناء جنكيز الأربعة فى آسيا الوسطى .

فى الشمال ، كانت بلاد تولوى تضم منذ النصف الأول من القرن الثانى عشر الأراضى التى كانت فى ممتلكات جوچى ، ومن بينها مناطق القيرغيز .

وقد تنوولت هذه المنطقة بإيضاح فى تاريخ قوبيلاى ، وفى كتاب أبى الغازى — بالإضافة إلى ذلك — رواية عن غزوات قام بها المغول فى المنطقة بين بلاد القيرغيز ومصب ينيسى ، حتى منطقة آلاقچين ، ولكن هذه الرواية لم تؤكد فى المصادر الأخرى .

وفى الشمال الغربى كانت بلاد قوبيلاى تصل إلى ايريتش ، وفى رواية أن الحدود بين بلاد قوبيلاى وقايدو كانت خطا يمر بالقرب من قاياليق ، وإنه لمن

الصعب التوفيق بين هذه الأقوال و بين ما يقال من أن چاپار اتخذ لنفسه عاصمة بالقرب من نهر أميل .

ويُدخل ماركو بولو أثناء وصفه لتركستان الحالية — ختن والمناطق الأكثر بعداً نحو الشرق في ممتلكات قو بيلاى ، ولكنه يقرر في نفس الوقت أن المناطق الممتدة من كاشغر إلى ذلك المكان ، وإلى أبعد منه تابعة لتركيا الكبرى . (هكذا يسمى ماركو پولو ممتلكات قايدو) . أما عن ياركند فإن ماركو پولو يخطىء مرة أخرى حين يقرر أنها من ممتلكات قايدو صهر الخان الأكبر ومن الروايات الهامة قول رشيد الدين أن (ولاية الأويغور) احتفظت بحيادها أثناء الحرب التي نشأت بين قو بيلاى وقايدو ، وكانت تحاول تحسين علاقاتها بالطرفين معاً . ومن المفهوم أن سلالة الأديقوت كانت لا تزال تحكم في بلاد الأويغور .

ولما خضع ايدقوت — الاويغور (بارچوق) لجنگيز خان سنة ١٢٠٩ ، اشترك أولا في الغارة التي شنت على كو چلوك سنه ١٢١٨ ، ثم في الهجوم على محمد خوارزمشاه ، ثم في الحرب التي شنها جنگيز على التانگوت ، وبعد وفاة بارچوق — وذلك في عهد أوكه دى — خلفه أبناؤه الثلاثة واحداً بعد الآخر ومات الأول في عهد (تورا كين) أرملة اوكه دى التي حكمت من سنة ١٢٤١ إلى سنة ١٢٥٦ ، أما الثانى فقد أعدم في عهد ما نكو لأنه اتهم بتدبير مؤامرة لقتل مسلمى (بش باليق) جميعاً أثناء صلاة الجمعة ، وكان قطع رأسه بيد أخيه الذى ولى الأمر من بعده .

والظاهر أن أخبار أسرة الأديقوت تقف عند هذا الحد .

وإذا كانت حكومة الخان الكبير قد استطاعت أن توسع حدودها قليلا على حساب ممتلكات قايدو ، فقد استطاع قايدو أن يوسع ممتلكاته نحو الجنوب

والغرب على حساب ممتلكات خلفاء هولاكو وجوچى ، وكانت مملكة قايدو تشمل كل الجزء الشمالى الممتد من بدخشان ببلاد الأفغان إلى سواحل مرغاب فهناك كان يعسكر (ساريان) وهو أحد أبناء قايدو الأربعة والعشرين ، ومن الطبيعى أن أولوس (أى شعب) جغتاى كان يفقد بالتدريج المناطق الشرقية الواقعة شرق المجرى الأدنى لسيحون ومع هذا فلا ندرى أين كان مقر خلفاء (اوردا) بالضبط فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر ، ويروى رشيد الدين أن جيشاً من جيوش المغول بآسيا الوسطى مر أثناء توجهه إلى معسكر (قونجى) أحد خلفاء (أوردا) بمدينتى جند واوزكند ، ويمكن الاستدلال بهذه الرواية على أن مقر قونجى كان يقع إلى الغرب أو الشمال الغربى ، أما ماركو بولو فيقول إن بلاد قونجى تقع فى أقصى الشمال ، فى مكان يعيش به الناس كما يعيش الحيوان ولا توجد به الحبوب ، وفى بعض جهاته تجر الكلاب العربات بدلا من الخيل وقد توفى قونجى وقايدو لا يزال على قيد الحياة ، وانتقل الحكم من بعده إلى ولده (بايان) ولكن كو بلوك وهو أحد أحفاد أوردا ؛ بدأ ينازعه العرش مستعينا بقايدو وكانت رحى الحرب بينهما دائرة قبل أن يتم رشيد الدين تأليف كتابه .

ويقرر مؤرخو العرب الذين حرروا كتبهم بمصر وسوريا — وعلى رأسهم أبو الفدا — أن قونجى وخلفاءه كانوا يزاولون الحكم فى غزنه وباميان ؛ ومع أن المؤرخين الإيرانيين وهم أكثر علما فى هذا الباب لم يؤيدوا هذا الخبر فإنه انتشر فى الكتب الأوربية ومن بينها كتاب الدول الإسلامية للين پول (وقد صححت هذه النقطة فى الطبعة الروسية لهذا الكتاب). والظاهر أن المؤرخين العرب خلطوا بين اسم (قونجى) واسم (قولى) بن اوردا الذى اشترك مع هولاكو فى غزو إيران ، والواقع أن (قولى) هذا أعدم فيما بعد ، ثم اتجهت كتائبه العسكرية فى أثناء الحرب بين هولاكو وبركه إلى الشرق فاستولت على غزنه وباميان ، ثم دخلت تحت حكم الأمراء الجغتائيين .

لحكومات المحلية :

ومع أن آسيا الوسطى قد قسمت بين أعضاء أسرة الخان ، فقد كان بها منذ ابتداء القرن الرابع عشر أسرات حاكمة ترجع إلى ما قبل العهد المغولى . وذلك على العكس مما حدث فى دولة الآلتون اوردو . وثمة جزء من أخبار هذه الدول فيما كتب (جمال قرشى) فى بداية القرن الرابع عشر . وجزء فى نقوش القبور المكتوبة باللغة العربية الخالصة وكان هؤلاء الحكام جميعاً يحملون اللقب العربى (ملك) وهو لقب الحكام التابعين فى إيران وآسيا الوسطى قبل عهد المغول . وكثيراً ما كانوا يردفونه بألقاب أكثر عظمة مثل (خان) و (سلطان) ، وفى إحدى روايات جمال الدين قرشى يذكر إسم (ايلچى ملكشاه) حاكم فرغانه (مع إسم برهان الدين قيليج وهو ولىّ من أولياء مدينة اوزكند) ومازال قبر صا تيلمس بن ايلچى ملكشاد موجودا . وكانت وفاته سنة ٦٦٥ هجرية = (١٢٢٦ — ١٢٢٧) ويتبين بالنظر إلى أسماء هؤلاء الملوك وألقابهم أنهم كانوا جميعاً من أصل تركى ، بل توحى صيغ هذه الأسماء بأنها ترجع إلى ماض بعيد . ومن هؤلاء الحكام المحليين (باليغ بولكه أولوغ بيلكه اقبال خان) المتوفى فى أوليا آتا سنة ١٢٦٢ والمدفون بها .

وكان العلماء يكتبون شواهد القبور بالعربية ، وقد أدرج جمال قرشى نصا كتبه على قبر كمال الدين الخوارزمى السوغناقى ، وهو أحد أولياء الترك بمدينة جند ،وكان هذا الشيخ معروفا عند التركمان باسم (شيخ بابا) وتوفى فى جند فى تشرين الثانى سنة ١٢٧٣ وسنه خمسة وثمانون ، وينقل جمال قرشى الترجمة الفارسية لشاهد قبر يوجد على ساحل سيحون غير بعيد عن خوجند ، وبالإضافة إلى هذا يدرج قارشى أبياتا فارسية مجهولة التاريخ قيلت فى مدح سلطان ختن (مونمش تكين) وفيها : أيها الملك عش طويلا حتى يقول الترك ما كان أطول عمر مونميش تكين وقد وردت العبارة الأخيرة باللغة التركية .

(يفلاق قرى بوليش مونيش تـكين)

وتدل المسكوكات التى ضربت فى بعض مدن آسيا الوسطى ، ومنها مدينة (أوترار) على وجود بعض الدول هناك خلال القرن الثالث عشر ، وكانت العادة أن تضرب هذه المسكوكات باسم الملك المحلى دون أن ينقش عليها هذا الاسم ، وليس ثمة مسكوكات تحمل اسم (قايدو) أو (تووا) أو غيرهما . على حين أن (مانكوتيمور) وهو من ملوك الآلتون أوردا كان ينقش اسمه على العملة ، وليس لدينا دليل على وجود حدود بين الأراضى التى كان يحكمها الخانات مباشرة والأراضى التى تركوها تحت حكم الدول المحلية السابقة عليهم ، ففى آلماليق — وهى أقرب المدن إلى أوردا جاغاتاى — كان الحكم بيد دولة محلية يخضع مؤسسها لجنگيزخان . ومن ناحية أخرى كان ابن أرسلان خان القارلوقى يحكم (أوزكند) كبرى مدن فرغانة ، أخذها من مانكوخان ، ولا ندرى لماذا أخذ هذه المدينة بالذات ؛ فقد كان الأولى به أن يأخذ قاياليق التى كانت من ممتلكات أسرته ثم فقدت ، ولا ندرى أيضا هل حافظ خلفه على هذه المدينة ؟ وهل كان (إيلچى ملكشاه) الذى ورد اسمه من قبل ، من خلفاء أرسلان خان القارلوقى ؟

اضمحلال الحياة الحضرية :

ومن المعروف أن روبروق زار قاياليق سنة ١٢٥٣ وقضى بها اثنى عشر يوما ، وقال فى وصفها (إنها مدينة كبيرة ، سوقها نشيطة) ومن المهم أنه كان للأويغور بها ثلاثة معابد بوذية ، ولو بقى شىء من خرائب هذه المدينة التى احتوت على عناصر مدنية مختلفة ، لكان لذلك أهمية كبيرة ، ولكن حتى موقعها لم يمكن تحديده إلى الآن ، ويقول روبروق إنه مر شمال قاياليق بقصبة كل سكانها نساطرة ولهم بها كنائس . ولكن لم يمكن حتى الآن العثور على نقوش مسيحية فى القسم الشمالى من منطقة يدى صو .

ورأى روبروق مدينة أجمل من قاياليق تقع شمال ايلى ، و إلى الجنوب قليلا من قاياليق . وكان أهلها مسلمين ، ولكنهم يتكلمون الفارسية لا التركية . ومن المحتمل أن يكون هؤلاء هم المهاجرون الذين أتوا قبيل ذلك من الجزء الجنوبى من بلاد ما وراء النهر . ومهما يكن فإن الحياة الحضرية فى المنطقة الواقعة شمال ايلى كانت قد اضمحلت تماما وكان التتار ـ حرصا على استغلال المراعى الخصيبة ـ قد خربوا ما كان بهذه المنطقة من المدن و يقال أيضاً إن التركمان كانوا مستولين هناك على معظم الأراضى . ولا ندرى ماذا يقصد روبروق بعبارة (التركمان) ؟ أيقصد شعباً تركيا معيناً ـ يحمل هذا الإسم ؟ أم أنه يقصد العناصر التركية المتخلفة ثقافياً واقتصاديا .(كلمة تركمان وخاصة بالصيغة العربية تراكمة تدل فى قافقاسيا (حتى الآن) على العناصر التركية المتخلفة) .

إن التأويل الثانى أرجح لأن جمال قرشى يتكلم عن قوم من التراكمة بالقرب من پارچكند وجند ، ولا يعقل أن يكون التركمان قد عاشوا هناك فى ذلك الوقت .

وقد أكد روبروق أن الحضارة كانت مضمحلة فى تلك المناطق ، ثم عززه فى هذا القول معاصره جان—ده (Tchàng Tô) وهو رحالة صينى مر هناك سنة ١٢٥٩ ويقول (جان—ده) إن شعبا كثيفاً كان يعمر المناطق التى سكنها القاراخيطاى من قبل وأن قنوات الرى كانت عديدة ، ولكنه يقرر أيضاً أن الخرائب وآثار الدمار كانت كثيرة .

وليس لدينا برهان على أن خراب المدن يرجع إلى سياسة خانات المغول أو إلى كثافة العنصر التركى ، بل لقد رأينا الخانات ومن بينهم قايدو يتخذون التدابير لحماية الأراضى الزراعية من إفساد البدو ، وبالإضافة إلى هذا فإن قايدو وتووا قد أسسا مدينة جديدة فى فرغانة هى مدينة انديجان التى عظم شأنها فيما بعد والتى

تتركت بالتدريج عن آخرها ، ويقول بابر إنه لم يكن بها ولا بسوقها في القرن السادس عشر من يجهل التركية . وتختلف هذه المدينة عن معظم المدن في العهد المغولي ، إذ خلا الحديث عنها من ذكر قصور الخان ، بل من ذكر مقره بوجه عام . وربما دل ذلك على أن الخانات لم ينشئوها لأنفسهم ، ولكن خصصوها لينتفع بها الشعب .

وكان للقلاقل والفتن التي بدأت مبكرة في دولة المغول آثارها السيئة على التجارة وعلى الحياة الحضرية . وزاد هذا السوء تباين العناصر التي كانت تؤثر حضارياً ومدنياً على المغول ، فقد كان من المألوف أن يربى بعض أبناء الخان تربية إسلامية ، وأن يربى بعضهم تربية مسيحية . وكانت العناصر المتحضرة الخاضعة لحكم المغول ، يكيد بعضها لبعض بتدبير المؤامرات ، وإثارة الفتن في اوردا الخان . وبالإضافة إلى هذا فقد كان في دولة المغول — كما في غيرها من الدول — صراع على تولى الحكم . ويروى مؤرخو الروس أن إعدام كثير من الحكام والنبلاء الروس في عهد الآلتون اوردا كان نتيجة للمؤامرات التي دبرها هؤلاء الحكام الروس بعضهم ضد بعض . نعم إن التتار هم ناطقو الحكم وهم منفذوه . ولكنهم في حقيقة الأمر كانوا آلة في يد أعداء المحكوم عليهم وكان هذا الوضع يحدث أيضاً في البلاد الأخرى الخاضعة للمغول ولكن اوكدهى أول خلفاء جنكيز استطاع وحده من بين الخانات أن يسمو فوق المؤامرات ، بل استطاع — بأحكامه العادلة غير المتحيزة — أن يصلح بين الأمراء وبين الأعيان حين اشتد بينهم الخلاف . ولكنه لم يكد يموت حتى بدأت في (الأوردا) فترة كثر فيها الحكم بالإعدام وبعد عشرة أعوام كان أعضاء الأسرة أنفسهم أكثر تعرضاً لهذا الحكم من غيرهم . (كان ذلك يحدث قليلا فيما قبل) وبعد عشرة أعوام أخرى كان التجار — ولا ذنب لهم — لا يكادون يجتازون بلداً إلى بلد آخر حتى يقتلوا بسبب الحروب بين الحكومات المغولية .

وفى سنة١٢٦٢أمر (هولاكو) بعد أن هزمه (بركه) بالقرب من ترك Terek أن يقتل كل التجار الآتين من بلاد عدوه ، ورد بركه على ذلك بقتل التجار الوافدين على بلاده من بلاد هولاكو ، وهكذا يظهر أن المنافع الفردية والمنافع المؤقتة ، تكون فى وقت الاضطرابات أرجح كفة من منافع الامبراطورية بوجه عام ، ويروى المؤرخون أن اعتبارات من هذا القبيل دفعت آلغو سنة١٢٦٠ إلى أن يثبت أركان ملكه فى آسيا الوسطى ، وأعجب من هذا أن مغول إيران دمروا عن عمد مدينة بخارى سنة ١٢٧٣ ، لأنهم توهموا أنها قد تصبح قاعدة لهجوم يقوم به خصومهم من تركستان ليستولوا على إيران وكانت بخارا قد نهضت سريعاً بعد أن استولى عليها المغول سنة ١٢٢٠ ، بل وصلت فى خلال الثلاثين السنة الأولى من حكمهم إلى درجة من الازدهار لم تبلغها من قبل ، وقد وصفها الجوينى، فأكد أن لا مثيل لها فى العالم الإسلامى ، أما ماركوپولو (وكان أبوه وعمه قد عاشا فى بخارا ثلاثة أعوام من ١٢٦٢ — ١٢٦٥) فقد قال عنها أنها أجمل مدينة فى بلاد الفرس، ولم تؤثر الثورة التى قامت بها ضد المغول (١٢٣٨-١٢٣٩) على عمرانها وازدهارها ، فقد استطاع محمود يالواج أن يقنع المغول وبخاصة أوكه‌دى بأن لا صالح للدولة فى تدمير مدينة غنية كبخارا ثأراً لجرائم بعض المتمردين .

ولكن بعض الخانات والأمراء كانوا يتصرفون إبان الثورات على نحو آخر . . كانوا يؤثرون أن يغنموا بضربة واحدة مبلغاً كبيراً من أموال المدينة على أن يحصلوا على دخلها بانتظام لمدة طويلة ، وقد تعرضت بخارا ابتداء من ١٢٦٠ إلى مصادرة الأموال وإلى السلب والنهب ، ولكنها استطاعت حتى بعد مأساة (١٢٧٣) أن تجذب عيون عصابات السطو فنهبوها ، ثم استولى أبنا آلغو المتمردان على ما بقى من ثروة المدينة غنيمة لهما . وبعد ذلك بسبع سنين (بين ١٢٧٥ و ١٢٨٢ تقريباً) لم يكن بقى من بخارا أى أثر ، ولم تبعث من جديد إلا بعد أن اعتلى تووا العرش .

ولا شك أن ما ترويه المصادر عن بخارا كان يقع فى مدن أخرى لا نعلم عنها إلا قليلا ، وكان ينتظر أن نحصل على معلومات مهمة عن مدن آسيا الوسطى بدراسة الذيل = (الملحقات) الذى أضافه جمال قرشى (من رجال القرن الرابع عشر) إلى ترجمة معجم عربى من القرن العاشر ! .

وقد اتهم محمد حيدر أحد كتاب القرن السادس عشر جمالا القرشى بالعصبية لمسقط رأسه بالاساغون ، والواقع أن القرشى أحصى مشاهير البلاد وأعلامها ، فلم يذكر إلا عشرة أشخاص من سمرقند ، فلما تناول بالاساغون ذكر من أسماء المشاهير عدداً لا ندرى كيف أمكن أن تنجبه المدينة فى وقت واحد ، وقد كان ينتظر قبل أن تصل إلينا مخطوطة (الملحقات) أن نجد بها مادة غزيرة عن الحياة الفكرية فى (بالاساغون) ولكن النسخ التى وجدت حتى الآن خيبت الظن ، فهى خالية حتى من اسم المدينة ، ولم يذكر من المنسوبين إليها إلا شيخ المؤلف وهو شمس الدين أيوب البلاساغونى وابنه ركن الدين أحمد البلاساغونى ، وذكرت بها أيضاً مدينة قوزباليق حيث توفى أحد أمراء آلماليق سنة ١٢٥٩ . ويذكرنا هذا الاسم بمدينة قوز اوردو أو قوز أولوش الواردة بكتاب محمود الكشغرى . وفى القرن الثالث عشر ورد اسم هذه المدينة (قوزا وردو) مكتوبا بالهيروغليفية الصينية . ومن الغريب أن المؤلف لم يذكر المدينة التى ينتسب إليها شيخه. وعدا هذا فإنا نجد فى كتاب جمال القرشى اسماً جغرافيا آخر لم نجده فى غيره من المصادر . وذلك هو : (ايل آلارغو) وهو اسم المكان الذى يضم أوردا جاغاتاى . وقد نسب إلى هذا المكان التاجر المسلم (قطب الدين حبش عميد) وزير جاغاتاى (توفى قطب الدين فى سنة ١٢٦٠ (فى بداية عهد آلغو) بإحدى مدن ولاية آلماليق . ودفن هناك بالخانقاه التى بناها) .

وقد خصّ جمال قرشي كاشغر وختن وخوجند وفرغانه ؛ وشاش أى : طشقند وبار جكند وجند ، بأبواب تتفاوت طولا وقصراً . وبين فى كل باب معالم كل مدينة وخصائصها . ثم أورد ثبتاً مختصراً بأسماء من نشأ بها من العلماء المشاهير . وكانت آلماليق هى مسقط رأسه (كان أبوه من بلاساغون) ثم انتقل منها إلى كاشغر وزار كثيراً من المدن . وقد لاحظ علامات الاضمحلال فى كاشغر وجند ، وكانت الأولى فى عهده خرابا مهدودة ، أما الثانية فقد كانت تجارتها كاسدة ، مع أنها كانت فيما مضى كبيرة ، ويذكر قرشي فى حديثه عن كاشغر ، اعتداءات ال (چته).

وترد هذه الكلمة فى هذا المقام لأول مرة ، ولكنها استعملت بعد ذلك فى تركستان الصينية مرادفة لكلمة (قازاق) المستعملة بتركستان الغربية أى أنها صارت علما على قوم من البدو خلعوا أنفسهم من قبائلهم وكونوا عصابات للغارة وقطع الطريق . وكانت غارة (الچته) فى الشتاء (ولكن المؤلف لايذكر فى أى عام) . وأبيد فى أثنائها خلق كثير وأسر خمسة آلاف صبى . وفى الحديث عن كاشغر خبر كبير الأهمية من وجهة نظر تاريخ الحضارة فقد رُوى أن الثيران والأبقار لم تكن تستعمل هناك فى حرث الأرض بل كان يكتفى باستعمال الآلات الزراعية ولا نظن أن فى كاشغر الآن نقصاً فى الحيوانات المستخدمة فى الفلاحة . . ..

دخول تركستان فى الإسلام :

وفى القرن الثالث عشر ، كانت حركتا الدخول فى الإسلام والترك تسريان فى تركستان ببطء ، ولكن فى غير توقف ، وقد تكشف الموقف هناك — منذ عهد جنكيز — عن ظاهرة تناقض ما توقعه كوجلوك ، وذلك أن القاراخيطاى الذين استطاعوا مواصلة الحياة بعد احتلال المغول للمنطقة ، أخذوا عن المسلمين تقاليدهم وأزياءهم . وكانت حال المسلمين فى البلاد التى كانت من قبل ملكا للقاراخيطاى

خيراً من حالهم من قبل فى بلاد محمد خوارزمشاه ، وذلك أنهم فى عهده كانوا يقاومون المغول مقاومة عنيده !

وفى سنة ١٢٢١ كانت بسمرقند هيئات من الأعيان المنتمين إلى قوميات مختلفة وكان الوالى العام رجلا من القاراخيطاى ربى تربية صينية ، وكان للمسلمين حق امتلاك بساتين الفاكهة والحقول ولكن بشرط أن يشاركهم بعض الصينيين أو الخيطاى . وبعد بضع سنين (فى عهد اوكه دى) عين على بخارا وسمرقندوال له اسم أو لقب صينى هو (چونساق تايفو) وقد كان إسم هذا الشخص لا يزال يذكر فى سنة ١٢٦٨ ، وربما وضح لنا وجوده فى هذا المنصب كيف ظهرت فى بخارا (للمرة الأولى والأخيرة) عملة منقوشة بالهيروغليفية الصينية ومع أن بعض المصادر تتحدث عن بعض الهجرات الآتية من الشرق ، فلم يكن يتولى أمر المناطق الإسلامية — فيما ولى ذلك من حقب — إلا مسلمون، ويروى جان — دو الصينى أن الصينيين كانوا يعيشون مع المسلمين فى آلماليق ، وأن عادات الصينيين وتقاليدهم كانت تبسط سيادتها بالتدريج

ومع أن جاغاتاى كان من فرط عصبيته لقانون المغول العرفى يأخذ المسلمين باستمساكهم بشريعة الإسلام ، فإن الاضطهادات التى عاناها المسلمون فى عهد كوچلوك لم تتجدد ثانية فى عهد المغول .

وقد نقل الجوينى أبياتا من قصيدة كتبها أحد الشعراء بمناسبة هلاك جاغاتاى فى سنة ١٢٤٢ قال فيها : (إن من كنا نفرق منه فلا نمس الماء قد غرق فى ظلمات بحر العدم) ومع هذا فقد كان لجاغاتاى طبيب مسلم إسمه مجد الدين وكان قطب الدين حبش عميد — وهو من أثرياء تجار العصر — يتمتع عنده بنفوذ كبير حتى لقد استطاع أن يجعل لكل واحد من أبناء جاغاتاى رفيقاً من أبنائه هو . (كان حبش عميد من كرمينه كما يقول جمال قرشى أو من أوترار كما يقول رشيد الدين) ومع

أن قطب الدين هذا كان مسلماً وله — كما قلنا — خانقاه ، فلم يكن علماء الإسلام يطمئنون إليه ، ولم يكن هو يطمئن إليهم ، وقد اتهموه بأنه كان سبباً فى مصرع يوسف السكاكى الخوارزمى وهو أحد مشاهير العلماء فى زمانه ، وقد بقى من آثاره — بالإضافة إلى كتابه (مفاتيح العلوم) المعروف فى كل العالم الإسلامى — رسالة أرسلها إلى أحد تلاميذه من أتراك الغرب وهو (صاچا قلى زاده) .

وليس لدينا عن نشاط علماء تركستان فى نفس الفترة سوى معلومات ضئيلة بل إننا لا نعرف الأساتذة المرشدين لمباركشاه و بوراق وهما أول من أسلم من خانات جاغاتاى ، و يقول جمال قرشى أن (أركنه خاتون) أم مباركشاه كانت مسلمة ، أما (قايدو) فلم يكن مسلماً وقد دفن — على عادة المغول — فوق الجبل المرتفع بين نهرى (ايلى) (وجو) وفى نفس المكان دفن بوارق — وهو مسلم تنفيذاً لإرادته ، ولم يكن قايدو عدوا للاسلام ، وقد وصفه جمال قرشى بأنه كان عادلا سخيا رحيما يكن الخير للمسلمين ، وقد لقيه قرشى مرتين إحداهما فى أول عهده بالسلطنة والأخرى قبيل نهاية عهده ، وحصل منه على كتاب شكر وتقدير (ولا ندرى بأى لسان حرر هذا الكتاب) .

والآن نتساءل هل كان علماء الدين بتركستان يفيدون من علم العناصر الأخرى المتمدنة التى تعمل فى خدمة الدولة ، إن لهذا الموضوع أهمية خاصة . ولدينا بخصوصه خبر وحيد يتعلق بعالم اسمه (هيبة الله) تركستانى الأصل هاجر إلى إيران ، وتوفى فى عهد غازان خان (١٢٩٥ — ١٣٠٤) ويقول فيه رشيد الدين أنه كان عالما باللغتين التركية والسريانية ، آخذا من كل علم بطرف وكان له — إلى هذا — كلام ككلام المشايخ ولكن غازان مع هذا يعتبره من علماء الطبقة الثانية ، وكان يشبهه « بالموظفين الذين يسهمون فى كل أعمال الدولة ، ولكنهم لا يستطيعون الوصول إلى الخزانة لهما يونية » ثم يضيف ولست أعجب من أن هذا العالم وأمثاله يجهلون الروحانيات ، ولكنى أعجب مع هذا بعلمهم ، وأقدرهم

ويمكن أن يستنتج من هذا أن هيبة الله لم يكن من علماء أصول الدين بل كان يشتغل بالعلوم الدنيوية .

اللغة التركية عند مغول آسيا الوسطى :

ومن الأدلة القاطعة على أهمية اللغة التركية فى ذلك العصر أن رشيد الدين عندما يتناول أسرة جنكيز خان فى كتابه يستعمل الكلمات التركية جنباً إلى جنب مع الكلمات المغولية .

وفى تركستان كان الاصطلاح المغولى (نويان) بمعنى (أمير) أو بمعنى الكلمة التركية (بك) يطلق حتى زمان تيمور على أفراد الاستقراطية العسكرية ، وفى عهد جنكيزخان كان ابنه تولوى هو (النويان الأول) المسئول عن كل أمور الجيش ، ويسمى هذا المنصب بالمغولية (يكه نويان) أى النويان الكبير ومع هذا فقد كانت الكلمة التركية (أولوغ) بمعنى كبير تستعمل أحيانا بدلا من الكلمة المغولية (يكه) وهكذا نجد أحياناً عبارة (اولوغ نويان) ولكنا مع هذا لم نر المسلمين يحاولون أن يجعلوا اللغة التركية لغة رسمية فمثلا عندما غادر بلانوقار بينى منغوليا سنة ١٢٤٦ أعطوه رسالة للبابا محررة بالفارسية ، وقد استطاع پليو Pelliot أن يثبت أن هذه الرسالة موجودة الآن فى دار المحفوظات بالفاتيكان ، وتاريخ هذه الرسالة هو نهاية جمادى الآخرة سنة ٦٤٤ أى نوفمبر سنة ١٢٤٦ ، ويدل ما بالرسالة من أخطاء فى اللغة الفارسية ، على أن كاتبها لم يكن من أصحاب اللغة ، وقد كتب عنوان الرسالة بالتركية ، ومن اللافت أن اسم (كيوك) لم يرد بالرسالة ، وإنما أرسلت باسم (خان الاولوس الكبير والعالم كله) = (الوغ الوس ننك تالوى نونك خان يرلغمز) وفى ثنايا الرسالة ترد بعض الكلمات والعبارات التركية ، ولاشك أن محرريها هم بعض تجار آسيا الوسطى من الترك ، كانوا يحاولون الكتابة بالفارسية لغة الأدب فى بلادهم .

اولة إقامة الوحدة :

وكان مغول آسيا الوسطى (ومن بينهم الآلتون اوردا) أحوج إلى منفذ على البحر من غيرهم من حكومات المغول ، ذلك بأن الإضطرابات السياسية وما يترتب عليها من قطع العلاقات التجارية ، كان يزيد حاجتهم إلى هذا المنفذ ، وربما فسر لنا هذا الوضع ، لماذا ظهرت الدعوة وقتذاك فى آسيا الوسطى لتكوين (حكومة الدول المغولية المتحدة) ، فقد كان ذلك وحده كفيلا بأن يضمن للتجار التنقل بحرية من دولة إلى أخرى دون أن يتعرضوا لأى نوع من المصادرة .

ويقرر المؤرخون أن أول من نادى بهذا المشروع هو الخان الجغتائى توا ، أقنع به أول الأمر چاپار ثم بدأ يبعث السفراء إلى دول المغول المختلفة ثم أعانت الموافقة على المشروع فى كل مكان .

وذهب السفراء أول ماذهبوا إلى الصين حيث دولة تيمور (المتوفى ١٢٩٤) وحفيد قوبيلاى ، وفى سنة ١٣٠٤ وصل سفير تيمور مع مندوبى چاپار وتووا إلى المراغة بإيران ، وكان اولجايتو قد اعتلى العرش حديثاً بالمراغه ، وفى سنة ١٣٠٥ كتب الجايتو رسالة مغولية إلى فيليب الرابع ملك فرنسا ينبئه فيها بتمام الاتحاد ، وقد وصلت إلينا هذه الرسالة ، التى تعتبر حتى الآن الوثيقة المغولية الوحيدة عن هذا الاتحاد ، ويقول اولجايتو فى رسالته أن سبب الحروب فيما مضى لم يكن سوء نية الخانات ، ولا حرصهم على الكسب ، ولكن دس الرعايا وافتراءاتهم ثم يضيف : و الآن قد أعيد السلم وتم ائتلاف أسرة الخان جميعها ، كبارها وصغارها ، وفتحت الطرق كلها ، ومن ينقض هذا الميثاق ، فسيتحد الآخرون ضده ، وفى الرسالة اقتراح ساذج بأن يأتلف سلاطين الفرنجة أى ملوك أوربا ، و يعقدوا ميثاقاً مماثلا ، وأن يجتمعوا ضد من ينقضه ، ولما وصل إلى ادوارد الأول ملك انجلترا (١٢٧٢ — ١٣٠٧

كتاب مشابه رد الملك الجديد إدوارد الثانى فى سنة ١٣٠٧ بأنه يأمل أن يتحقق السلم بعون الله .

هذا ، ولم تكن المادة التى تنص على أن يجتمع الكل ضد من يفسخ المعاهدة إلا مجرد ألفاظ ، وهذا هو مصير هذه المادة عند غير المغول ممن سبقهم ومن جاء بعدهم .

وسنرى فى المحاضرة القادمة أن النصف الأول من القرن الرابع كان فترة القتال العام والإضمحلال الحضارى فى تركستان .

المحاضرة الحادية عشرة

تدهور المغول :

ليس بين أيدينا — من أسف — أى مرجع عن آسيا الوسطى يتناول إقرار السلم أو نقضه بين دول المغول ، وحتى جمال قرشى الذى يمدنا بأخبار المغول حتى ربيع سنة ١٣٠٣ لم يكن على علم بهذا الميثاق ؛ إذ اقتصر على التعبير عن ثقته بأن الخواقين يملكون من القوى العسكرية ما يستطيعون به إحباط أى محاولة يقوم بها تيمور (حفيد قوبيلاى) أو خلفاؤه للإستيلاء على مدن آسيا الوسطى وقال قرشى أيضاً أن تووا كان (الركن الوثيق) فى حكومة چاپار ومن الواضح أن هذا الكلام قد حرر قبل أن تبدأ الحرب بين الخانات فى سنة ١٣٠٥ — ١٣٠٦) .

ولا نملك عن هذه الحرب وما أعقبها من أحداث ، إلا ما نملكه عن كل شئون آسيا الوسطى حتى القرن السادس عشر ، أعنى المصادر التى حررت فى إيران . وقد وقعت الحرب — كما تروى هذه المصادر — بين أبناء أوكه دى وأبناء چغتاى أو بين سمرقند وخوجند ، وأرسل تووا السفراء إلى چاپار قائلا إن هذا الصدام المسلح إنما هو من اندفاع الشباب ، واقترح وقف الحركات العسكرية وتكوين هيئة للتحكيم تجتمع فى طاشقند لدراسة أسباب الخلاف ومع أن چاپار قد وافق على عروض تووا فإن الأمراء الجغتائيين ما لبثوا أن نقضوا الهدنة ، ويبدو أن هذا النقض كان بموافقة تووا نفسه رغم أنه لم يكن يشترك بشخصه فى شىء ، وفى ذلك الوقت تعرضت (بلاد ما وراء النهر والبلاد الواقعه بمحاذاة نهر تالاس للسلب والنهب ، وهاجم جيش تيمور حرس الحدود في ممتلكات چاپار المجاورة لايرتش وآلتاى ويقال إن تووا هو الذى

دعا الجيش لهذا الاعتداء ، ولمـا انفض أنصار جاپارمن حوله تقدم ومعه ثلثمائة فارس . فأعلن خضوعه لتووا ، وعلى هذا النحو تأسس حكم أسرة جغتاى فى آسيا الوسطى من جديد وظلت هـذه الحروب الداخلية مشتعلة حتى صيف ١٣٠٩ حيث دعى القورو لتاى للإنعقاد ، وكان صاحب هذه الدعوة هو (كه بك) ابن تووا (مات تووا سنة ١٣٠٦) .

أما أسرة (أوكه ده ى) فقد خرج قسم من أمرائها من البلاد ، وفقد القسم الآخر ملكه ، واستطاع واحد فقط من أبناء قايدو كان يسمى (شاه) أن يحتفظ (بمعسكره) الخـاص و بجيشه المكون من ألف عربة حربية .

ويروى المؤرخ الإيرانى وصاف أن النتيجة المباشرة لهذه الحروب الداخلية كانت الإنحطاط التام للتجارة والزراعة فى ما وراء النهر وتركستان وكانت التقاليد الزراعية من القوة فى بلاد ما وراء النهر بحيث لا يمكن القول بأن هذه المدن والمزارع قد أمحت تماماً ولكن الوضع يتغير كلما اتجهنا شمالا فقد قال المؤلف العربى العمرى « ١٣٠١ — ١٣٤٨ » نقلا عن رجل عاش فى تركستان . ولا يوجد فى تركستان الآن إلا أطلال تتفاوت درجة المحافظة عليها وترى على البعد القرى التى أنشئت وقد أحاطت بها الخضرة والزهور حتى إذا اقتربت منها لترى أهلها وجدت منازلها خاوية وأهل البلاد جميعاً من البدو ولا يشتغلون أبداً بالزراعة .

خانات تركستان :

ولم يزل القورو لتاى المنعقد فى سنة ١٣٠٩ الفقر من تركستان ، ونصب أيسان بوقا الأخ الأكبر لـ (كه به ك) خانا (كلمة أيسا كلمة مغولية) وفى عهده تعرضت تركستان لغزو الجيوش المغولية الآتية من الصين ، وكانت الأماكن الواقعة على قو بوق وعلى فروع المجرى الأعلى لإير يتش ، مشتركة الحدود مع ممتلكات الخان الكبير ،

ومالبث هذا الجيش الذى دخل بلاد جفتاى أن خرّب المعسكر الشتوى لأيسان — بوقا (كان هذا المعسكر بجوار بحيرة ايصيق كول) ومعسكره الصيفى (بجوار تالاس) و يمكن أن نستدل بكلام مؤرخ مجهول الاسم من مؤرخى القرن الخامس عشر على أن أعمال السلب لم تكن قاصرة على جنود الأعداء بل اشترك فيها عساكر الخان الجغتاتى نفسه ، وتقرر هذه الرواية نفسها أن إيسان — بوقا وكه بك خرجا فى جيش لملاقاة عساكر العدو الآتية من قارا خوجا وتحرك إيسان بوقا من كاشغر وكه به ك من آلماليق . وكان رأى الأول ألا يترك إذا هُزم شيئا للعدو ، لأن إعادة العمران سهلة فى حالة النصر ، وعلى هذا الأساس فإنه خرّب كل شىء فى طريق خروجه وأما كه به ك فكان على العكس من ذلك يرى أنه إذا انتصر فإن شعب الحكومة المعادية سينحاز إليه متأثراً بما ذاع عنه من العدل ، و إذا هزم فان قومه سيلتزمون جانبه ومن هنا فكر فى تسهيل طريق العودة فلم يخرّب الأماكن التى مر بها بل حافظ على ما بها من عمار . وهزم ايسان — بوقا واضطر كله به ك — نتيجة لذلك — إلى العودة ،وتجشم جيش إيسان — بوقا فى أثناء العودة أصنافا من الفقر والعوز اضطر معها إلى أكل خيله بينما وجد جيش كه به ك كل حوائجه .

وخلف كه به ك (١٣١٨ — ١٣٢٦) ايسان — بوغا ، ولسلطنة كه به ك أهمية تاريخية كبيرة ففى أثنائها بدأ خانات المغول بآسيا الوسطى يتمثلون المدنية الإسلامية بالتدريج ؛ و بقى كه به ك مثل أسلافه مشركا ؛ ولكنه نقل عاصمته إلى ما وراء النهر . بل إلى الجزء الجنوبى منها وهناك على المجرى الأدنى لنهر كشكه (قاشقادريا) بنى لنفسه حصنا يبعد فرسخين ونصف فرسخ عن مدينة نخشب. وكان المغول فى قلب منغوليا يستعملون كلمة (قارشى) بمعنى (سراى) . و يقرر علماء ذلك الزمان أن هذه الكلمة مغولية ولكننا نصادف هذه الكلمة فى قوتادغو بيليك وفى كتاب محمود الكشغرى ولم يذكر الكشغرى أتستعمل هذه الكلمة عند أتراك الشرق أم عند أتراك

الغرب والظاهر أن الأتراك أخذوا هذه الكلمة عن أهالى تركستان الصينية ، وبسبب هذا الحصن احتفظت مدينة نخشب حتى يومنا هذا باسم (قرشى) مع أن موقعها مغاير لموقع نخشب الأولى ، السابقة على العهد المغولى ونخشب التى أسست فى القرن الرابع عشر ، وهكذا نرى أن إسم سراى الخان كان يطلق فى تركستان — كما هى عادة المغول — على المدينة التى تحويه . ومن التجديدات التى أدخلها كه به لك ، سكُّ النقود باسم الخان ، فقد سكت كما هى الحال فى إيران نقود فضية كبيرة وصغيرة وسكت الدنانير والدراهم ، وتقرر أن يكون الدينار معادلا لستة دراهم .

وسُكت النقود فى المدن التى كانت تسك بها من قبل وهى المدن التجارية الكبيرة فيما وراء النهر مثل بخارى وسمرقند واوترار وترمذ ونسبت هذه النقود فيما بعد إلى اسم كه به لك فقيل (كبكى) وأدى هذا إلى أن قُرِّب خطأ بين هذه الكلمة وبين الكلمة الروسية (قوبيك) ووُجدت — كما وجدت فى الالتون أوردا — سكة منقوش عليها باللغة التركية وبالحروف الايغورية عبارة (قوتلوغ بولسون) دون أن ينقش عليها أى اسم . ولم يوجد حتى الآن — فيما أعلم — مَثَل لكلمات مغولية نقشت على عملة خانات جغتاى . ومع هذا فما يدعو إلى الحيرة اننا نجد فيما بعد على عملة تيمور العبارة المغولية (اوكامنو) منقوشة بالحروف العربية ومعنى هذه الكلمة هو (كَلِمَتى) .

ولم يكن الانتقال إلى ماوراءالنهر وتشييد السراى دليلا على ترك حياة البداوة فقد كان الطرف الأيسر (الغربى) من وادى نهر كشكه يغر البدو بالمجئ منذ جنكيز خان وآية هذا أن جنكيز خان نفسه قضى به صيف سنة ١٢٢٠ ، وقد تمثل تارماشيرين (١٣٢٦ — ١٣٣٤) — وهو أخو كه به لك وأحد خلفائه الأقربين — المدينة الإسلامية أكثر من كه به لك ، ومع هذا فإنه قابل الرحالة ابن بطوطة فى خيمة وفى فصل الشتاء .

ولا يوجد دليل واحد على أن خانات جغتاى كانوا على علم فى ذلك الوقت باللغة المغولية ، وقد كان ابن بطوطة يتصوّر (كه به ك) واحداً من الناطقين بالتركية ، وعندما قابل (تارما شيرين) ابن بطوطة قرأ عليه السلام بالتركية وكان الإمام حسام الدين ياغى وهو مرشد الخان يتكلم الفارسية ولكن الخان كان يذكر كل يوم باللغة التركية من بعد صلاة الفجر حتى مطلع الشمس .

وقد انتقلت بعض الكلمات التركية الواردة فى كتاب ابن بطوطة إلى اللغة المغولية بطريق اللغة الأويغورية ثم راجت هذه الكلمات واستعملت فى كل حكومات المغول ومن ذلك كلمة (آل تامغا) أى (الختم الأحمر) وتستعمل أحيانا فى الفارسية مختصرة فيقال آل فقط .

وكان الـ (تامغاجى) أى الختّام (المهر دار) يؤدى كل الأمور الكتابية وكان طبعاً يفهم العربية حتى لقد قام بالترجمة لابن بطوطة .

ومن العجيب إن ابن بطوطة يستعمل كلمة (طوى) ومعناها المأدبة بمعنى (قورولتاى) ، ذلك أنه يقول إن الطوى مجلس يعقد كل سنة ، يحضره خلفاء چنگيز والأمراء وأعاظم السيدات وقواد الجيش . وفى زمن ابن بطوطة لم يدع الطوى للاجتماع وكان هذا من الأسباب التى بررت الثورة ضد تارماشيرين .

ويقول العمرى إن دخول تارماشيرين فى الإسلام نشط الحركة التجارية بين بلاد ماوراء النهر وغيرها من البلاد الإسلامية ولكنه — فى نفس الوقت زاد الفرقة بين ماوراء النهر والايالات الشرقية من بلاد چغتاى . ويقول ابن بطوطة أنه كان من عادة الخان أن يذهب مرة فى كل عام إلى الشرق ، أى إلى المنطقة المتاخمة للصين حيث توجد الولاية التى تشتمل على مدينة آلماليق وكانت هذه المدينة تعتبر العاصمة . ومع هذا فقد قضى تارماشيرين أربعة أعوام متوالية فى المناطق المتاخمة لخراسان ولم يكن تارماشيرين — على تمسكه بالإسلام —

يتحرج من محاربة الحكومات الإسلامية فقد قام فى أوائل سلطنته سنة ١٣٢٦ بغزوة فاشلة ضد خراسان أدت إلى استيلاء مغول إيران على غزنة وتخريبها . وفى سنة ١٣٢٩ دخل الهند الإسلامية وكاد يصل إلى دلهى ولكنه كان — كما يفهم من كلام ابن بطوطة الذى أوردناه من قبل — لايرعى فى الإدارة الداخلية قوانين المغول العرفية أى الياسا ، ولا يهمنا أ كان موقفه هذا من الياسا ناتجاً عن تأثره بالدين الذى اعتنقه وهو الإسلام أم لا . ويذكر مؤلف مسلم مجهول الاسم من رجال القرن الخامس عشر ، وعلى علم بقوانين مناطق الاستبس ، أن تارماشيرين لم يكن يرعى الياسا .

ولهذا السبب تجددت الاضطرابات فى تركستان واستمرت إلى ١٣٤٦ أو ١٣٤٧ وانتهت بزوال حكم الخانات فيما وراء النهر و بانفصال الولايات الشرقية مما وراء النهر انفصالا تاما ، ولا يمكن الوقوف على هذه الحركات الحربية كيف وقعت ولا كيف زادت الحياةَ المدنيةَ وهناً واضمحلالا ، فلم يرد عن هذه الحركات الحربية إلا حكاية فى ابن بطوطة تناقض من حيث تواريخها وكل تفصيلاتها الحكايات الواردة فى المصادر الأخرى . ولا شك فى أن مقر الخان قد نقل ثانية إلى الشرق فى أثناء السنوات التى تلت خلع تارما شيرين وقتله ولا شك أيضا فى أن نفوذ الإسلام قد ضعف فى تلك الفترة .

وفى عهد جكنشى خان الذى كانت نقوده تسك فيما وراء النهر استطاع مروجو الكاثوليكية أن يبنوا كنيسة جميلة بقرب آ الماليق ، وكان جنكنشى كما يروى مؤرخ القرن الخامس عشر المجهول الاسم يستشير (الباخشيلر) أى كهنة الديانة البوذية ، ومع هذا فإن الحركة الرجعية المضادة للإسلام عجزت عن أن تدرك نجاحا مطرداً ، فمنذ سنة ١٣٤٠ اعتلى العرش فيما وراء النهر شيخ من أصل تركى كان يعتبر من أحفاد جنگيز خان ، وفى فترة ما كان الشيخ السلطان مرشداً روحيا للولى

المشهور بهاء الدين النقشبندى البخارى (١٣١٨ — ١٣٨٩) ويروى فى ترجمة حياة هذا الولى أنه رأى فى المنام الولى التركى حكيم آتا (لاشك فى أن بهاء الدين كان تاجيك) وكان تفسير هذه الرؤيا أن مرشده سيكون درويشا تركيا، وعندما وقع نظر بهاء الدين على الدرويش التركى خليل الذى أصبح سلطانا تأثر به تأثراً كبيراً واعتبره هوالدرويش المقصود فى تفسير رؤياه ولزمه وظل يلازمه حتى بعد أن اعتلى خليل العرش ، وبعد أن مات خليل اقتنع بهاء الدين بأن الدنيا لا خير فيها وزاول حياة الزهد .

ولا نصادف اسم خليل بين أسماء السلاطين الجغتائية ، ولكن ابن بطوطة يذكر بين أسماء حكام فترة القلاقل اسم خليل وهوابن ياساوور بن چغتاى ويقال أنه هو الذى استطاع أن يغلب بوزان أول خلفاء تارما شيرين (لم يُذكر جنكشى ولا الخانات الذين تناولتهم المصادر التاريخية فى ابن بطوطة) .

ولم يستولِ خليل على آلماليق فحسب بل استولى أيضا على قاراقورم وبش باليق ، ثم عقد بعد ذلك صلحاً مع إمبراطور الصين ورجع إلى سمرقند وبخارى ، وكان زميله فى النصر هو علاء الملك سيد حاكم ترمذ الملقب بخداوندزاده وفى النهاية أقدم خليل بتحريض من بعض وشاة الترك على إعدام علاء الملك فأدى ذلك إلى ضياع ملكه ؛ فقد جاء إليه حسين حاكم هراة وأسره ،وكان لا يزال فى الأسر حين غادر ابن بطوطة بلاد الهند فى ربيع سنة ١٣٤٧ ومع أن هذه الحكاية من نسج الخيال فإن النقود المسكوكة فى بخارى سنة ٧٤٢ أوسنة ٧٤٣ (١٣٤٢—١٣٤٤) والمنقوشة بعبارة (سلطان خليل الله) تثبت وجوده .

ولا يعرف المؤرخون من أبناء ياساوور إلا قازان ولدينا نقود تحمل اسمه ، وقد كان قازان هذا يسكن وادى نهر كشكه مثله كمثل كه به ك وتارما شيرين (وأنشأ لنفسه على بعد منزلتين من قارشى قصراً يسمى (زنجير سراى) ثم هلك فى سنة ١٣٤٦ أو سنة ١٣٤٧ أثناء حربه ضد رؤساء العصاة من البدو ولا نستطيع

حتى الآن أن نجيب بصورة قاطعة عن هذا السؤال : هل ينتمى قازان وخليل إلى أسرة واحدة أم لا ؟ .

الأمراء الأتراك :

و بعد وفاة قازان انتقل الحكم فيما وراء النهر إلى الأمراء الأتراك كما تسميهم المصادر الفارسية ، أما الترك فقد كانوا يستعملون فى هذا المعنى كلمة (بك)أوالكلمة المغولية (نويون) وأول هؤلاء الأمراء هو (قازاغان) وكان معسكره الشتوى (القيشلاق) هو (سالى ـ سراى) الواقعة على نهر جيحون (وهى الآن عبارةعن (سراى) الواقعة شمالى ترمذ) وربما كان لهـــذه المدينة نفس المنزلة منذ عهد الجتائيين ، وقد دفن بها الخان قازان كما يروى مؤلف القرن الخامس عشرالمجهول الاسم ، وإذا نظرنا إلى اسمها استنتجنا أن سراى الخان كان موجوداً بها ، وقد كانت شواطىء جيحون وتتخذ منذ القدم مشاتىللبدو ، وهناك قضىجنكيز خان شتاء سنتى ١٢٢٠ و ١٢٢١ ، أما فى الصيف فقد كان قازاغان ينتقلإلى المكان الجبلى الواقع بجوار مدينتى مونك و بالجوان ، وكان قازاغان وخلفاؤه يُجلسون على العرش رجالا تافهين من أسرة جغتاى فى أول الأمر ثم من أسرة أوكه دى بعد ذلك وكانت النقود التى تحمل أسماء هؤلاء الملوك تسك فى كل بلاد ما وراء النهر من ترمذ إلى أوترار ومن اسفيجاب إلى سايرام ، ونحن نعلم أن القسمالشمالى من أفغانستان كان داخلا تحت حكمأمراء ماوراء النهر ولـكننا لا نملك دليلا سكيتًا على ذلك .

وكانت المناطق الشرقية من خانية جغتاى السابقـــة قد انفصلت عن بلاد ما وراء النهر انفصالا سياسيا تاما ، وكان لها خاناتها وأمراء أمرائها (أولوس اميرلرى) الذين كانوا فى وقت ما يُجلسون الخانات على العرش وقدتطورالتاريخ المتأخر لآسيا الوسطى بصورة جعلت أمراء ما وراء النهر يقبضون على أزمة الأمور

بأيد قوية حتى خرجت من بينهم الشخصية الفـذة شخصية تيمور الذى أسس دولة مترامية الأطراف ، وقد وصلت ــ منقوصة بعض الشيء ــ إلى خلفائه الذين تخلوا بالتدريج عن عادة الحـكم من وراء ستار من الشخصيات التافهة .

خانات تركستان الشرقية :

ومن جهــة أخرى ظهرت فى الشرق أسرة من الخانات أزالت حكم هؤلاء الأمراء ، وأول هؤلاء الخانات هو (توغلوغ تيمور) الذى ولد سنة ٧٣٠ هـ . (١٣٢٩ — ١٣٣٠) وصار خاناً فى الثامنة عشرة من عمره أى فى سنــة ٧٤٨ (١٣٤٧ — ١٣٤٨) ويدل التوافق الزمنى بين اعتلاء توغلوغ العرش وخلع قازان خان على علاقة سببية بين الأمرين ، وإن كنا لا نجد فى المصادر أى إشارة إلى مثل هــذه العلاقة ، كما أننا لا نعْرفُ بالضبط متى انقرضت تماماً أسرة جغتاى .

وليس لدينا معلومات صحيحة عن الوقت الذى انفصلت فيه آلماليق عن بلاد ما وراء النهر سياسياً ، ويقول المبشر المسيحى مارينوللى Marignolli الذى مرّ بآلماليق سنة ١٣١٤ أنه بني هناك كنيسة وألقى عظاته بحرية تامة مع أن عدداً من المبشرين من قبله كانوا قد هلـكوا فى نفس المـكان .

ولـكن مارينوللى لا يذكر اسم خان آلماليق فى ذلك الوقت ، وقد تولى الملك بعد السلطان على (الذى عرف بين خلفاء أوكه دى بأنه ضيق على النصارى والموصوف فى المصادر الإسلامية بأنه كان مستبداً) السلطان محمد پولاد ، وتوجد نقود سكت فى آلماليق فى شعبان سنة ٧٤٦ (١٣٤٥) تحمل اسم محمــد وهى — فيما نعـلم حتى الآن — آخر نقود سكت فى آلماليق ، وقد نسيت أسماء هؤلاء السلاطين بدرجة كبيرة فيما بعد ، ففى القرن السادس عشر كان محمد حيدر —وقد أفاد فى تحرير كتابه (تاريخ رشيدى) من أخبار المغول وآثارهم —

يقرر أن توغلوق تيمور هو بن ايسان — بوقا ، مع أنه لا يعقل أبداً أن يكون هذا الأخير قد عاش بعد سنة ١٣١٨ ، وفى المصادر الأقدم من ذلك يقرر أن أبا توغلوق تيمور هو (اميل خواجه) وهو أحد أبناء تووا .

وقد ذهب أبو الغازى — من أجل أن يؤلف بين الخلافات الواردة فى المصادر إلى أن أميل خواجة أو ايل خواجه على حد ما كتب — كان ملقباً بـ(ايسان — بوقا) ولا توجد أى إشارة فى المصادر القديمة ولا فى المصادر المتأخرة إلى انتماء توغلوق تيمور إلى أسرة الخان ، فقد تزوجت أمه بعد وفاة زوجها الأمير أو — طبقا لرواية أخرى — وهو لا يزال على قيد الحياة — ، أميراً آخر ، ونشأ تيمور توغلوق فى كنف هذا الأمير فكان يعتبر مثل ولده ومن المحتمل أن تكون الرواية القائلة بانتماء تيمور توغلوق إلى أسرة الخان موضوعة ، وضعها الأمير المنتمى إلى قبيلة دوغلات والذى أجلس على العرش فى القسم الشرقى من ممتلكات جتاى

إمبراطورية المغول المتتركين : تيمور والتيموريون

مصادر تاريخ تيمور :

ولقد كان من المحتمل أن نعجز عن تصور الأوضاع فى آسيا الوسطى بل عن تصور الخطوط العريضة لهذه الأوضاع خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، كان ذلك محتملا لو لم تتكون إمبراطورية تيمور لنك ، فقد كان ظهورها سبباً فى تأليف كثير من الكتب التاريخية بل لقد أوصى تيمور لنك نفسه بأن يؤلف بعض هذه الكتب ، وتضم قصص الغزوات التيمورية أسماء كثير من زملائه فى المعارك المظفرة وكذلك أسماء الأماكن التى عاش فيها هؤلاء الزملاء هم وأسلافهم ، وتبين أيضا الأجناس التى ينتمون إليها ، وفيها إلى هذا مواد قيمة عن كلمات تيمور وحركاته وأخبار أصدقائه وأعدائه وعن خصائص البيئة التى عاش فيها ولكن هذه المواد لم تدرس بعد مع الأسف دراسة دقيقة بل لم تنشر بعد ليطلع عليها جمهور القراء .

و بين أيدينا ثلاثة مؤلفات عن تاريخ تيمور كتبها — تنفيذاً لرغبة تيمور نفسه — مؤلفون إيرانيون ، وكتبوها بالفارسية ، وقد نشرت أكاديمية بطرسبرج فى سنة ١٩١٥ أقدم هذه التواريخ معتمدة على نسخته الوحيدة الموجودة فى طاشقند وأما الكتاب الثانى فقد ألفه نظام الدين الشامى وهو يتناول الأحداث حتى سنة ١٤٠٣ ، وقد سُمى بإشارة من تيمور نفسه (ظفر نامه) = (كتاب الظفر) ولم ينشر شيء منه . وتوجد من هذا الكتاب نسخة فى لندن ، كما توجد نسخة أخرى[1] فى إستانبول أدرجها حافظ أبرو بتمامها فى مصنف رتّبه سنة ١٤١٧ وأشهر هذه المؤلفات الثلاثة هو (ظفر نامه) لشرف الدين اليزدى وقد بدأ تأليفه سنة ١٤١٩ وأتمّه سنة ١٤٢٥ ، وقد طبع هذا الكتاب فى الهند طبعة غير علمية ويمكن الاطلاع عليه فى ترجمته الفرنسية التى حررت فى القرن الثامن عشر (صاحب هذه الترجمة هو پيتى دى لاكروا Petis de lacroix أستاذ اللغة العربية فى «الكوليج دى فرانس» وظهرت هذه الترجمة فى باريس سنة ١٧٢٢) .

ولم ينشر حتى الآن مدخل هذا الكتاب وهو يحتوى على تاريخ العالم حتى ظهور تيمور ، ويضم فيما يضم تاريخ إمبراطورية المغول .

وظهرت مجموعة أخرى من الكتب عن تاريخ تيمور من بينها كتاب عن تاريخ العالم مجهول المؤلف وقدم إلى السلطان إسكندر أحد أحفاد تيمور ، وما زال هذا الكتاب مخطوطاً ، ولا يوجد منه فيما نعلم إلا نسختان إحداهما فى لندن والأخرى فى لينينجراد ، وكنتُ — فى ثنايا كتابى عن أولوغ بك — أشير إلى النسخة الثانية بعبارة (إسكندر آنونيمى) أى (كتاب السلطان اسكندر المجهول المؤلف)

وقد استعمل مؤلف هذا الكتاب اللغة الفارسية مثله كمثل شرف الدين

---

(١) ترجمها إلى التركية الأستاذ نجاتى لوكال سنة ١٩٤٩ (المترجم)

ولكنه كان أعلم منه بتقاليد آسيا الوسطى وعاداتها وأفكارها وقد أفاد حافظ أبرو من هذا الكتاب ومن كتاب نظام الدين الشامى حين ألف كتابه (زبدة التواريخ) فى سنة ١٤٣٢ لحفيدٍ آخر من أحفاد تيمور . ولم توجد حتى الآن نسخة كاملة من زبدة التواريخ .

ولم يعثر فى أى مكان على القسم الخاص بتاريخ تيمور ، وإنما عرفت محتويات هذا القسم من الكتاب الذى ألفه فيما بعد المؤرخ عبد الرازق السمرقندى (١٤١٣ — ١٤٨٢) وقد تناول فيه الحوادث حتى سنة ١٤٧١ ، ومع أن مخطوطات كتاب عبد الرازق جميلة وكثيرة فإنه لم يمكن نشره حتى الآن . وبالإضافة إلى هذا الكتاب وإلى غيره من الكتب المحررة بالفارسية ، يوجد كتاب آخر يؤرخ الحوادث بحسب السنين وقد كتبه الباخشيلر ، الأويغوريون بأمر من تيمور ، وهو مكتوب باللغة الأويغورية وعنوانه (تاريخ خانى) وقد أشار إلى هذا الكتاب مؤلف أوزبكى عاش فى القرن السادس عشر ، ومن الواضح أنه كان علك نسخة من هذا الكتاب . ويبدو أن كلمة (باخشى) فى هذا المقام ليست بمعنى الراهب البوذى وإنما تدل على الموظف الذى يحرر الوثائق بالحروف الأويغورية ، ولم يكن هؤلاء الموظفون موجودين عند خوانين چغتاى وعند تيمور فحسب بل نجدهم يعملون أيضاً لدى خلفاء تيمور فى القرن الخامس عشر ويبدو أن هذا الكتاب — مثله كمثل كتاب اسكندر وكتاب محمد حيدر — يُعنى بتقاليد الأستبس وبالمناقب وقصص البطولة أكثر مما يعنى بالحوادث التاريخية ومن المحتمل أن تكون الحكايات المتعلقة بأهمية أسلاف تيمور فى آسيا الوسطى منذ عهد چنگيز وقبل عهده ، يحتمل أن كون كلها من اختراع كتّاب تيمور من الأويغور .

وكثيراً مايبدى علماء أوروبا أسفهم لضياع كتاب (دورت أولوس تاريخى) = (تاريخ الشعوب الأربعة) الذى يقال إن أولوغ بك حفيد تيمور قد ألفه بالفارسية وقد وجدنا فى كتاب خوندمير وهو من مؤلفى القرن السادس عشر ،

بعض الإشارات إلى ذلك الكتاب ، ويقرر مؤرخ آخر من مؤرخى القرن السادس عشر ، ألف كتابه بالفارسية فيما وراء النهر ، أن كتابه خلاصة لكتاب أولوغ بك (توجد من هذا الكتاب مخطوطتان فى لندن وقد طبعت إحداهما مع ترجمة إنجليزية سقيمة سنة ١٨٣٨) ولا شك أن هذا المؤلف قد أضاف من عنده أشياء ولكن خوندمير يؤكد أن أولوغ بك لم يؤلف هذا الكتاب ، وإنما أُلِّف الكتاب باسمه فقط ، وقد كرّر هذا الكتابُ — مع بعض الإضافات — ما ورد فى كتاب رشيد الدين وفى مدخل كتاب نظام الدين الشامى ، وهكذا فإن ضياعه ليس خسارة فادحة للعلم .

ومهما يكن من شىء فما كان تدوين التاريخ بآسيا الوسطى فى عهدى المغول والتيموريين ليخرج كتاباً يضاهى كتاب رشيد الدين . ومن المحتمل أن سجل حكايات المغول الموسوم (بالكتاب الذهبى) والمحرر بأسلوب أدبى مصنّع كان معروفاً فى الصين وفى آسيا الوسطى ما عدا إيران .

ومع هذا فليس لدينا من الروايات ما يدل على شدة رواج هذه الحكايات فى آسيا الوسطى ، وكان المنتظر أن يذيع كتاب رشيد الدين بين الشعوب التركية بفضل ما فيه من تصوير صادق وواضح لحياة البدو ، ولكن الملاحظ أن هذا التصوير كان أعظم قيمة عند (أتراك الغرب) أى أتراك آسيا الصغرى منه عند أتراك تركستان ؛ فهناك لم يُترجم كتابا رشيد الدين وشرف الدين اليزدى إلى اللغة التركية إلا فى بداية القرن السادس عشر حيث تُرجما للخان الأوزبكى كوچكونچى Koutchkonutchi ، أما فى آسيا الصغرى فقد استغل كتاب رشيد الدين فى تحرير كتاب (تاريخ آل سلجوق) الذى أُلف للسلطان العثمانى مراد الثانى (١٤٢١ — ١٤٥١) (بعض أقسام هذا الكتاب عبارة عن ترجمة من الكتابين الفارسيين كتاب الراوندى وكتاب ابن بيبى) .

ومن آيات استغلاله أن مؤلف (تاريخ آل سلجوق) آخذ ما ورد به من كلمات جنكيزخان وأدرجها فى كتابه بل ترجمها إلى التركية ونسبها فى جرأة عجيبة إلى جد الأتراك الأسطورى أوغوزخان ، وقد ذهب أحد علماء الترك إلى أن كتاب (اغوز نامه) يحتوى على كل القوانين التى نقلها جنكيزخان . ولكن المقارنة بين النصين الفارسى والتركى تدل بوضوح على أن الثانى ترجم عن الأول، وفى بعض الفقرات أخطأ المؤلف التركى فقرأ الكلمة الفارسية (سنك) (أى حجر) بحذف النون فصارت (سك) بمعنى (كلب) وهكذا صارت الجملة المترجمة (الكلب الذى وقع فى الماء ، بدلا من الحجر الذى وقع فى الماء) .

وإذا قارنا بين روايات رشيد الدين وبين الحكايات التى كانت ذائعة فى أثناء القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، عن أحداث القرن الثالث عشر ، وجدنا أن ليس لهذه الحكايات سند من الواقع، وأنها وضعت لتوضح بعض الأحداث أو لتعلل حدوثها ، وقد حدث الأمر نفسه فى حكومة تيمور وفى الولايات الشرقية التى انفصلت عما وراء النهر .

وقد نشأ تيمور فى قبيلة مغولية متتركة هى قبيلة بارلاس (بارولاس بالمغولية) وكانت هذه القبيلة تحكم وقتذاك الأماكن الواقعة على نهر كشكة ، ويحدثنا رشيد الدين بأن (قاراچار) وهو الأمير الجغتائى الذى اعتبر فيما بعد جداً لتيمور كان منسوباً إلى برلاس ولكن رشيد الدين لا يشير إلى أن قاراجار أو ذريته القريبة قد اشتركوا بأى قسط فى الحكم ، هذا بينما تتواتر الروايات فى عهد تيمور بأن قاراجار وخلفاءه كانوا — من بين خوانين الجغتائية — أصحاب قدرة وشوكة ، مثلهم فى ذلك كمثل تيمور نفسه ، وتضيف هذه الروايات أن حكمهم كان يستند إلى معاهدة عقدها (قابُول) وهو الجد الأعلى لجنكيزخان مع أخيه قاچول وهو الجد الأعلى لقاراجار ، وتقول هذه الروايات أيضاً إن تلك المعاهدة قد جُدِّدَتْ مراتٍ عديدة

بل تذهب إلى أن وثيقة مكتوبة خاصة بهذا الموضوع قد فقدت أثناء الاضطرابات فى القرن الرابع عشر .

ومن ناحية أخرى فإن الدوغلات — وهم يمثلون إحدى القبـائل المغولية المتتركة ، وكانوا يحكمون فى منتصف القرن الرابع عشر مساحة شاسعة — تضم بالإضافة إلى تركستان الصينية — فرغانة والجزء الشمالى من يدى صو حتى بحيرة ايش كول ، هؤلاء الدوغلات يزعمون أن چغتاى منح جدهم (اوترو بو) حكم تلك البلاد هذا مع أن رشيد الدين يقرر حين — يتحدث عن قبيلة الدوغلات — أن ليس من أعضائها (حتى وقته هو) من تمتع بأى منزلة أو أى شأن .

المغول المتتركون :

ولا شك أن المنزلة العالية التى أحرزتها القبائل المغولية المتتركة فى ذلك الوقت فى شرق آسيا الوسطى وغربها جديرة بإمعان النظر ، ولم يُحصِ المؤرخون العشائرَ التى انقسم إليها البدو فى كل من الحكومتين ولا نكاد نجد بين ما ذُكر من أسمائها اسماً واحداً كان يطلق فيما مضى على أحد الشعوب التركية ، وكان للعنصر القبجاق فى حكم تيمور ذكر ما على حين لم يكن للعنصر القارلوقى أى ذكر وكان الأويغور يُذكرون بوصفهم العنصر الذى ينتمى إليه كُتّاب تيمور (الباخشيلر) وخلفائه . ومع أن هناك إشارات إلى الأراضى التى يقطنها كل عنصر فإن رشيد الدين لا يذكر شيئاً عن الأراضى التى كان الأويغور يقطنونها وقد ذكر أن عدد أفراد الجيش الذى عينه چنگيز خان لخدمة چغتاى هو أربعة آلاف فقط .

ولكن كثيراً من أسماء العشائر المغولية كان يُذكر بين أسماء البدو بآسيا الوسطى فى القرن الرابع عشر ويدفعنا هذا إلى الظن بأن أعداداً ضخمة من المغول كانت قد وفدت على تركستان فيما بعد . ولا ريب فى أن أبناء العشيرة الواحدة والمكان الواحد كانوا يرحلون إلى أماكن مختلفة ، ومن هنا كان كثيراً مايذكر إسم

العشيرة الواحدة فى الولايات التابعة لتيمور . ويذكر فى نفس الوقت فى الولايات الشرقية . وقد كان شعب الدوغلات مثلا على ذلك ، و إلى هذا الشعب ينتمى الأمير داود صديق تيمور وزوج أخته (قوتلوغ توركان) ويلاحظ فى نفس الوقت أن اسم عشيرة بارلاس كان موجوداً فى الولايات الشرقية .

ومما يلفت النظر أن كلمة (جغتاى) لم تكن تطلق إلا على البدو الخاضعين لحكم تيمور ، ومع أن الخوانين بالمناطق الشرقية كانوا أقوى وأهم و ينتسبون أيضاً إلى جغتاى ؛ فإن بدو هذه المناطق كانوا يسمون أنفسهم المغول و يسمون بلادهم مغولستان = بلاد المغول و إسم المغول يرد فى النصوص المغولية فى آسيا الوسطى بصيغة (مونغول) فقد جرت العادة على ألا تنطق النون ، ولم يحتفظ بلسانه من المغول الذين هاجروا إلى الغرب إلا قبيلة (بريجكى) وهى تعيش الآن فى أفغانستان وحتى هذه القبيلة تقول عن نفسها (موغول) . ويعتقد المغول أنهم هم الممثلون الحقيقيون لشمائل آسيا الوسطى وكانوا يزدرون الجغتائيين لبداوتهم و يطلقون عليهم (قاروناس) أى المولدون .

ومن ناحية أخرى فإن الجغتائيين — بوصفهم أصحاب الدول المغولية بآسيا الوسطى — يطلقون على المغول كلمة (جته) بمعنى الصعاليك وقطاع الطرق . وتطلق كلمة جته أيضا على جماعات البدو التى تخرج على النظام السياسى السائد ، وتقف موقف المحارب وقد سبق أن أشرنا إلى كلمة أخذت نفس المعنى فى القرن الخامس عشر وهى كلمة قازاق ، هذا وقد حاول بعض علماء أوروبا أن يقربوا بين هذه الكلمة (جتة) و بين اسم الكوت القدماء Gets del'antiquité ولدينا حتى الآن أسئلة لم تعرف أجوبتها :

إلى أى مدى كان مغول القرنين الرابع عشر والخامس عشر مغولا من الناحية اللغوية ؟

وهل يجوز اعتبار العداء بين المغول والجغتائيين عـداء قومياً بين الترك والمغول ؟ .

توجد شواهد على أن لغـة المغول فى القرن السادس عشر كانت هى اللغة المغولية .

ويقول بابر إن جده أحمد كان يحمل اللقب المغولى (آلاجى) وتستعمل هذه الـكلمة فى اللغتين المغولية والقالموقية بمعنى (القاتل) . ومن ناحية أخرى فإن محمد حيدر يعتبر المغول والقيرغيز أمة واحدة ، ويؤكد أن الفرق الوحيد بين الطائفتين هو أن المغول دخلوا الإسلام وأن القيرغيز ظلوا مشركين ، ومهما يكن فقد كان خلفاء الخان أحمد أتراك اللسان، وكان ولده سعيد خان المتوفى سنة ١٥٢٢ يقرض الشعر بالتركية والفارسية وكان محمد حيدر يفرق بين المغول و بين السكان الأصليين لشرق تركستان ولم يكن يطلق كلمة مغولستان إلا على مناطق الإستپس التى تمتد من بالخاش فى الغرب (بالخاش هى الحد بين اوزبكستان ومغولستان) إلى بلاد القالموق فى الشرق والمحدودة من الشمال باميل ايرتش ، ومن الجنوب بفرغانة و بمناطق تركستان الشرقية الممتدة من كاشغر إلى بارس كول وفى القرن السادس عشر طرد القالموقُ والقيرغيزُ المغولَ من مناطق الإستپس هذه، ولـكن المغول استطاعوا البقاء فى كاشغر ، ويقدر محمد حيدر عددهم فى كاشغر بثلاثين ألفاً ، ولم تـكن الظروف فى كاشغر مساعدة على مواصلة حياة البداوة ، و بعد أن زالت أسرة الخانات فى القرن السابع عشر اندمج المغول فى أهل البلاد حتى نسوا فى نهاية الأمر أنهم مغول . ولم يبق بينهم و بين السكان المقيمين فرق كبير من الناحية اللغوية حتى أن كلمة كنجاك الواردة فى كتاب الـكشغرى فى القرن الحادى عشر — كانت كما يبدو — قد نسيت تماماً من زمان بعيد .

ومن هنا فإنه على الرغم من أن البدو بشرق بلاد المغول لم يتأثروا بالإسلام

وأن طراز حياتهم كان من أجل ذلك يختلف عن طراز حياة الآخرين — على الرغم من ذلك — لم يكن بينهم عداء كالذى كان بين الترك والتاجيك والسارت فى بلاد جغتاى . وكان من التقاليد فى بلاد المغول أن يقضى الشاب مدة وحيداً فى الجبال والبرارى وأن يذهب على مسيرة شهرين من أقرب مكان معمور ببلاده ويعيش زماناً على لحوم الحيوانات ويلبس جلودها . وكان لمن يقوم بهذه الرياضة من الفتيان شأن كبير ، ولم يكن ممكناً بطبيعة الحال أن توجد عادة كهذه فى بلاد جغتاى .

وفى عهد تيمور كان الجغتائيون يعتبرون أنفسهم جنوداً مسلمين ولكنهم ظلوا محافظين تماما على تقاليد جنگيزخان سواء فى الزى أو فى التشكيلات العسكرية ، وكانوا يطلقون على قانون البدو العرفى المنسوب إلى جنگيزخان كلمة (تورا) ومن المحتمل أن تكون هذه الكلمة تحريفا للكلمة التركية القديمة (تورو) وأن يكون هذا التحريف بتأثير الكلمة العبرية (توراه) الواردة فى القرآن ، وقد اتهم تيمور والجغتائيون لشدة تمسكهم بالتقاليد الجنگيزية بأنهم يقدسون (التورا) كما يقدسون الشريعة حتى لقد أصدر أصحاب النفوذ من علماء سورية فتوى أكدوا فيها أن تيمور وأتباعه غير مسلمين وفى سنة ١٣٧٢ قيل لسفير تيمور فى خوارزم : إن بلادكم دار حرب وإن الجهاد ضدكم فرض على المسلمين ، وكان من الفروق الظاهرة التى تميز تيمور وأتباعه عن سائر المسلمين ، إرسال الشعر . ويؤيد هذه الحقيقة كثير من المخطوطات المزورة بالصور والتى صورت فى آسيا الوسطى فى ذلك الوقت — وعندما حاصر تيمور دمشق ١٤٠٠—١٤٠١ خرج عليه حفيد السلطان حسين وانضم إلى المحاصرين فقصوا على الفور شعره وغيروا زيه .

النظام القبلى عند الجغتائيين :

من الصعب أن نعرف بالتفصيل كيف كان الجغتائيون يقسمون القبائل والعشائر وترجع هذه الصعوبة إلى غموض الاصطلاحات ، فكلمة (اولوس)

مثلاوهي أوسع هذه الاصطلاحات معنى (يقال مثلا اولوس جوجي أو اولوس چغتاى) ، وكلمة (ايل) و (تومان) والكلمة المغولية (آيماق) وكثيراً ما تكتب (او يماق) هذه الكلمات جميعاً بمعنى واحد . وقد أخذت اللغة التركية كلمة (تومن) بمعنى كثير أو بمعنى عشرة آلاف ، عن لغة الشعب الكشغرى و بدأت هذه الكلمة تُطلق فيما بعد على سكان الحضر أكثر مما كانت تطلق على البدو أو الجيش ، وقد فرق محمد حيدر بين أربع طبقات كانت تعيش فى بلاد كاشغر أو (فى كاشغروختن على حد تعبيره) .

١ — تومن : القرويون .

٢ — قائوچين : Qautchim الجيش .

٣ — اويماق : البدو ، وكان لهم الحق فى مقادير معينة من القمح ومن المنسوجات .

٤ — طبقة الموظفين والعلماء .

وكانت كلمة (تومان) تستعمل فى بخارى حتى وقت قريب للدلالة على سكان الوادى وذلك فى مقابل كلمة (كوهستانى) بمعنى ساكن الجبل . ولقد بين السفير الأسبانى قلاويخو Ceavijo وضع الچغتائيين فى بلاد تيمور بالنسبة لسكان الحضر وكان بيانه أوضح مما ورد عن هذا الموضوع فى المؤلفات الشرقية . قال إنهم يستطيعون أن يرعوا قطعانهم فى أى مكان فى الصيف والشتاء و يستطيعون أيضاً أن يزرعوا فى أى مكان وهم أحرار تماماً لا يدفعون للأمبراطور ضرائب ، ولكنهم كانوا يخدمون فى الجيش متى استدعوا .

وتتميز بين الچغاتائيين قبائل أربع هى :

آرلات ، جلاير ، قاچين ، بارلاس ، وقد رأينا أن كلمة (قاوچين) لم تكن تستعمل فى أول الأمر للدلالة على القبيلة أو البطن ، ولكنها كانت تطلق على

الفريق المميز من الجيش ويقول شرف الدين اليزدى أن الخان كان يطلق هذه الكلمة على حرسه الخاص ومن المحتمل أن يكون قازاغان (١٣٤٦ — ١٣٦٨) وهو أول من حكم من الأمراء الچغاتائية فيما وراء النهر — قد نشأ واحداً من هؤلاء القاوچين — (وغلب تيمور فيما بعد حفيدَ قازاغان وقتله) . وأما الأسماء الثلاثة الأخرى فقد كانت منذ القدم أسماء لبعض أقوام المغول . وكان كل منهم يحكم جزءاً معيناً من الأراضى فى بلاد چاغاتاى . فكان الآرلات فى شمال أفغانستان والجلاير بجوار خوجند على ضفاف جيحون ، وكان البارلاس يحكمون ضفاف نهر كشكة وإلى جانب هذه القبائل كانت توجد عشائر چاغاتائية تكونت حول بعض الخانات والأمراء ثم حملت أسماءهم بعد موتهم ، وكان لهذه العشائر رؤساؤها كما كان لها أراضيها ، ففى جوار بلخ مثلا كانت توجد (عشيرة كبك) =(كبك تومانى) وقد ورد فى المخطوطة مجهولة المؤلف التى اصطلحنا على تسميتها (مخطوطة اسكندر) أن كبك حصل فى أثناء سلطة أخيه ايسان بوقا على حق أن يجمع حوله بعض الأغنياء من كل قبيلة (ولاشك أن هؤلاء الأغنياء هم البدو الذين يملكون أكبر عدد من القطعان) . ويقول المؤلف : ومن هؤلاء الناس تنحدر الجماعة التى تتسمى الآن — من فرط غرورها — بجماعة كبك (تا كه امروز مفاخرت بانجو كرئى كبك ميكنند) ويقرر نفس المصدر أن قبيلة الأمير ياساوور عدو كبك قد انضمت إلى هذا الأخير بعد هزيمة ياساوور . ولكن الياساووريين كانوا يعيشون فى عهد تيمور إلى جوار سمرقند بوصفهم إحدى البطون المستقلة وكان رئيسهم الأمير خضر يحكم سمرقند كما تقرر نفس المخطوطة .

تيمور والقبائل:

ولا شك فى أن العلاقات كانت وثيقة بين تيمور وقبيلة بارلاس التى ينتمى إليها ، وكثيراً ما كان أفرادهذه القبيلة يوصفون بأنهم (إخوة تيمور)، وكان تيمور

حتى بعد أن نُصِّب رئيساً على إمبراطورية جاغاتاى يناضل ضد أمراء الآرلات والجلائرية ليحكم مدة أطول حتى لقــد أعلن فى سنة ١٣٧٦ أن قبيلة جلاير قد حُلت ، بل محيت وألحقت بقاياها بالقبائل الأخرى .

وعلى أى حال فلم يكن الأمراء المقربون إلى تيمورهم أمراء البارلاس وحدهم بل كان من بينهم أمراء يمثلون قبائل أخرى ، ومن هؤلاء آق بوغا المنتمى إلى قبيلة نايمان ومن دلائل قربه أنه حجز لنفسه — كما حجز غيره من زملاء تيمور فى القتال — مكاناً إلى جوار قبر تيمور فى (شهر سبز) كان المفروض أن يكون قبر تيمور (كان المفروض فى أول الأمر أن يكون قبر تيمور شهر سبز) ومن اللافت أن أماكن هذه القبور كانت تسمى موچيل وهى الكلمة التى تطلق على موضع الكتيبة أو مكان الفرد فى ميدان القتال ، ويدل هذا على أن تيمور كان موطن إجلال الجاغاتائيين عامة والأعيان منهم خاصة . ولكنه مع هذا كان يحس أنه أقرب إلى العنصر العسكرى فى البلاد منه إلى سكان المدن والقرى .

هذا ولكن البدو فى حكومتى آسيا الوسطى وهما حكومة المغول وحكومة جاغاتاى كانوا يعتقدون أن تيمور قد ارتكب جرماً كبيراً باختياره مدينة كبيرة لتكون عاصمة لملكه ، ولأنه — وإن لم يتخذها مقراً دائماً له — بدأ يشيد فيها المبانى .

ذلك أن البدو كانوا يعتبرون هجرة أمرائهم ورؤسائهم إلى المدن إخلالا بقانون جنكيز خان ، وقد نسب أتراك آسيا الصغرى النصيحة القائلة (شد الرحال دائماً لا تقعد) إلى أوغوز خان والنص التركى لهذه النصيحة هو : (دائم كوچ أدلر ، أوتوراق أولمايالر) ، وكلمة (أوتوراق) الواردة فى هذه العبارة والتى يستعملها أتراك آسيا الصغرى أقرب معنى إلى الكلمات الأوروبية المستعملة فى نفس المعنى (مثل Sédentaire الفرنسية و Sesshaft الألمانية و Osedlyi الروسية) من كلمة (جاناق) المستعملة فى آسيا الوسطى ، ومما لا شك فيه أن النفور من حياة الحضر كان أكثر تأصلا فى منغوليــــا منه فى الغرب .

وفى النصف الثانى من القرن الخامس عشر اضطر الخان المغولى يونس — بسبب استياء رعاياه من المغول — إلى التخلى عن توطن آق صو (مع أن آق صو هذه ما كانت لتدرج فى عداد المدن إلا بالنسبة إلى ظروف منغوليا) هذا على حين كان خلفاء تيمور قد أحرزوا فى نفس الوقت شأواً بعيداً بفضل ما شيدوا من مبان فى سمرقند وهراة .

ولما استولى يونس بعد سنين على سايرام وطشقند (من المعروف أن قبره فى طشقند) خرج عليه قسم من المغول برياسة ولده أحمد الذى ما لبث أن اصطدم بأبيه و بأخيه الأكبر . وقد بقى أحمد هذا — كما كان دائماً — محارباً بدوياً محتفظاً بتقاليد البدو و بزيهم وعلى هذه الصورة رآه صهره بابر سنة ١٥٠٢ .

وقد تفردت روايات حوادث القرن الرابع عشر بالإشارة إلى تمرد البدو على الدولة الجاغاتائية بسبب نزعة الحكام إلى حياة الحضر ، وكان المؤرخون يمدحون قازاغان لأنه بقى مستمسكا بقواعد الحياة البدوية ، يقضى الشتاء على ضفاف نهر جيحون ، والصيف على جبال بلجوآن ، ولا يطأ أراضى أهل المدر .

وقد هاجم ابنهُ عبد الله مدينة خوارزم دون إذن منه فافتدى الأهالي أنفسهم بمائتى تومان (مليونا دينار فضى) ، ولكن أباه لم يكد يعلم بهذا الاعتداء غير المسبب على بلاد المسلمين حتى آخذه بشدة .

و يقال إن قازاغان كان يحسن معاملة الترك والتاجيك ، ومع أن عبد الله قد أحسن الإدارة بعد وفاة قازاغان إلا أنه أثار الاستياء باتخاذه سمرقند مقراً للحكم ؛ فقد أدى هذا إلى أن خلعه الأمراء قبل مضى عام على وفاة أبيه ، و بعد بضع سنين حافلة بالقلاقل قبض حسين حفيد قازاغان على أزمة الحكم ، وحاول هو الآخر أن يتخذ من بلخ عاصمة له ولكن تيمور نصحه بأن يعتبر بما حدث لعمه وأقنعه بالعدول عن الفكرة ، ثم قامت الثورة ضده واشترك فيها تيمور

فلما قتل حسين انتقل الحكم إلى تيمور ، ولم يكد يمسك بمقاليد الحكم حتى ارتكب ما سبق أن آخذ عليه عبد الله وحسين ، فاتخذ من المدينة الكبيرة سمرقند مقراً للحكم وبنى بها القلاع والحصون . ويمكن أن نستنتج من هذا أن سكان الاستپس لم يكونوا يريدون استبدال حياة الحضر ، بحياة البداوة ، وأن بقاءهم فى مروجهم كان متمشياً مع قوانين جنكيز خان من ناحية ، ومع منافع أهل الحضر — وهم التاجيك — من ناحية أخرى .

ولم يكن الخان والأمراء ينتقلون وحدهم إلى المدينة بل كان يرحل معهم كثير من أبناء عشيرتهم ، وكان التوفيق صعباً بين منافع السكان القدماء وبين هؤلاء المهاجرين الجدد ، خاصة أن السكان القدماء كانوا تحت حكم رؤساء البدو وكانوا يتحملون الضر بسبب الحروب الداخلية بين هؤلاء الرؤساء .

ويقول مؤلف مخطوطة الاسكندر عندما تناول تأسيس مدينة أنديجان فى عهدى (قايدو) و (تووا) إن الخانات كانوا يستوفدون الناس من كل البلاد الخاضعة لهم ليسكنوهم فى المدينة وفى زمن المؤلف كان لكل قوم أو — بتعبير أدق — لكل بطن من بطون البدو ، حىّ خاص بالمدينة .

تيمور وحضارة المدن :

كان تيمور عارفا بالفارسية إلى جانب التركية ، ملما بالإسلام من حيث هو عقيدة واقفاً على العلوم والفنون الاسلامية ، استدعى العلماء من كل مكان إلى سمرقند ، وحفر القنوات وشيد المبانى حتى لقد كانت أفعاله فى التعمير لا تقل أثراً فى نفوس معاصريه عن أعماله فى التخريب والتدمير ، ولم يكن العنصر التركى يسهم فى أعمال تيمور . وكانت خوارزم — من بين ممتلكات تيمور — أكثرها تتركا وقد بنى صُنَّاع خوارزم لتيمور قصراً عظيما فى شهرسبز اسمه القصر الأبيض (آق سراى) ولم يكن بهذا القصر — عدا اسمه — أى شىء تركى فلم تنقش

مثلا أى كلمة تركية فى القصر على حين وجدت بين نقوش جدرانه — أبيات كثيرة فارسية — ولم يكن تيمور من محبى الشعر فارسيا كان أو تركيا ، وإذا استثنينا ما يقال من أنه قابل حافظ سنة ١٣٧٧ ، فإنه يمكن القول بأنه لم يعرف شاعراً واحداً من شعراء إيران ، وقد برهن تيمور بالقبة الفخمة التى أنشأها فوق قبر الولى التركى أحمد اليسوى على عنايته بالأمور الروحية لرعاياه من الترك (وكانت هذه القبة هى البناء الوحيد الذى شيده تيمور خارج سمرقند وشهر سبز) ، ومع هذا فإن وثيقة وقف هذا البناء — وقد وصلت إلينا — محررةٌ بالفارسية .

وسأحاول أن أجمع فى المحاضرة القادمة بعض المعلومات عن مستوى أتراك آسيا الوسطى الاقتصادى والحضارى فى عهد خوانين الأوزبك .

المحاضرة الثانية عشرة

لا شك فى أن تيمور لم يكن يقصد — إبان تأسيس إمبراطوريته — إلى تحقيق غايات الترك القومية وإنما كان يقصد إلى الاستيلاء على أكبر عدد من الممالك، أو على العالم كله إذا أمكن، وليس لدينا دليل على أن تيمور كان ملما بتاريخ الإسكندر المقدونى، ولكن مؤرخه ينسب إليه عبارة نسبت من قبل إلى الإسكندر وإلى من شابهه من غزاة العالم ومن بينهم عضد الدولة أقوى حكام البويهيين فى القرن العاشر الميلادى، وهذه العبارة هى (لا يستحق العالم كله أن يملكه حاكمان) وقد فكر تيمور فى أن يكلل فتوحاته بفتح الصين مثله فى ذلك كمثل خوارزمشاه من قبله ونادر شاه من بعده، ولم يكن بينه وبينهما سوى فرق واحد هو أن فتح الصين بالنسبة إلى خوارزمشاه ونادرشاه كان غاية بعيدة المنال، أما بالنسبة إليه فقد كان أمراً ممكنا أعد له عدته وحشد له جيوشه ولم يحل بينه وبين الغزو إلا الموت، وكانت استعداداته للغزو معروفة فى الصين حتى لقد بدأ الصينيون يتخذون التدابير لدفع الهجوم المتوقع. وتقول إحدى الروايات إن قادة جيش تيمور أرادوا بعد وفاته أن يواصلوا تنفيذ الخطة ويزحفوا على الصين، ولكن شغلهم عن هذا ما ظهر فى داخل إمبراطورية تيمور من فتن وقلاقل، ونستطيع أن ندرك من كل ما تقدم إلى أى حد كان الأتراك المسلمون يهتمون بالصين. ولقد أشار بابر فى مذكراته إلى أنه كان يحلم كثيراً بقيادة حملة ضد الصين، بل لقد واصل هذا التفكير بعد أن انقطع عن كل نشاط سياسى بسبب هزائمه العسكرية، وكان وقتذاك لا يستطيع أن يبقى فى الصين لو دخلها فاتحا مثلما كان تيمور سيفعل بل كان سيقيم هناك بوصفه ضيفاً فقط.

وفى عهد تيمور وخلفائه بقيت سمرقند مركزاً تجاريا هاما، يرد عليه كثير من السلع الصينية ومع هذا فلم يكن بتركستان فى العهد المغولى معلومات علمية عن

الصين ، كتلك التى وجدت فى نفس العهد بإيران ، وخاصة فى كتب رشيدالدين ، وقد وَصَفَ سفارة شاهرخ إلى الصين (١٤١٩ ـ ١٤٢٢) — وهى السفارة التى اشترك فيها وفـــد من سمرقند — عضوٌ إيرانى فى هيئة السفارة نفسها .

خراب خوارزم :

كانت المناطق المتأثرة بالمدنية الإيرانية هى الهدف الأصلى لغزوات تيمور ، وكانت خوارزم — لأسباب جغرافية — أول هذه المناطق استهدافاً للغزو . ولم تــكن خوارزم — وسكانها فى ذلك الوقت من الأتراك — تقل حضارة عن أى منطقة من مناطق إيران ، وقد نقل منها تيمور كثيراً من العلماء والصناع إلى سمرقند فشيدوا له القصر المسمى آق سراى وما زالت بقاياه حتى اليوم تدل على مهارتهم ، فهو لا يقل حسن صنعة عن أى مبنى من مبانى تيمور بسمرقند و بخاصة من حيث تغطية الجدران بالفسيفساء الصينى .

وقد قضت الظروف وقتذاك بأن تتحمل خوارزم من ويلات الحروب التيمورية أكثر من غيرها .

وكانت خوارزم — قبل ذلك بقليل — قد تخلصت من حكم الآلتون اوردو ودخلت تحت حــكم أسرة من تلك الأسرات التى ظهرت — كأسرة تيمور — بين المغول المتتركين ، ولــكن حسين صوفى وهو أحد حكام خوارزم لم يكن يسمح بأن يقارن بين أهل خوارزم الذين تمثلوا الحضارة الإسلامية تمثلا كاملا و بين الجاغاتائيين الذين يشبهون المشركين زياً وتقاليد ، وفى سنة ١٣٧٢ رفض المحادثات مع سفير تيمور الموجود بخوارزم وقال له فى خشونة إن بلادكم دار حرب و إن مجاهدتــكم فرض على المسلمين . و بعد أن استولى الجاغاتائيون على خوارزم سنة ١٣٨٩ ثارت ضدهم عدة مرات .

وفى أثناء الحرب بين خان الآلتون اوردا توختاميش و بين تيمور انحازت خوارزم عدة مرات إلى توختاميش بل سكت فيها العملة باسمه ، ومن أجل هذا كله كان طالع خوارزم و بخاصة عاصمتها أوركانج ، أشد نحساً من سائر البلاد التى فتحها تيمور . ومع أن سكان المدن قد تعرضوا غير مرة أثناء حروب تيمور للقتل العام ، فلم تتخذ التدابير للإبقاء على خراب هذه المدن، ومن هنا كان عدد السكان كثيفاً فيما بعد فى نفس الأماكن التى قتل بها عشرات الألوف . وفى نفس هذه الأماكن عاش أحفاد تيمور . ولكن أوركانج — كمدينة — كانت قد امحت تماماً ، وزرع فى مكانها الشعير إعلاناً على خرابها . و بعد ثلاث سنين تقرر إحياء أوركانج ولكن فى ربع مساحتها قبل التدمير ، ومع هذا فلم تستطع أن تستعيد أهميتها التجارية والثقافية ، وخاصة أنها كانت — بسبب موقعها الجغرافى — معرضة للأضرار الناجمة عن الحرب بين الأوزبك أى أتراك الآلتون اوردا و بين الجاغاتائيين.

كان تيمور كما رأينا نموذجاً للمحارب الجاغاتائى ، ولا شك فى أن الأتراك الجاغاتائيين كانوا أقرب إلى نفسه من التاجيك أصحاب القومية الإيرانية ، وفى جيش تيمور كان يوجد الإيرانيون جنباً إلى جنب مع الترك ، ولكن المؤرخ الخراسانى حافظ آبرو يقرر أن تيمور كان يعتمد أكثر ما يعتمد على الكتائب الخراسانية فى جيشه ، وفى نفس الوقت كان تيمور يقول فى كلمة منسوبة إليه « إن الخصال العسكرية قاصرة على الترك » . وقال تيمور أيضاً قبيل وفاته يوصى أبناءه وأحفاده إن السلطان أحمد جلاير — الذى كان فيما مضى حاكما على غرب إيران — لم يكن يقلقه أو يشغل باله لأنه كان تاجيكى المزاج .

ومهما يكن فلا بد أن تيمور كان متأثراً ككل الأتراك بالمدنية الإيرانية ، وكان تيمور أمياً لا يقرأ ولا يكتب ولكنه كان على قسط من الثقافة وكان يلعب الشطرنج و يخالط العلماء وحصّل له من محادثاتهم علم ببعض العلوم ، وقد أدهشت معلوماته التاريخية ابن خلدون أكبر مؤرخى العرب فى ذلك الوقت ، ولم يكن تيمور يعنى

بالانتصارات العسكرية فحسب بل كان يجلب العلماء إلى عاصمة ملكه ليتوّج عظمته بالأبنية الفخمة وبمنشآت الري ، وكان تيمور يعتمد فى كل ذلك على أصحاب الثقافة الإيرانية أو — على الأقل — على أناس ينتمى أغلبهم إلى العنصر الإيرانى.

وبمناسبة الحملة التى كان يزمع أن يقودها لغزو الصين اتخذ — فى أواخر سنى حياته فقط — بعض التدابير التى لم يكن يتحرج أى حاكم معاصر لنا من أن يتخذها منذ البداية ، فحاول أن يخضع الأقوام التركية المغولية إخضاعاً كاملا ولم يكن قام ضدها قبل ذلك إلا ببعض الغارات ثم بنى القلاع فى مناطق الاستپس وكانت القلعة المشيدة إلى جوار بحيرة (ايسيق — كول) تعتبر من القلاع الأمامية ، وبذل الجهود كذلك لإحياء الزراعة ولإحياء الحياة الحضرية ، ولكن كل ما حقق تيمور من الاصلاحات ما لبث أن زال بعد وفاته ، ولم يوفق خلفاؤه — رغم كل جهودهم — فى إخضاع البدو من جديد .

التيموريون فى هراة وفى سمرقند :

ولم يكن تيمور حسن الحظ فى أولاده وأحفاده مثل جنكيز ، فإن أولاده لم يعجزوا عن توسيع حدود الإمبراطورية فحسب ، بل عجزوا أيضاً عن المحافظة عليها ، فبعد قليل من وفاته فقد أبناؤه كل بلادهم ماعدا تركستان والمناطق الشرقية والجنوبية من إيران .

ولكن صغر الإمبراطورية والهدوء النسبىّ الذى سادها فى الداخل ، وضيق العمليات الحربية ، كل أولئك مكّن من بذل الجهود فى النواحى المدنية على نحو لم يكن موجوداً فى عهد تيمور

وتحولت العاصمة من سمرقند إلى هراة مقر شاهرخ بن تيمور ، الذى أصبح — بعد عدة حروب داخلية — الحاكم الأعلى على كل البلاد الخاضعة لأبناء تيمور ،

وقد حكم أولوغ بك أكبر أبناء شاهرخ فى مدينة سمرقند زهاء أربعين عاماً (١٤٠٩ — ١٤٤٩) ظلت سمرقند فى خلالها أكثر المدن ازدهاراً ، وقد فاقت المبانى التى شيدها أولوغ بك المبانى التى أقامها جده تيمور قوة بنيان ، ودقة أبعاد ورعة مظهر ، ولم يكن لمبانى سمرقند أو هراة أى طابع تركى قومى ، نعم لقد أنشئت — بالإضافة إلى المساجد والمدارس — الحمامات والربط والمؤسسات الخيرية بوجه عام ، ولكن لم يكن من بين هذه المؤسسات جميعاً بناءٌ له طابع قومى ، كذلك البناء العظيم الذى شيّده تيمور حول قبر اليسوى وكذلك الزاوية التى أعدها للدراويش المقيمين ولاستقبال الدراويش الوافدين من الخارج ، وفى الوثائق الرسمية وُصِفَتْ هذه الزاوية — وهى جزء من نفس البناء المذكور — بأنها خانقاه أعدت لإقامة الدراويش « خانقاه مسافر پناه » .

وإقامة هذا البناء عمل يتفق مع الاعتقاد بأن من واجب الرؤساء قضاء حوائج الرعايا وإكرامهم .

دب الجغتائى فى
ـد التيموريين :

وفى مقابل هذا تقدم الأدب التركى فى عهد خلفاء تيمور بعد أن لم يكن له ذكر فى عهده هو ، نعم كان الشعر موجوداً فى إمبراطورية الجاغاتائيين منذ زمان فقد كان كابل شاه (الذى نصّب خاناً فى سنة ١٣٦٦ ثم خلع بعد مدة قليلة) يقول الشعر وكان له صيت شعبى حتى القرن الخامس عشر ، وكان يقرر بوصفه خاناً أنه من خلفاء جنكيز خان . ومن الواضح أن لغته هى التركية والمرجح أنه كتب بها أشعاره ، وكان سيف الدين برلاس وهو رفيق تيمور فى ميادين الحرب يقول الشعر بالفارسية والتركية ، ولكن أكثر الشعراء شعبية بعد وفاة تيمور هما الشاعران السكاكى ولطفى ، وكان الشاعر الكلاسيكى على شيرنوائى يُقرُّ بمواهب لطفى الشعرية ، وقد مضى على ولادته حتى عامنا هذا الهجرى خمسمائة عام (كان ذلك سنة (١٣٣٤ — ١٣٤٥) هجرية .

أما السكاكى فقد مدح فى أشعاره السلطان خليل (١٤٠٥ — ١٤٠٩) حفيد تيمور ، وحاكم سمرقند ، ثم مدح من بعده أولوغ بك ، وكانت أشعاره فيه أكثر منها فى السلطان خليل ، وقد تحدث الشاعر عن نفسه فى قصائده التى أهداها لأولوغ بك فقال : « سيدور الفلك سنين طوالا قبل أن يجود الزمان بشاعر تركى مثلى ، وبحاكم عالم مثلك » ، أما الشاعر لطفى فكان يقول إن أشعاره التى لاتقل عن أشعار سلمان الساوجى (وهو من شعراء إيران فى القرن الرابع) معروفة لأولوغ بك ، وقد عاش الشاعر التركى (سيدى أحمد بن ميرانشاه) وهو من ذرية تيمور فى كنف شاهرخ وأولوغ بك ، ويمكن أن نستنتج من عنوان منظومته (تَعَشُّقْنَامه) التى كتبها لشاهرخ سنة ٨٢٩ (١٤٣٥ — ٣٦) أنها كانت تقليداً فى بعض نواحيها لمنظومة (محبتنامه) للخوارزمى شاعر الألتون اوردا فى القرن الرابع عشر ، وفى نهاية عهد التيموريين (فى أواخر الخامس عشر وأوائل السادس عشر) كان بابر وهو من خلفاء ميرانشاه يقرض الشعر بالتركية ، ويؤخذ من كلامه أن ابن عمه بايسونقور الذى حكم زماناً فى سمرقند كان هو الآخر شاعراً شعبياً .

وفى النصف الثانى من القرن الخامس عشر ظهر على شيرنوائى فأَفَلَت نجوم الشعراء أجمعين . ولم تعش آثارٌ بعد موت مؤلفها إلا آثار نوائى ، كما لم تتجاوز مؤلفاتٌ حدود الممالك التيمورية إلا مؤلفاته ، فحتى مؤلفات بابر — ولا مِراءَ فى قيمتها — لم يبق منها إلا عدد قليل من المخطوطات ، وقد تعرضت للنسيان ، حتى اكتشفها علماء أوربا من جديد .

وكان نوائى الذى ينزع إلى الثقافة الإيرانية قد أدخل فى الشعر التركى بعض الموضوعات الفارسية ، ووضع كتابا عن ملوك الفرس الأقدمين .

ولكنه — على كل حال — كان يعلى شأن الشعر التركى واللغة التركية . وقد حاول أن يثبت (فى كتاب ألفه قبيل وفاته) فضل اللغة التركية على اللغة الفارسية ولم يكن أحد من المؤلفين — وبخاصة فى آسيا الصغرى — قد جرؤ فيما نعلم على أن يتناول هذا الموضوع قبل نوائى .

وكان الشعراء الترك يكتبون مؤلفاتهم فى سمرقند وهراة ، حيث كانت جمهرة السكان من التاجيك وحيث لم يكن العنصر التركى ممثلا إلا فى الأسرة الحاكمة وفى الجيش ، ولكن تبوأ الأتراك كراسى الحكم كان بلا ريب يزيد أهمية اللغة التركية ؛ ففى مصر مثلا — حيث كان العنصر التركى ممثلا فى الجيش فقط — ظهرت بعض الكتب التركية ، وكانت غالبيتها مترجمة .

ولم يكن كل أفراد الأسرة الحاكمة يعتبرون أنفسهم تركا ، ويقدرون التقاليد التركية بل لقد استطاعت التقاليد (التركية — المغولية) أن تستأصل التقاليد التركية الخالصة وأن تقوم مقامها ، وكانت التشكيلات العسكرية التركية فى ذلك الوقت إحدى مخلفات امبراطورية چنكيز ، وكانت بعض الاصطلاحات العسكرية المغولية تستعمل إلى جانب الاصطلاحات التركية ، ومن هذه الاصطلاحات كلمة « خوشون » التى كانت تستعمل بمعنى الفيلق العسكرى ، ولكن هذه الاصطلاحات المغولية قد ماتت . وكان مدى تعلق الخانات بقوانين چنكيزخان هو الذى يحدد مدى استمساكهم بالتقاليد التركية ؛ ففى هراة مثلا لم يكن شاهرخ يريد أن يتصف إلا بأنه سلطان مسلم وخليفة ، وأبى لذلك أن يعترف بقوانين جنكيزخان،على حين كان اولوغ بك فى سمرقند يرعى فى الأمور العسكرية — على الأقل — قوانين جنكيز ، وكان يجلس على العرش ملوكا اسميين ، كما كان يفعل تيمور ، وعلى الجملة فقد كان يدبر أمور الملك مستوحيا جده .

أولوغ بك :

وعلى العكس من تيمور لم يستطع أولوغ بك أن يُغير — فى حياة أبيه — على غرب آسيا ، وكان من نتائج هذا أن اكتسبت غزواته فى الآلتون اوردا وفى منغوليا أهمية لم تكتسبها غزوات تيمور ، ولكن أولوغ بك لم يستطع مع هذا أن يعيد النظر فى الخطط التى وضعها تيمور فى أواخر حياته ، بل كان قصاراه أن يرفع إلى العرش الأسرات التى يرضى عنها من سكان البلاد الأصليين ، وهى الغاية التى أرادها تيمور ولم تتحقق له ، وكان من باب أولى ألا تتحقق لألوغ بك الذى لم تكن له فيما يبدو مواهب جده العسكرية ، ولا سجاياه كفاتح . حتى إن نتيجة أكبر مشروعاته العسكرية وهو هجومه على منغوليا فى سنة ١٤٢٥ كانت سلبية ، وفى نهاية حكمه ، كانت المناطق الخاضعة لحكمه أضيق منها فى بداية عهده : إذ اغتصب منه المغول الولايات الواقعة شرقى سايرام ، واغتصب الأوزبك المناطق المجاورة لسيحون والواقعة فى الجزء الأسفل من تركستان (توركستانك أشاغى طرفلرندة) وفى ذلك الوقت عظمت قوة الأوزبك تحت حكم الخان أبى الخير ، وعلى أيدى أولاده وأحفاده كانت نهاية سلطنة التيموريين .

وقد استولى أبو الخير لمدة محدودة فى شتاء ١٤٣٠ — ١٤٣١ على مدينة أوركانج ، وعلى القسم الشمالى من خوارزم ، وفى ١٤٤٨ انقض أبو الخير على ما وراء النهر ، بينما كان أولوغ بك يحاول — عقب وفاة شاهرخ — أن يُدخل خراسان تحت حكمه ، وفى ١٤٥١ أغار أبو الخير على المناطق المجاورة لسمرقند ونهبها ، ثم بدأ يتدخل فى الحروب الداخلية التى وقعت بين التيموريين فيما وراء النهر ، فبمعاونته مثلا انتصر أبو سعيد (من خلفاء ميرانشاه) على عبد الله وهو من خلفاء شاهرخ وابن أخى أولوغ بك ، وكان انتصار أبى سعيد نصراً (لخواجه أحرار) كبير الدراويش فى آسيا الوسطى وزعيم المعارضين لأولوغ بك ولنظمه الإدارية .

وكان أولوغ بك يُجِل جدّه تيمور ، ويحافظ فى نفس الوقت على التقاليد العسكرية التركية — المغولية . بل كان إلى حد ما وطنياً تركياً وتشهد على هذا النقود التى سكها باسمه فى سمرقند وهراة خلال العامين اللذين قضاهما على رأس حكومة التيموريين ١٤٤٧ — ١٤٤٦ . (قبل سنة ١٤٤٧ كانت العملة تسك فى سمرقند باسم شاهرخ مع أن سمرقند كانت فعلا تحت حكم أولوغ بك ، ويُوشك أولوغ بك أن يكون الوحيد بين التيموريين الذى نقش عملته باللغة التركية . وتوجد عملة منقوشة بالتركية بين عملات تيمور نفسه) وأما العبارة المنقوشة على سكة أولوغ بك فهى (أمير تيمور گوركان همتيدين أولوغ بك گوركان سوزوم) وترجمتها : إن كلمتنا — ببركة الأمير تيمور گوركان — هى كلمة أولوغ بك كوركان .

وكانت كلمة سوزوم أو سوزمز بمعنى (كلمتى) أو (كلمتنا) كانت هذه الكلمة تستعمل حتى أواخر عهد الأسرة بمعنى يارليغ أى (الأمر الملكى) وهى ترجمة الكلمة المغولية (أوگامنو) üge Manu التى نجدها على عملة تيمور ، وأما كلمة (كورگان) فمعناها الصهر وهى لقب اتخذه تيمور ، كما اتخذه بعض أولاده للدلالة على أنهم ينتمون إلى جنگيز خان .

تيموريون والمدنية الإسلامية :

ولم يكن استمساك أولوغ بك بالقومية التركية يمنعه من أن يأخذ من المدنية الإيرانية أكثر مما أخذ تيمور ، إذ لم يكن يقتصر — مثل تيمور — على لقاء العلماء ، بل كان يشتغل هو نفسه بالعلم عامة وبعلم الهيئة خاصة ، وهو من هذه الناحية نموذج نادر فى التاريخ الإسلامى للحاكم العالم ، وكان معاصروه يشبهونه فى هذا الباب بالإسكندر المقدونى تلميذ أرسطو ، أى أنهم لم يكونوا يجدون له شبيهاً فى التاريخ الإسلامى ، وتشتهر كتب أولوغ به وكتب خلفائه الأقربين فى علم الهيئة بأنها آخر ما وصل إليه المسلمون فى موضوعها .

ويدل تعلق أولوغ بك بالعلم على أن سمرقند فى عهده كانت أرقى منها فى عهد تيمور ، وكان من أصحاب تيمور بعض العلماء ، وكان منهم قسم من عساكر الترك ولكن لم تكن هناك علاقة بين هؤلاء وهؤلاء ، ولم يكن بين أصحاب تيمور من الترك عالم واحد . فأما أولوغ بك فلم يقنع بأن يكون هو نفسه عالماً فى الهيئة بل اتخذ لنفسه من بين أصحابه من الترك تلميذاً وخلفاً هو على قوشجى ، ويدل اسم هذا الشخص على أنه كان كبير القائمين على خدمة الصقور (شاهينجى) عند أولوغ بك ، وكان بهذه الصفة — من المقربين إليه — لأن (أولوغ بك) كان مولعاً بالصيد بالصقور ، ومن هنا سماه بابر (قوشجى بادشاه) أى الملك صاحب الصقور .

وقد تعلق على قوشجى مثل سيده بعلم الهيئة ، واشترك فى إنشاء مرصد أولوغ بك وفى ترتيب جداول الزيج ولا بد أنه كان أصغر سنا من أولوغ بك بدليل أنه يشير إليه فى الجداول بعبارة (ابنى) = (فرزند) ، وظل على قوشجى وفياً لعلمه بعد وفاة أولوغ بك ثم اشتغل فى استانبول وتوفى سنة ١٤٧٤ وكان يجوب بلاد التيموريين بالزى التركى مما يؤيد أنه كان تركى الأصل . ويمكن أن يستنتج من هذا أن عساكر الترك (الچاغاتائيين) كانوا يختلفون فى المظهر الخارجى عن أهل البلاد من التاجيك ، وأن هذا الخلاف كان موجوداً فى عهد أولوغ بك كما كان موجوداً فى عهد تيمور .

ولا شك أن ظهور العلماء من أمثال أولوغ بك وعلى قوشجى من بين الناطقين بالتركية أمر له أهميته ، وإن كان هؤلاء العلماء لم يحاولوا أن يكتبوا بالتركية ولكن حرروا كتبهم بالفارسية والعربية .

ويظهر من كتاب أولوغ بك أنه كان يؤثر العلوم ذات الأهمية العالمية على الدراسات القومية ، وذلك لأن العلوم الأولى لا تتأثر باختلاف اللغة أو الدين

و بالإضافة إلى التأثر بالمدنية الإيرانية ، فقد كان تيمور — رغم تقريبه لطبقة العسكر من الأتراك — يقرب أيضاً أصحاب القومية الإيرانية حتى لقد اتخذ لسلطنته شعاراً فارسيا هو « راستي رستى » أى « العدل قوة » ومن المعروف أن أولوغ بك — على علمه — كان أكثر تركية من جده، ولكنه كان من غير شك يحسن اللغة الفارسية ، ومن المحتمل أنه كان يناقش بها أصحاب علم الكلام من أهل البلاد وكان من بين علماء الكلام هؤلاء مشايخ الإسلام فى سمرقند ، وهم أحفاد برهان الدين مرغينانى مؤلف الهداية من رجال القرن الثانى عشر ، وعنه ورثوا مشيخة الإسلام فى سمرقند ، ومن الجدير بالملاحظة أن مشايخ الإسلام هؤلاء كانوا يتهمون — مثل أولوغ بك نفسه — بعدم رعاية أحكام الإسلام ، و بالانغماس فى المحرمات (لم يكن أحد يجسر فى عهد تيمور أن يتهم الحاكم بمثل هذا) . والواقع أن ما كانوا يستمتعون به فى ذلك العهد ، كدعوة المغنيات و إقامة الحفلات أمر غير عادى وغير جائز من وجهة نظر الإسلام ، وفى نفس الوقت فإن هذه التصرفات تدل على مدى بعد الحياة فى سمرقند فى عهد تيمور وأولوغ بك عن أحكام الدين ، وكان من المنتظر ألا يفيد من هذه الحرية ومن هذا الرقى المدنى إلا الحكام وطبقة الأغنياء ، ولكن الواقع أن طبقة الشعب لم تكن بمنأى عن كل هذا ؛ فقد روى (قلاويخو) وهو يصف الحفلات التى كانت تقام فى عهد تيمور أن الشعب كان يدعى للمشاركة فيها ، ويروى ابن عربشاه أن سراى تيمور وحدائقها كانت مفتوحة للأغنياء والفقراء ما دام تيمور غير مقيم فيها .

ومما يجدر ذكره جريان العادة فى مناسبات أفراح الأسرة المالكة على إعلان أن السكان (تارخان) أى معفون من الضرائب ، وكان على الأهالى أن يدفعوا من أموالهم للفاتحين من البدو وأن يشتغلوا لحسابهم ، مثلهم فى هذا كمثل دافعى الجزية من غير المسلمين فى الدول الإسلامية ، ولم يكن دخول هؤلاء البدو فى الإسلام ليغير هذه العادة المجافية للتقاليد الإسلامية ، وفى سنة ١٣٦٥ ثار أهالى سمرقند على

حكامهم من الترك واتهموهم بأنهم يصرون على جباية (الجزية) من المسلمين ، ولم يكن إعفاء الأهالى من الجزية تطبيقا لحكم إسلامى ، بل ربما كان تطبيقاً لأحد قوانين البدو الخاصة بأهل الحضر ، وهو قانون التارخان (أى الإعفاء من الضرائب) وكان تمتع أى فرد بالإعفاء يعنى أنه أخرج من طبقة دافعى الجزية وألحق بطبقة النبلاء ، وقد حفظت أوامر الإعفاء هذه بين البراءات التى صدرت بأسماء الخانات فى الحكومات التى انقسمت إليها امبراطورية المغول ، وقد بقى حق الإعفاء قائما فى مناطق الڤولجا حتى بعد خضوعها للحكم الروسى ، وكان سارياً حتى عهد إسكندر الثانى ، ولا شك أن قانون البدو لم يكن يقصد أساساً إلى أن يعفى سكان مدينة بأسرها من الضرائب . ومع هذا فقد ظل هذا القانون مطبقاً على سكان العاصمة بعد ذلك حتى عهد الأوزبك وفى نهاية القرن الثامن عشر أصدر شاه مراد والأمير مسعود وهما من أشد الناس استمساكا بالشريعة وحماساً لها ترخانا أعفى بمقتضاه أهالى بخارى من الجزية والضرائب أى أنهما لم يرجعا فى هذا الأمر إلى الشريعة ولكن إلى قوانين البدو .

وكان هذا الامتياز يضع أهل العاصمة فى مكان أعلى بالنسبة إلى سكان المدن الأخرى وإلى سكان القرى الذين ساءت حالتهم الاجتماعية بصورة مؤلمة تحت حكم البدو .

الانهيار :

لم يكن للتيموريين ولا لغيرهم من دول آسيا الوسطى الوقت الكافى ليقيموا على أرض الوطن حياة ثقافية راسية الأساس، وقد أحدثت القلاقل فى فترة الانتقال أزمات استغلها الغزاة الأجانب. فلا شك مثلا فى أن ظهور خواجه أحرار، وثورة الدراويش ، كانا متصلين بجهاد الإيرانيين القومى ضد الترك فقد كان خواجه أحرار نفسه من التاجيك ولم يكن بين أنصاره المقربين تركى واحد فيما نعلم ، ومع هذا

فقد كان التصوف ينتشر بين بدو الترك وكان أبو سعيد متفقا مع خواجه أحرار ، ولكن هذا الاتفاق لم يقطع علاقته بتقاليده القومية ، وتدل على ذلك رؤيا رآها أبو سعيد؛ فقد رأى أحمد اليسوى وخواجه أحرار، وقال له الأول إن الثانى هو مرشده (أى مرشد أبى سعيد). وكان أبو سعيد كحاكم يحافظ على تقاليد التيموريين، وكان يرسم على عملته شعار تيمور وهو عبارة عن ثلاث حلقات صغيرة .

خانية الاوزبك :

هلك التيموريون فى صراعهم ضد قوم من الترك خرجوا من الاسيس وهم الأوزبك ، ولم يكن هؤلاء الأوزبك قد تعرضو التأثير الحياة الحضرية الإيرانية إلا قليلا جدا بالنسبة إلى الجاغاتائيين ، فحافظوا بذلك على عادات البدو وتقاليدهم ، ولم يكن خانات الأوزبك يحتاجون – كما احتاج تيمور واولوغ بك – إلى أن يستثيروا فى نفوس البدو النعرة العسكرية للقومية التركية ، فلم تكن الأساطير المتعلقة بخصال الأوزبك العسكرية مرتبطة بالخانات ولكن كانت مستقلة عنهم تماما بل كانت فى كثير من الأحيان ضدهم ، وقد أدرجت مناقب الأوزبك العسكرية فى حروب القرنين الرابع عشر والخامس عشر فى مؤلفات المؤرخين التيموريين وكانت هذه لمناقب أكثر حيوية من المناقب التى وضعت عن تيمور وأجداده ، وفيما وراء النهر ظهرت إلى جانب الروايات التاريخية عن تيمور أخبار أسطورية كذلك، ولكنها حررت باللغة الفارسية، وما لبثت ذكرى تيمور أن تحولت إلى نوع من التقديس الدينى ، كما تشهد بذلك النقوش المسكوكة على عملة أولوغ بك ، وأما التصوير الحى لتيمور الأعرج (أقساق تيمور) بوصفه قائداً عسكرياً فيوجد فى مناقب التتار والنوغاى لا فى تركستان .

كان الأوزبك كما كان الأتراك فى عهد التيموريين يرون فى أحمد اليسوى ولياً قومياً .

وقد سميت المدينة التى دفن بها أحمد اليسوى — وكانت قد أصبحت فى وقت ما عاصمة للأوزبك — سميت هذه المدينة (تركستان) وتدل هذه التسمية دلالة واضحة على تقديس الترك لأحمد اليسوى ، وعلى أهمية الأفكار التركية القومية عند الأوزبك ، وتوجد فى المبنى الذى شيده تيمور على قبر اليسوى قبور كثير من خانات وخواتين الأوزبك ، وبعد هزيمة شيبان ووفاته فى أثناء الحرب بين الأوزبك والإيرانيين سنة ١٥١٠ ، وبعد أن فقد الأوزبك — لمدة قصيرة — سمرقند وبخارى وسائر البلاد التى فتحوها ، انسحبوا إلى مدينة تركستان هذه التى ورد ذكرها .

وكان شيبان حفيد أبى الخير فاتح دولة التيموريين ، وهو تركى مؤمن بتركيته ، ولكنه مع هذا لم يكن مندفعاً فى فتوحاته بإحساسه بقوميته التركية .

وكان كغيره من البدو يفتح البلاد واحدة بعد الأخرى ولا يقف إلا أمام الصعوبات التى لا يمكن اقتحامها ، وبفضل انتصاراته العسكرية قبض — كما قال مؤرخ إيرانى — على ناصية المجد فى توران وإيران ، وفتح خراسان . وما كان ليقنع بفتح إيران كلها لو لم يهزم أمام جيوش اسماعيل الصفوى مؤسس إيران الحديثة ، وقبـــل ذلك بقليل هزمه قسم من القازاق فى مناطق الاستبس الشمالية .

(وهؤلاء القازاق فريق من الأوزبك انشقوا على قومهم وسموا من أجل ذلك (قازاق) وكان البدو يطلقون هذا الاسم على الجماعات التى تنشق على أقوامها وتحاربها) وكان تعبير (أوزبك ـ قازاق) مستعملا فى أول الأمر ، ويدل وجود مثل هذه الفئة المنشقة على أن الأوزبك كانوا مثل من سبقهم من البدو لا يميلون إلى الانضواء باختيارهم تحت لواء خاناتهم الذين كانوا يستغلونهم فى توسيع رقعة ممتلكاتهم ، وكان فتح ما وراء النهر على يد فئة جديدة من الترك ، لم تتأثر قطعياً بالمدنية الإيرانية عاملا على تطوير اللغة التركية فيما بعد ، وبخاصة فى ميدان الترجمة ، والواقع أن

هناك عدداً من المؤلفات كتبت لخوانين الأوزبك الأول ومنذ سنة ١٥٣٠ تحدث القوم عن أبي سعيد حاكم سمرقند (وهو ابن عم شيبان) بوصفه تركيا يجهل الفارسية جهلا تاما ، ولكن الفاتح لا يستطيع أن يظل هكذا أجنبياً بالنسبة لأهل البلاد المفتوحة .

وكان عبيد الله خان بخارى المتوفى (١٥٣٩) ، (وهو ابن أخي شيبان) يعتبر من أصحاب الكمال لا لأنه يحافظ فقط على تقاليد البدو ولكن لأنه يراعى أيضا أحكام الشريعة الإسلامية .

وفي القرن السادس عشر كان خان بخارى المشهور عبد الله (توفى ١٥٩٨ وأخذ في حوزته — عدا ما وراء النهر — خوارزم وخراسان) يدير أمور ملكه بنفس الروح ، ولما اعتلى عبد الله العرش سنة ١٥٨٣ حُمل على فروة بيضاء، وكانت تقاليد البدو تقضى بأن يمسك بأطراف الفروة الأربعة أربعة رؤساء يمثلون أربع قبائل من قبائل البدو ، ولكن عبد الله عدل عن هذا وبدلا من أن يحمل الفروة هؤلاء الرؤساء الأربعة حملها رؤساء الطرق الصوفية ببخارى ، ويدل هذا على أنه كان يحاول أن يؤلف بين عادات المشركين من البدو وبين الروح الإسلامي السائد في دولته .

وبلغ عبد الله مقاصده باتباع الوسائل التي اتبعها غيره من حكام آسيا الوسطى من المغول والترك ، وكان عهده عهد خير على سكان المدن خاصة فقد أفادوا من أداة حكمه القوية ، وما زالت مآثره العمرانية تذكر فتشكر في تركستان حتى يومنا هذا . فإليه ينسب شق كثير من القنوات ، وبناء كثير من الكرأوانسرايات وغيرها من المؤسسات الخيرية .

ولكن البدو لم يكونوا يحتاجون في ذلك الوقت — كما لم تكن بهم حاجة من قبل — إلى أن يتحدوا تحت راية حاكم قوى ، ومن هنا فقد كانت انتصارات عبد الله

عليهم دامية إلى أقصى حد ، ولم يكن عبد الله يقنع باستئصال أفراد الأسرة الحاكمة بمن فيها من الرضع بل كان يبيد الكتل الشعبية أيضاً ، وخصوصاً عندما غزا مناطق الأستبس الشمالية ، ويحكى أن قوماً أرادوا ألا يواصل المجزرة بعد أن بدأها فى إحدى المرات فدفعوا أمامه — عن قصد — عربة تحمل جثث القتلى ، ولكنه لم يرق ، ومضت المجزرة حتى نهايتها ، ومع هذا فلم يُفد كثيرا من هذا القتل العام فعلى الرغم من خسائر القازاق الفادحة ، فقد هاجموا — قبل وفاة عبد الله — بلاد ما وراء النهر ، ووصلوا إلى سمرقند ، وما لبثت الدولة التى أسسها عبد الله أن مزقت وقسمت بعد وفاته ووفاة ابنه عبد المؤمن ، وانتقلت كل المناطق التى فتحها إلى أسرة أخرى لم يكن لها من قبل إلا جزء من بلاد أبى الخير ، ولم يستطع أحد من الخانات المتعاقبين أن يوحد البلاد بقدر ما وحدها عبد الله .

خوارزم تحت حكم الأوزبك :

ومن المظاهر التى أثرت على مصير خوارزم ظاهرتان : انعدام الوحدة السياسية بين الأوزبك ، وفقدان الحماس لخلق هذه الوحدة .

وكانت خوارزم فى آخر عهد التيموريين تابعة للسلطان الحاكم فى هراة ومستقلة استقلالا تاماً عن سلطان سمرقند ، ولم يغز الشيبانى خوارزم إلا بعد سمرقند أى فى نفس الوقت الذى وجه فيه حملته إلى خراسان ، ومنذ عهده كانت خوارزم جزءاً من الخانية الأوزبكية التى تضم سمرقند وبخارى ، ولكن شاه إسماعيل بعد أن انتصر فى حرب ١٥١٠ ترك سمرقند وبخارى لبابر آخر التيموريين ، وبدأ يعين على خوارزم ولاة من قبله هو ، ثم طرد أقاربُ الشيبانى بابر من بلاد ماوراء النهر ، وطرد الولاة الإيرانيون قوماً من الأوزبك من نسل شيبانى ولكن ينتمون إلى فرع غير فرع أبى الخير ، وفى القرن السادس عشر خضعت خوارزم مرتين (فى عهد عبيد الله وعبد الله) لخانات بخارى ، وكان من نتائج ذلك أن طال عمر

أسرة أبناء الشيبانى بخوارزم عن عمر أسرة الأوزبك بسمرقند و بخارى ، ذلك أن حكمها استمر حتى آخر القرن السابع عشر تقريبا ، بينما انتهت أسرة أبى الخير فى القرن السادس عشر ، ويروى المؤرخ الخوارزمى خان أبو الغازى (ت ١٦٦٣) أن زوال أسرة أبى الخير كان عقوبة لها ، على ما قام به عبد الله من إبادة أفراد الأسرة الحاكمة بخوارزم ، ويرى أيضاً فى تصرفات عبد الله بخوارزم علامات الجهل ، ولكنه مع هذا يقدر عبد الله كحاكم ويقرر أن العملة التى سكت فى زمانه كانت مرتفعة القيمة فى سوق النقد الدولية ومع هذا فقد كان أبو الغازى من بين خانات خوارزم أول من بدأ سلسلة الهجوم على بخارى ، وبدأها بشخصه ، حتى أن بخارى — فى عهد ابنه وخليفته آنوشه — دخلت لمدة قصيرة تحت حكم الخوارزميين .

الفوضى والانحطاط الثقافى :

وهكذا بدأ منذ ذلك الوقت الصراع الدامى بين الأقوام التركية بآسيا الوسطى ، ذلك الصراع الذى استمر حتى فتح الروس والصينيون تركستان ولم يكن هذا الصراع يقع بين الحكومات فقط ، بل كان مشتعلا أيضاً بين العناصر المختلفة التى تنضوى تحت لواء كل حكومة على حدة ، وفى القرنين السادس عشر والسابع عشر كانت الأقاليم الخاضعة للحكم التركى ، تمتد من بحر الخزر غربا إلى هامى فى الشرق ومن هندوكوش وقوئنلون فى الجنوب إلى حدود البلاد الروسية فى سيبريا شمالا ، وكانت حال هذه المناطق الشاسعة تدل على أنها انحطت حضاريا من وقت قريب ويحار المؤرخ الذى يريد أن يشرح هذا الوضع فى التمييز بين السبب والمسبب وهذه هى الحال فى كثير من المشكلات التاريخية ولم يكن بد ، وقد وقع جزء كبير من آسيا الوسطى بيد قوم متخلفين حضاريا كالأوزبك من أن تفقد آسيا الوسطى جزءاً من أهميتها فى التجارة الدولية ، ذلك أن نشاط التجار كان محفوفاً بالصعاب بسبب

فقدان السلطة السياسية الموحدة فى تلك الدول ، فنى خوارزم مثلا كان كل عضو من الأسرة الحاكمة يحاول أن يجبى لشخصه رسوماً على كل شىء .

ومهما يكن فقد كان من الممكن تخطى كل الصعاب فى سرعة ويسر لو أن الطريق الذى يقطع آسيا الوسطى والذى سلكته القوافل حتى ذلك الوقت، كان قد احتفظ بقيمته التى اكتسبها فى النصف الأول من القرن الخامس عشر ، فى عهدى تيمور وأولوغ بك . . تلك القيمة التى فقدها تدريجياً فى النصف الثانى من القرن نفسه بعد أن كشف الأوربيون أمريكا والطريق البحرى إلى الهند، وبعد أن انتقلت الأهمية الكبرى إلى التجارة البحرية التى قبضوا على أزمتها، وعدا هذا فقد أوجد استيلاء الروس على سيبريا طريقا بريا جديدا يصل بين أوربا وبين الشرق الأقصى ، فحتى النصف الثانى من القرن السادس عشر ، كان تجار سيبريا يتعاملون مع الصين بواسطة قوافل تجارية تصل ما بين آسيا الوسطى وبين مدينة سوجونو على حدود الصين ، وفى النصف الأول من القرن الثامن عشر ، عقدت بين روسيا والصين بعض المعاهدات التى نظمت علاقتهما التجارية فظهر نتيجة لهذا طريق جديد إلى الصين (وهو طريق سيبريا) الذى عززه فى أوائل القرن العشرين خط حديدى ، وهكذا أخذت أهمية تركستان تسقط فى ميدان التجارة الدولية ، ولئن كانت سيطرة الأوزبك المتخلفين حضاريا على آسيا الوسطى ، قد حتمت تحويل الطرق التجارية إلى مسالك أخرى ، فإن هذا التحويل قد أثر عليهم بدوره تأثيراً سيئاً فزاد مستواهم الحضارى انحطاطاً ، وحال بينهم وبين الرقى إلى حد كبير ، ومع هذا فليس بين أيدينا ما يثبت أن الأوزبك وغيرهم من أتراك آسيا الوسطى كانوا — فى القرنين السادس عشر والسابع عشر — أقل قابلية للمدنية من غيرهم من أتراك العصور الوسطى .

التركمان :

كانت خوارزم أقصى مواطن الترك فى آسيا الوسطى نحو الغرب وكان أهاليها يتكونون — بالإضافة إلى الأوزبك — من السارت والتركمان ،ولم يكن الأوزبك قد استعملوا بعد كلمة (سارت) بمعنى كلمة (عجم)أو (غير تركى) كما كان يفعل التيموريون ، بل كانت كلمة سارت فى ذلك الوقت تدل على سكان المدن وهم قوم يتكلمون التركية مثل الأوزبك ، ولكنهم يختلفون عنهم اختلافاً كبيراً من الناحية الحضارية ، وفى العادات والتقاليد . وكان أبو الغازى يدرك الفروق بين الأوزبك والسارت لامن حيث أن الأوزبك بدو يحتفظون بنظامهم القبلى فقط بل من حيث هم أيضاً قرويون يشتغلون بالزراعة ، ولم يكن السارت فى ذلك الوقت قد لعبوا دورهم السياسى والعسكرى فى تاريخ خوارزم ، وعلى العكس من هذا كانت الوقائع الدامية متوالية بين التركمان والأوزبك حتى أواخر القرن السادس عشر وفى بعض الأحيان كان خانات خوارزم يستعينون بالتركمان فى صراعهم ضد رؤساء الأوزبك ، وكانوا يسفكون كثيراً من الدماء الأوزبكية بأيدى هؤلاء التركمان ، ومما يدل على ما كان للتركمان من الأهمية أن المؤرخ الخوارزمى أبا الغازى أفرد تاريخهم بكتاب ، عدا الكتاب الذى ألفه فى تاريخ الترك وخصص الجزء الأكبر منه لتاريخ الأوزبك ، وقد حافظ التركمان أكثر من الأوزبك على طرز حياتهم العسكرية وعلى أشعارهم القومية بل لم يكن لغيرهم من الأقوام التركية شاعر قومى ؛ فقد كان لهم الشاعر مخدوم قولى ، ولم يكن التركمان يعتبرون الأوزبك أتراكا بل كانوا يعتبرونهم (تات) وكان محمود الكشغرى يطلق هذه الكلمة على غير البدو من سكان المدن وكان التركمان فى ذلك الزمان يعيشون — كما عاشوا دائماً — فى فوضى سياسية ، ومما يلفت النظر أن هؤلاء التركمان الذين خرج منهم مؤسسو أكبر إمبراطوريتين تركيتين وهما الإمبراطورية السلجوقية ، والإمبراطورية العثمانية ، هؤلاء التركمان لم يكن لهم فى أى وقت دولة مستقلة ،

ومنذ القرن السادس عشر كان بعض أقسام التركمان يخضع للأوزبك فى خوارزم وبعضهم للبخاريين وبعضهم للعجم، وكانوا — فى أثناء الحروب التى تقوم بين هذه الدول — ينضمون أحياناً إلى هؤلاء، وأحياناً إلى هؤلاء، وأحياناً يحارب بعضهم بعضاً، ولكنهم مع هذا كانوا يغلبون أعداءهم، وكان التركمان أشد الناس مقاومة للروس وآية هذا أن جيوش الروس لم تفقد العلم والمدافع إلا فى حربها مع التركمان فى سنة ١٨٨٠.

خانية خيوة.

وكان أوزبك خوارزم يدافعون عن دولهم رغم أن ظروفهم لم تكن لتساعد على ذلك، وفى النصف الثانى من القرن السادس عشر، توقف بخوارزم مأساة جديدة من فعل الطبيعة وظروف الإقليم، فقد توقف جيحون بعض الوقت عن إمداد فرعه الأيسر الذى يروى، أوركانج كبرى مدن المنطقة، وبدأ يصب مياهه كلها فى بحيرة آرال، وظهرت فى دلتا جيحون عاصمة جديدة هى خيوه، ومدن أخرى قامت فيها — لمدة محدودة — حكومة مستقلة سياسياً عن خيوه. ولما كان الخوارزميون أقل تأثراً بالمدنية الإيرانية فقد استطاعوا أن يحافظوا على لغتهم وعلى تقاليدهم أكثر من البخاريين، وفى القرن السادس عشر وُضِعَ لأحد الخانات وهو دوست خان سجل جامع للتقاليد القومية وفى القرن السابع عشر أخرج أبو الغازى كتابه التاريخى الهام فحرره بلغة يفهمها الطفل فى الخامسة من عمره، فلم يكتف باستبعاد الكلمات العربية والفارسية بل حاول أيضاً ألا يستعمل الكلمات الجاغاتائية القديمة، وكان أبو الغازى قد أقام بإيران عشرة أعوام فكان لذلك من أصحاب الثقافة بالنسبة إلى أبناء قبيلته.

وكان أبو الغازى يقبض على مقاليد الحكم بقوة، وقد اصطنع — ليبرر استبداده — نظرية تشبه نظرية معاصره الإنجليزى هوبس Hobbes وخلاصتها أن من واجب أفراد الجماعة أن يسلموا إرادتهم لواحد منهم محافظةً على النظام،

وليس بعيداً أن تكون نظرية هو بس هذه قد وصلت إلى أبي الغازى بواسطة بعض الإنجليز المؤمنين بها ، والمقيمين وقتذاك بإيران . وقد أعجب خليفته آنوشة بنظرية الحكم الاستبدادى الإيرانية ، ولقب نفسه بعد فتح مشهد بلقب (شاه) ثم سمى القناة التى شقها بعد ذلك (شاه آباد) مما يدل على مدى اعتزازه بلقبه الجديد ، وعلى الرغم من هذا ، فلم تكن الظروف تساعد على إقامة عرش قوى فى خوارزم الصغيرة ، وما لبثت الأسرة بعد وفاة آنوشة أن انقرضت . وانتقل الحكم إلى أيدى البطون البدوية التى حافظت — رغم هذا — على المبدأ القائل بأن حق اعتلاء العرش قاصر على أبناء جنگيزخان ، وهكذا كان القازاق يستقدمون من الاستپس الخانات المغلوبين فيولونهم العرش ، ويسمى المؤرخون هذا التقليد (لعبة الخان) = (خانبازى) وكان البخاريون يرون أن أوزبك خوارزم أصحاب أفكار مستقلة لا يتبعون أهواء حكامهم ، وقد بلغت الفوضى أقصى حدودها فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، حتى لقد خربت مدينة خيوه تخريبا تاماً ، ثم بدأ النظام يستتب منذ سنة ١٧٧٠ تحت حكم أسرة جديدة هى أسرة الـ (قونغرات) التى وفق أعضاؤها فى تأسيس حكومة قوية ببلادهم ثم لقبوا أنفسهم فيما بعد بلقب (خان) .

وفى سنة ١٨٤٠ كان خان خيوة لا يزال يحكم منطقة واسعة تمتد من مرغاب إلى ضفاف المجرى الأدنى لسيحون ، ولكن حدود هذه المنطقة ما لبثت أن ضاقت كثيراً بسبب الثورات التى قام بها التركمان والقازاق ، ولما استولى الروس على خيوه فى سنة ١٨٧٣ تركوا خوارزم لخان خيوه ، وكانت حدود خوارزم قد ضاقت جداً ، وعند ما خططت الحدود القومية فى سنة ١٩٢٤ تلاشت خوارزم كدولة وألحق جزء كبير منها بأوزبكستان ، وألحق الباقى بتركمانستان ، فإلى أى مدى كان هذا الإجراء المنبثق عن مبدأ القومية مرغوبا فيه ؟ هذه مسألة يمكن أن تعرض للمناقشة ، والواقع أن خوارزم لم تكن لها قومية خاصة

منذ القرن الحادى عشر ، ولكنها — مع هذا — كانت كيانا قائماً بذاته من حيث التقاليد وطراز المعيشة والخصائص الاقتصادية ، وكان من الطبيعى ألا يُمحى هذا الكيان كله دون أن يخلف أثراً .

خانية بخارى :

ولكن حياة الحكومات الأخرى لم تكن كثيرة القلاقل إلى هذا الحد فلم يكن بالمناطق التى يحكمها خان بخارى من العناصر المتضادة إلا الأوزبك والتاجيك وكانت السلطة السياسية فى يد الأوزبك .

ولما ضعفت سلطة الخان فى النصف الثانى من القرن السابع عشر ، دخلت بعض المناطق تحت حكم رؤساء القبائل الأوزبكية المنعزلة وهكذا ظهر من جديد النظام الإقطاعى الذى كان سائداً فى تركستان فى القرن الرابع عشر ، أى فى نهاية العهد المغولى ، وقبل ظهور تيمور ، ولم يكن بدٌّ — عدا هذا — من وقف اعتداءات القازاق الذين كانوا قد خربوا سمرقند حتى تلاشت من الوجود بعض الوقت .

وقد كانت — بخارى على عكس خيوه — مصونة من مثل هذه الاعتداءات حتى فى أوقات الهزائم المنكرة التى كانت تتحملها وهى تجاهد أعداءها فى الداخل والخارج .

وفى عهد أسرة ما نغيت الجديدة التى تلقب أعضاؤها بالأمراء لم يطرأ أى وهن على سلطة خانات بخارى بل اضطلع هؤلاء الأمراء بالكفاح المرير ضد أرستقراطية البطون الأوزبكية أو على حد تعبير العالم خانيسكوف ضد الإقطاع البخارى ، ومع أن هذا الكفاح لم يكلل بالنجاح فإنه زاد قوة حكومة الأمراء فى بخارى ، حتى لقد استطاع بعضهم أن يضم خوقند — لفترة ما — إلى مناطق حكمهم ، ونفذ هؤلاء الأمراء بعض مشروعات الرى إحياء للزراعة التى كانت قد

اضمحلت ، وتوطن الأوزبك الذين ألفوا حياة الحضر فى الأماكن التى استُصلحت من أراضى وادى زرفشان ، ولم يبق فى أيدى التاجيك — مع بعض الاستثناءات — إلا القرى الموجودة فى الجبال ، ومع هذا فقد بقى أهالى المدن الرئيسية كسمرقند وبخارى تاجيكا . بل كان الأمراء أنفسهم تاجيك أكثر منهم أوزبك ، ويقول المؤرخون من أهل خيوه إن جيش بخارى كان مكوناً من التاجيك مع أن العنصر الأوزبكى كان هو العنصر العسكرى فى خانية بخارى .

خانية خوقند :

وفى فرغانة حيث توطن العنصر التركى منذ العهد المغولى ، طرد التاجيك إلى الجبال ، ومع هذا فقد كان التاجيك والأوزبك فى فرغانة — كما كانوا فى خوارزم — منفصلين عن السارت وكانت كلمة سارت تطلق فى ذلك الوقت على سكان المدن من الناطقين بالتركية ، وكان هؤلاء السارت يشكلون فى فرغانة قوة سياسية هامة بل لقد حاربوا الأوزبك وبخاصة الفرع القبچاقى الذى استولى على الحكم بعض الوقت .

أما القازاق ، فكانوا يستعملون كلمة (سارت) بمعنى آخر إذ كانوا يستعملونها فى مقابل كلمة (قازاق) التى تؤدى معنى (البدو) فى الاستعمال الجارى عندهم أى أنهم كانوا يطلقون كلمة سارت على سكان المدن والقرى بغض النظر عن اللغة التى يتكلمونها ، وفى القرن التاسع عشر وسع خوانين خوقند رقعة الأراضى المزروعة فى فرغانة بما نفذوا من مشروعات الرى كما بذلوا جهوداً كبيرة لترقية الحياة الحضرية . وعدا هذا فقد حاربوا بخارى واستطاعوا أن يوسعوا المناطق الخاضعة لحكمهم إلى سيحون من ناحية الشمال الغربى ، وإلى منطقة يدى صو فى الشمال الشرقى ، ثم بدءوا يبذلون الجهود ليخضعوا القازاق والقيرغيز لحكمهم .

القازاق والقيرغيز
والقالموق :

وتطلق المصادر الروسية كلمة (قيرغيز) على شعبين مختلفين تمام الاختلاف هما القيرغيز والقازاق ، ثم قيل للقيرغيز (قارا قيرغيز) تمييزاً لهم عن القازاق وقد رأينا أن القازاق عبارة عن قسم من الأوزبك الذين تحرروا من حكم أبى الخير فى القرن الخامس عشر فقط، أما القيرغيز فقد كانوا موجودين منذ زمان بعيد وإن كنا لا نستطيع أن نعلم متى ولا كيف توطنوا مكانهم الحالى فى الجزء الجنوبى من منطقة يدى صو والشرقى من منطقة سيحون ، ومع هذا فلم يرد ذكر للقيرغيز فى الأخبار المروية عن غزوات تيمور واولوغ بك ، وإنما ذكروا أول ما ذكروا فى القرن السادس عشر حيث كانوا يقيمون فى منطقة يدى صو تحت حكم السلطان خليل بن الخان المغولى أحمد .

ولم يرد شيء عن المكان الذى جاءوا منه إلى هذه المنطقة ، ودخل هؤلاء القيرغيز غير مرة خلال القرن السادس عشر تحت حكم خانات القازاق ، وحاربوا فى صفوفهم ضد المغول المتتركين الذين كانوا يحكمون كاشغر ، وفى القرنين السابع عشر والثامن عشر حاربوا مع القازاق المهاجرين المغول الوافدين حديثاً وهم القالموق الذين كانوا قد حكموا لفترة ما آسيا الوسطى ، ومما يجدر ذكره أن القالموق اشتركوا فى هذه الحرب لحسابهم الخاص ، وفى القرن الثامن عشر استولوا على طاشقند وسايرام وتركستان وكانت كلها تابعة فى ذلك الوقت للقيرغيز ، بل خضعت لهم أيضاً بخارى .

ولما كانت البوذية قد رسخت تماماً عند القالموق فإنهم لم يستطيعوا أن يدخلوا فى الإسلام ، كما دخل خلفاء جنكيزخان ، فلم يسلم منهم إلى عدد قليل يطلق عليه الآن (سارت قالموق) وما لبثت دولة القالموق هـــذه القوية أن دمرت على أيدى الصينيين سنة ١٧٥٨ وكانت الحرب من الضراوة بحيث أبيد فيها قسم كبير

من القالموق ، وعندما أراد القالموق — خلافاً لرغبة روسيا — أن يتجهوا من حوض الڤولجا إلى الشرق ، أنزل بهم القازاق ضربات جديدة قاصمة ، وبعد أن انتهت دولة القالموق حاول الصينيون أن يدخلوا القازاق والقيرغيز تحت حكمهم ، لكن روسيا تصدت لهم وكسبت الدعوى .

وفي النصف الأول من القرن التاسع عشر ، ألغى الروس حكم الخانات بين القازاق ، أما القيرغيز فلم يكن لهم — من الأصل — خوانين من عنصرهم وهى ظاهرة لاحظوها هم أنفسهم ، ولما كان القيرغيز قد أدخلوا تحت حكم الروس بعد القازاق ، فقد استطاعوا ـ لذلك ـ أن يحتفظوا مدة أطول بتشكيلاتهم العسكرية وقد خلفت الحروب بين القيرغيز والقالموق أثراً فى الملاحم القيرغيزية (وخصوصاً فى حكايات ماناس) ومع أن القيرغيز فى القرن التاسع عشر لم يكونوا يعلمون شيئاً عن نصوص الإسلام وشعائره (مثلهم كمثل أسلافهم فى القرن السادس عشر) فإن ملاحمهم هذه تصور هذه الحرب كأنها حرب دينية .

وقد حصل القيرغيز الآن — كما حصل القازاق — على حق تكوين جمهورية قومية .

ولأسباب مختلفة كان حظ القيرغيز فى القرن التاسع عشر أسوأ من حظ القازاق وما زالت حال القيرغيز الآن محزنة من الناحيتين الصحية والثقافية .

أتراك الآلتاى والينيسى :

لم يكن لأتراك الالتاى وينيسىّ الأعلى كيان سياسىّ خاص فاندمجوا فى دولة القالموق ، وقد قبل أتراك الآلتاى — بعد تكون الجمهوريات القومية — اسم (أويرات) وهو فى أصله عنوان على القالموق .

تركستان الشرقية :

وكان القالمون قد استولوا فى القرن السابع عشر على شرقى تركستان حيث كان يحكم بعض خانات المغول المتتركين الذين يطلقون على أنفسهم اسم المغول، وبعد أن تبدلت الظروف السياسية أخذ استعمال هذه الكلمة يزول تدريجياً مثلها كمثل اصطلاح (جغتاى) فى تركستان الغربية . ولم يحتفظ أتراك شرق تركستان باسمهم القومى حين كانوا تحت حكم القالموق ولا حين حكمهم الصينيون فيما بعد ، ولم تكن بهم حاجة إلى هذا الاسم فقد كانت أقسامهم المختلفة توسم باسم المكان الذى تعيش فيه ، كان يقال (كاشغرليق . طورفانليق الخ) . وكان الأمراء المسلمون يحملون غالباً اللقب الصينى (وان) أى ملك ، وعدا هذا فقد انتقلت السلطات السياسية ـ منذ عهد خانات المغول ـ إلى رجال الدين وهم (الخوجات) أى العلماء الذين نشأوا فى فرغانه وبوجه خاص فى جزئها الشمالى الذى يسكنه التاجيك ، ويمكن أن نصف حركات الخوجات بغرب تركستان بأنها جهاد قومى قام به التاجيك ضد الأوزبك والقازاق ، وأما فى تركستان الشرقية التى التى تم تتركها فقد كان العلماء مندمجين فى الترك ، وكانوا يحملون ألقاباً تركية ، وقد كان يقال إن هؤلاء الخوجات هم ناشرو الإسلام فى تركستان الغربية ، ولكن ليس بالمصادر مايدل على ذلك ، بل المعروف أن الاسلام قد استقر هناك منذ القرن الخامس عشر ، وأن خانات المغول كانوا ينشرونه بحماس ، بل بالقوة أحيانا ، فكانوا يلبسون رعاياهم العمائم . بل يقال إنهم أجبروا المغول على قص ضفائرهم ، وكان الخوجات ـ تقوية لنفوذهم ـ يحاربون تقديس مشايخ الصوفية المحليين مع أنهم مسلمون ومن المحتمل أن أماكن هؤلاء الأولياء كانت مقدسة قبل دخول الإسلام فى هذه المناطق حتى إذا أسلمت نسبت هذه الأماكن إلى بعض الأولياء المسلمين ، وقد حدث مثل هذا فى أوربا حيث يقدّس بعض قديسى النصارى فى أماكن كانت تقام فيها من قبل العبادات الوثنية .

وأما الحالة الثقافية فى شرق تركستان فهى آلم من حالة الأوزبك إذ ضعف هناك أثر أوربا وغرب آسيا ، وكانت اللغة الفارسية هناك هى لغة العلم إلى حد ما .

وفى منتصف القرن السادس عشر حرر محمد حيدر كتابه فى التاريخ باللغة الفارسية ، ويرى علماء أوربا أن هذا الكتاب هو الأثر العلمى الوحيد الذى حرر فى كاشغر ، وقد ترجم هذا الكتاب عدة مرات فيما بعد إلى اللغة التركية التى صارت وحدها لغة الأدب ابتداء من القرن الثامن عشر ، ولكن منذ ذلك الوقت لم يظهر أثر أدبى له قيمة ، وكان من نتائج الحركات السياسية فى سنة ١٨٦٠ أن استعاد شرق تركستان استقلاله لمدة قصيره ، وفى نفس ذلك الوقت ، كان غرب تركستان قد وقع فى قبضة الروس .

والواقع أن قصة الحرب فى شرق تركستان حافلة بالفجائع ؛ إذ لم تكن الحرب مستعرة بين الأهالى و بين الصينيين فحسب ، ولكنها كانت تستعر بين الأهالى أنفسهم لغير غاية ولغير سبب ، حتى لقد اعترف بعض المؤرخين المسلمين المحليين بأن الأهالى كان يسرهم أن تقوم من جديد حكومة صينية .

و بقيت تركستان الشرقية تابعة للصين حتى بعد سقوط أباطرة المانچو وقيام الجمهورية الصينية ، ولكن الأحداث فى روسيا أوجدت الأمل فى أن يكون لتركستان الشرقية على الأقل استقلال ثقافى وشخصية مستقلة .

ويريد المثقفون بتركستان الصينية الآن أن يسموا أنفسهم (الأويغور) مع أن حكم الأويغور لم يصل أبداً إلى حدود كاشغر الغربية ، ومع أن بقايا من الأويغور ما زالت تعيش فى أقصى الشرق على حدود الصين ، وتدين هذه البقايا الأويغورية بالبوذية ، وقد كانت تستعمل الأبجدية الأويغورية التى نسيها الترك منذ القرن الخامس عشر ، وكان لها — بنفس هذه اللغة الأويغورية — أدب دينى

خاص وإن يكن مترجماً ، ولكن هذه البقايا استبدلت أخيراً أبجدية التبت بالأبجدية الأويغورية .

المستقبل :

ويرتبط مستقبل أتراك آسيا الوسطى كما يرتبط مستقبل غيرهم من الأمم بمدى مشاركتهم فى الحضارة العالمية .

ولا داعى لأن نتوقع الآن إحياء الطريق التجارى الدولى الذى كان يربط غرب آسيا بالصين فى العصور الوسطى بإنشاء خط حديدى يمتد من غرب آسيا إلى الصين مارا بتركستان .. لا داعى للاعتماد على هذا المشروع الذى أثير أخيراً فى الصحف ؛ إذ من المستبعد أن يبحث هذا المشروع الذى تكتنفه كثير من الصعاب الفنية مع وجود الخط الحديدى الذى يصل إلى الصين بطريق سيبيريا ، ولكن من المحتمل أن تستفيد تركستان وبخاصة تركستان الغربية إذا نفذ المشروع الذى طرح للبحث من زمن بعيد ، وهو مشروع مد خط حديدى من أوربا إلى الهند .

٢ صفر سنة ١٣٧٨ هـ

١٧ أغسطس سنة ١٩٥٨

فهرس الأعلام

(ا)

(ب)

(پ)

(ت)

(ج)

(چ)

(ح)

(خ)

(د)

(ر)

فهرس أسماء الأماكن والأنهار والبحيرات

فهرس الاصطلاحات

تصويب

الصحيفة	السطر	الخطأ	الصواب
١٧٧	٨	إلا بالإكراه	بالإكراه بحذف إلا

٥ر٣٢

مطبعة المعرفة
ت ٣٣٩٩٠